معهد الانماء العربي

# تطور بنى الأسرة العربية

## والجذور التاريخية والاجتماعية لقضاياها المعاصرة

د. زهير حطب

الدراسات الانسانية

تطور بني الاسرة العربية

الدراسات الانسانيّة

علم اجتماع الأسرة



# تطوّر بُنى الأسرة العربيّة

## والجذور التاريخيّة والاجتماعيّة لقضاياها المعاصرة

د. زهير حطب

معهد الانماء العربي

فرع لبنان




المركز الرئيسي : ص.ب : ٨٠٠٤ طرابلس - ج.ع.ل .
فرع لبنان : ص.ب : ١٩/٥٣٠٠ بيروت



الطبعة الاولى - بيروت - ١٩٧٦
الطبعة الثانية - بيروت - ١٩٨٠

# مدخل

يشهد الوطن العربي منذ امـد ، تحولات مهمة اصابت مختلف مجالات الحيـاة ومظاهرها ، وانعكست نتائجها عـلى هيكلياته عموما ، ومؤسساته الاجتماعية خصوصا . والاسرة هي احدى هذه المؤسسات التي اضحت ميدانا لبروز الظاهرات الجديدة .

لقد اخذت سلطة الاب تنحسر وتتراجع الطاعة الواجبة له ، وانتشرت روح التمرد على الاسرة وعلى رموزها لـدى الابناء ، وبـدأت تضعف اواصر صلاتهم بافراد العائلة الآخرين كالاعمام والخؤول وغيرهم . ورادت المراة سبيلها الى العمل ، فأسقطت صورتها التقليدية ك « ست بيت » ، وساهمت ماديا في تكاليف معيشة الاسرة من دخلها الشخصي من العمل ، فضربت بذلـك مفهوم الاعالة والقصور . وبدات تناقش زوجها في مختلف القضايا والمواضيع التي تمسها او تؤثر بحياتهما المشتركة فهددت موقعها التاريخي الدولي بالانهيار . كما أخذت علاقات جديدة كالمساواة والديمقراطية ونزعة التحاور ، تحـاول فرض نفسها على صيغة العلاقة بين مختلف اعضـاء الاسرة ، فاعتبرت غـير مألوفة بحـد ذاتها .

وشقت العاطفة والحب الطريق الى قلوب الشبان واصبحا قاعدة للزواج عند الكثيرين . وتقهقرت نسبة الزواج الى ابناء العمومة ، وتعاظمت حـالات النزاع بين الازواج ، واصبحت بينة ظاهرة للآخرين بعد ان كانت تموه او يعتم عليها ، وانتشرت في كـل الاوساط الاجتماعية ، بين الاغنياء كما بين الفقراء ومتوسطي الحال . وتكاثرت حالات اخفاق الخطبة وفسخها ، بعد ان كان ذلك يعتبر عارا لا يمكن تحمله . واجتاحت المخالعات والابراء ساحة حـل عقـدة الزوجية واصبحت ابرز ظاهرة على صعيد السبل المتبعة لانهاء الزواج .

ازاء هذه التغيرات التي أصابت مؤسسة الاسرة في بنيتهـا ، وشكلها ،

وحجمها ، ومشاكلها ، ظهرت كتابات كثيرة حاولت ان تتناول هـذه القضايا والامور وتعالجها .

والواقع ، ان المهتم أو الدارس لاوضاع الاسرة العربية بشكل عام ، يجد ان المنشورات التي تتحدث عن المواضيع الاسرية ، ومـا استجد في ميدانها من ظاهرات ، ينطلق معظمها من مقولات ومسلمات دينية ، او متأثرة الى درجة بعيـدة بالقوانين والتنظيمات الاسلامية الموضوعة . ولقـد لجأ معظم هـذه الدراسات الى المبادىء الدينية الكبرى ، يستقوي بها ليظهر خطأ مظاهر التطور اللاحق بالاسرة ، بعد ان أقلق ذلك أصحابها ، فحكموا على التطور بالخسران . وبالنتيجة ، تحددت توجهات هذه الدراسات قبل أن تبدأ . وبدأت من حيث يجب أن تنتهي . وانتهى بها الامر الى اصدار حكم على النتائج ـ الظاهرات ، كان من ابرز سماته انه معياري أخلاقي ، ومؤداه ان انحسار دور الدين في الحياة الخاصة للمسلمين هو الذي أدى الى بروز هذه الظاهرات .

وليس هذا الامر بغريب . اذ ان فئة واسعة من الناس ، بل من المفكرين المسلمين ، ما برح يختلط عليها امر ما هو ثابت وما هو قابل للتحول من أمور الدين . فلا جدال في ان المعتقدات المتعلقة بالايمان والعقائد هي قضايا تتمتع بصفة الثبات والديمومة ( بل والقداسة ) . أما النظم التي تحكم علاقات الناس فيما بينهم ، في ظلال الدين والتشريعات التي يسنها ، فليس لها قوة ثبـات العقائد ولا قدسيتها ، لانها تنظيمات ومواقف رسمت للمؤمنين فيما بعد ، وقد تم التوصل اليها عن طريق الاستنباط أو القياس أو الاجتهـاد ، وهي كلهـا تستند الى حيثيات لا تتصف بالثبات وان كانت تتصف بالتطور والتبدل . فلا عجب بعد ان وضعت قضايا الايمان والنظم في الكفة نفسها من ان ينظر بعض الخاصة من الناس ومعظم عامتهم ، الى القضايا التي تناولها الاسلام ونظمها ، على انها من المقدسات ، ويرفضون بالتالي قبول أي تطور أو تحول يطرأ عليها ، توكيدا للاصالة الاسلامية فيها ، وحرصاً على حسن تدينها .

ولم تخرج قضايا الاسرة عـن هـذا المنطق السائد . فواجهت التغيرات التي حدثت فيها بالاعلان عن « تفسخ عميق » أصاب الاسرة ، وعن التخوف من الانهيار التام الشامل لهذه المؤسسة ، والدعوة الى مقاومة الاشكال كافة والظاهرات الجديدة ، والعودة الى الله وتعاليمه ، واعتبر كل سماح للتغير ، اذا حصل ، بمثابة ارتكاب خطيئة بحق الدين .

وهناك فئة ثانية ادركت عمق التحول الحاصل في المجتمع ككل ، وفي الاسرة على وجه التحديد ، واستحالـة الدعوة للعودة الى أشكـال العلاقات الاسرية السابقة ، والى ظاهراتها التقليدية ، فانبرت تشحذ هممها وافكارهـا باحثة عن الفتاوى والتعليلات والمخارج لمثل هـذه الحالات التي بـدأت تصبح شاملة . وكان همها ان تلجم الظاهرات المستجدة عن طريق احاطتها بالاطـر السابقة . فتخلع على الواقعات الجديدة حللا قديمة تقليدية . فلئن حجرت الفئة الاولى ، النظرة التقليدية الى قضايا الاسرة ، وجعلتهـا صالحة لكـل

زمان ومكان ، فان الفئة الثانية قد كبتت تلك القضايا وفرضت عليهـا أن تبقى اسيرة النظرة السلفية .

والامر البارز في هذا المضمار هو الغياب البين لمساهمات علماء الاجتماع، والنفس الاجتماعيين والانتربولوجيين العرب ، التي يمكن ، فيما لو توفرت ، ان تلقي اضواء جديدة ، تساهم في تحقيق عملية الفهم الموضوعية والعلمية لهذه التحولات على صعيد الاسرة . والواجب ان تنقى النظرة الى كافة القضايا التي لها علاقة بالدين وتصحح ، فتستعيد صفاءها ، ليستعيد الدين اصالته ، والحياة انسيابها ، والتاريخ مسيرته .

فالنظرة لم تفسد الا بعد ان تمت عملية خلـط ، ازالت الفواصل بـين عوالم العقيدة والنظم ، فالدين لم يفقد حرارة التمسك به لـدى الكثيرين الا بعد أن قدمه رجال الدين على انه كل اعتقادي ، والحياة لم تتعثر مظاهرها الا بعد ان فرضت عليها أشكال معينة للتحرك ضمنها .

ونحن ، مع ادراكنا الكامل للدور الذي يلعبه الاسلام في الحياة اليومية للشعوب العربية ، ندعو الى التمييز بين ما هو معتقدي ايماني ، وبين مـا هو علائقي اجتماعي . وعلى هذا الاساس كانت نظرتنا الى قضايا الاسرة العربية المعاصرة ، ونحاول ان نساهم مساهمة علمية في هذا المجال . لقد عدنا الى الجذور التاريخية والاجتماعية لكل قضية مطروحة من قضاياها واستعرضنا المراحل التي مرت بها التشكيلات الاجتماعية العربية حتى وصلت الى اشكالها الحالية .

وتوقفنا في الفصل الاول عند التشكيلات العربية الاولى في الجاهلية ، حضرية وبدوية ، ودرسنا بنيانها ، وقضاياها ، والقوى الفاعلة التي أدت الى تطورها ووجهة ذلك التطور ومحصلته .

وفي الفصل الثاني تحدثنا عـن اثر الدعوة الاسلامية على مسيرة تطـور الاسرة العربيـة وعـن القضـايا التي استجـدت عـلى صعيـد التوليفـات الاجتماعية القائمة ، كما ميزنا بين التحولات التي أفرزتها التنظيمات الاسلامية التي فرضت ، وبين تلك التي حصلت بقوة الاستمرار التاريخي .

أما في الفصل الثالث فنتناول التحـولات البنيوية التي أصابت الاسرة العربية يوم تفكك السلطـة العباسية وحجم القضايا التي برزت آنـذاك على الصعيد الأسري .

وندرس في الفصل الرابع والاخير ، صلة الاوضـاع الراهنـة للاسرة العربية المعاصرة بماضيها ونبرز كيف ان كافة الاوضاع والمشاكل التي تعاني منها الاسرة المذكورة ليست سوى محصلة لتاريخها المديد وللمؤثرات المتباينة التي خضعت لها .

ان تخليص الاسرة العربية من مشاكلها ، ومعالجة القضايا المطروحـة

فيها ، لا يمكن ان يتما بنجاح الا بعد ان يطرأ تغير نوعي على طبيعة وعي الناس للاسباب الحقيقية التي تؤدي الى احداث التحولات . فترجع كل ظاهرة الى اسبابها . وكل سبب الى جذوره وظروف انطلاقه ، فتسهل بالتالي عملية ترسيخ الظاهرات الايجابية وتعميقها ، وكذلك التأثير على مسار الظاهرات السلبية وتطورها ، فيلغى تأثيرها أو ينحصر . فطالما ترتبط صورة الاسرة وأوضاعها بعوامل متخيلة ، لا يمكن ضبطها ، تبقى موطنا تتراكم فيه الظاهرات السلفية التقليدية جنبا الى جنب مع الظاهرات الحديثة المتطورة ، تلك التي تتوافق مع مقتضيات التطور الى جانب تلك التي تكبحه وتعيقه .

**« د. زهير حطب »**

بيروت في ٣٠ – ١٠ – ١٩٧٦

## محتويات الكتاب

# الفصل الأول

## بنية الأسرة الجاهلية :
## البدوية والحضرية

# ١ ـ تمهيدات

## الصراع مع الطبيعة سبيل التطور

منذ فجر الانسانية كان هدف استمرارية الحياة المحرض الاول للكائن ، وقد دخل هذا الهدف الاستمراري في صراع مع قوى الطبيعة المحيطة ، انتزاعا لما يمكنه من العيش والبقاء . فالعلاقة بين الانسان والبيئة علاقة تحكم أو تسخير . فالبيئة الطبيعية التي حضنت الجماعات البدائية تحكمت بالانسان وأخضعته الى حد بعيد ، وكلما تقدم الصراع كانت الغلبة تميل لمصلحة الانسان فيزيد من تسخير قوى الطبيعة ويقلل من تأثيرها عليه . هكذا تتبادل التأثيرات وتتوالى محققة التطور بالمعنى الواسع للكلمة .

وتأثير طبيعة قطر ما يتجسد في خصائصه المناخية والجيولوجية وتكوينه ، وفي موارده وثرواته الطبيعية وموقعه عموما . ودخول الانسان في عملية تبادل التأثيرات مع هذه العوامل وتواصلها واستمرارها بل ومستوى تلك العملية هو الذي يرسم تاريخ تطور هذا القطر ، من مختلف النواحي ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية .

والصراع مع قوى الطبيعة المتمثلة في البيئة كان يحسم في كل مرحلة من المراحل ، وينجح في حل التناقضات او العقبات المرحلية التي كان الانسان يواجهها ، وينقل الصراع بالتالي الى درجة أعلى . وهكذا ، فالتطور كان دائما أيجابيا بمعنى انه كان يغني الانسان بالتجربة ويساعده على حل مشاكله وتجاوزها . فاذا اردنا ان نفهم تطور مؤسسة اجتماعية معينة ، علينا ان نلم بتاريخ تطور الصراع والتناقضات القائمة بين الجماعة البشرية التي ندرس مؤسستها ، وبين البيئة الطبيعية التي تعيش فيها .

اما عن تأثير البيئة فثبت ان الجو السائد يلعب دورا كبيرا في تكوين

نفسية السكان واعطائهم طبائع محددة ، ويؤثر على نشاطهم وخمولهم وبنياتهم الجسمية وبشرتهم . اما وفرة المياه ونوعية التربة من جانب او الجفاف وجدب الارض من جانب آخر فتحددان لهم النشاط الاقتصادي الذي سيتبعون لتأمين معيشتهم وحياتهم . كما ان الموقع الجغرافي للاقليم يعيق أو يسهل عملية التفاعل والانقطاع بين مجموعة السكان والجماعات الاخرى كما يسهل بالتالي تبادل الخبرات والفعاليات أو التأثير السياسي أو اقامة نوع من أنواع الصلات بينها .

وموضوع تطور الاسرة العربية يقتضي تركيز الاهتمام على المهد الذي انطلقت منه ، ومتابعة مسيرتها على مر الزمن ، وتعيين الظروف الموضوعية التي املت هذا الانتقال ، في كل مرحلة من مراحل التطور ، على ضوء فهمنا لطبيعة التناقضات والصراعات التي كانت تحكم كل فترة .

**مهد الاسرة العربية**

ـ أين هو مهد الاسرة العربية ؟ ان ما يدعى بشبه جزيرة العرب هو منطلقها المادي . صحراء واسعة في الوسط ، جافة الا من بعض المجاري المؤقتة ، تحف بها الجبال من الغرب والجنوب ، واغلب مناطق الغرب قاحلة كمنطقة « الحجاز » ، وعرف عنها انها واد غير ذي زرع ، فيه بعض المنابع والواحات كالطائف والمدينة . اما جبال الجنوب ففيها سفوح خصبة تتخللها الاودية وفيرة المياه كما هي الحال في بلاد « اليمن » . وفي الشمال تنتشر السهول الغنية بالمياه والاراضي الخصبة وتعرف بالهلال الخصيب . ويلاحظ ان الشمال والشرق هما الجهتان اللتان لا تؤلفان حواجز طبيعية في وجه العربي ، مما جعل « فلسطين وسورية » والسهول المحيطة بالعراق مطمحا لهجرات البدو الرحل في جميع الادوار . وكان طبيعيا ، نتيجة لذلك ، ان تقوم تجمعات وتنشأ مجتمعات حضرية مستقرة على الاطراف ، كما في الهلال الخصيب واليمن وبعض مدن الحجاز ، وأن يكون الوسط بدويا رعويا .

في دراستنا ، سنتابع مسيرة تلك التجمعات البشرية والسكانية التي انطلقت من هذه المنطقة ، من شبه جزيرة العرب ، بدءا بالجاهلية الاولى ، التي عرفت أيام القبائل العربية البائدة (١) وحتى عصرنا الراهن . ولكننا

---

(١) يقصد الشعوب القديمة التي كانت تسكن شبه جزيرة العرب والتي هلكت او اندثرت أخبارها ما قبل الجاهلية . كان ذلك بفعل عاملين : الرمل الزاحف او هياج البراكين وما ترتب عليهما من تدمير لمظاهر الحياة . وكان منها قوم عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وجرهم وجاسم وغيرهم . ( انظر : عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٤٥ ) . ( رشيد الجميلي ، تاريخ العرب ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٣٤ ) . ( جرجي زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ٤٩ )

نسرع الى التأكيد على طابع مهم نريده لهذه الدراسة وهو اظهـار الخصائص المشتركة للاسرة العربية على وجه العموم من خلال مسار البحـث ، وليس البحث عن التفصيلات أو الخصوصيات المتعلقة بأسر عربيـة معينـة كالاسرة المغربية او اللبنانية ، الا من حيث الاضواء أو التوضيحات التي تلقيها حـول الخصائص المشتركة .

وقضية أصل الاسرة هي من القضايا التي اثارت وتثـير جـدلا واسعا ومستمرا . هل انبثقت عن العشيرة الامومية بعد ان تطورت هـذه الى الاسرة الابوية وبعدها الى الاسرة الممتدة المتفرعة ، ثم الى الاسرة النوويـة المتعينة ؟ هل خضعت الاسرة العربية لنفس خطوات ومراحل التطور التي عرفتها الاسرة الغربية والتي توصل دارسوها (١) الى تحديد خط المسار الذي أشرنا اليه ، أو ان الاسرة العربية عرفت طريقا خاصا للتطور ؟

## اصل الاسرة العربية

لا يمكن الجزم بصورة قاطعة بهذا الموضوع . فالدارسون الغربيون بنوا دراساتهم على معطيات دقيقـة والمام بتاريخ القبائـل المنتشرة في « اميركـا واستراليا وجزر المحيط الهادىء » ، وعلى ما برحت تقدمه تلك القبائـل مـن معطيات يمكن للانتروبولوجيين المعاصرين تناولهـا ودراستها . امـا بالنسبة للقبائل العربية فهناك عدم توفر وضياع كامـل لتاريـخ القبائل البائـدة في

---

(١) ابرز الذين تناولوا موضوع اصل المجتمع القديم والاسرة عامة من العلماء الاجانب هم مع ذكر مؤلفاتهـم :

- لويس مورغان ، المجتمع القديم ، او البحث في خطوط التقدم البشري من الوحشية عبر البربرية الى الحضارة . ماكميلان وشركاه ، لندن ، سنة ١٨٧٧ .
- باخوفن ، حق الام ، المانيا ، ١٨٦١ .
- ج. ماك لينان ، دراسات في التاريخ القديم والزواج البدائي ، لندن ١٨٦٥ .
- ليبوك ، اصل الحضارة ، لندن ١٨٧٠ .
- جيرو ـ طولون ، اصل العائلة ، لندن ١٨٧٤ .
- انجلز ، اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ، ستوتغارت ١٨٨٤ .
- ليتورنو ، تطور الزواج والعائلة ، روما ١٨٨٨ .
- وستر مارك ، تاريخ الزواج البشري ، لندن ١٨٩١ .

اما الذين درسوا المجتمع العربي القديم فهم مع ذكر مؤلفاتهم :

- ولكن ، الامومة عند العرب ، كازان ١٩٠٣ .
- بافن جميس ، النساء في الاسلام ، ١٩٤١ .
- فولـد كـه .
- سميث ، الانساب والزواج في الجزيرة العربية ، لندن ، ١٨٧٦ .
- جرجي زيدان ، العرب قبل الاسلام ، المكتبة الاهلية ، بيروت .

الجاهلية الاولى (١) . فقد فقدت اخبارها قبل الجاهلية الثانية ، أي العصور القليلة السابقة لظهور الاسلام .

ان قبائل عصر الجاهلية الاولى واخبارها تقابل القبائل الغربية التي بنيت عليها دراسة أصل العائلة الغربية . من هنا سنعمد الى ما تواتر الينا من اخبارها عبر الجاهلية الثانية ، والى الآثار القليلة التي بقيت منها ، مع بعض ما خلفته في حياة القبائل العربية الباقية من انماط سلوك ، ومظاهر حياة ، نجمع اشتات ذلك كله ، ونعيد بناءه بناء موحدا ، تظهر فيه صورة الحياة ، وبالاخص نظام معيشة هذه القبائل وما تعلق منه بالزواج وأصل الاسرة .

نعود الى عصر متقدم عن مجتمع ما قبل التاريخ ، في أواسط الجزيرة العربية ، فنجد ان الجماعات البشرية التي سكنتها لم تكن قد عرفت تدجين المواشي ورعايتها وتربيتها بعد ان كان غذاؤها الوحيد يقوم على الصيد والتقاط الثمرات ، لم يكن يتوفر لها الغذاء الضروري دائما . وقد أدى هذا الامر الى أن يتقاسم الذكور ما يجدونه من طرائد ويمنعونه عن النساء والبنات لضآلته ولعدم مشاركة الاخيرات في الاصطياد . وقد وصل الامر بهذه القبائل الى درجة وأد البنات (٢) اقتصادا بالغذاء ولعدم استطاعتها تأمين حصة لهن . وكانت النتيجة أن قل عدد النساء في العشيرة وارغم كل رجل أن تكون زوجته في خارجها «*exogamie*» . وبسبب من قلة النساء ظهرت الضرورة الاجتماعية بأن تكون النساء في العشيرة لكل رجالها ، فتعدد الازواج بالنسبة للمرأة الواحدة (٣) ، كان ذلك سبيلا الى استمرار حياة العشيرة ، مرتبطا بطاقة نسائها على الانجاب . ونتيجة لهذا الواقع أصبحت المرأة هي المرجع الوحيد والحقيقي لمعرفة نسب الابناء المولودين من أزواج متعددين فنسبوا اليها (٤) وظفرت بالاحترام والطاعة واصبحت صاحبة السلطة في

---

(١) جرجي زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ٣٩ ، المكتبة الاهلية ، بيروت .

(٢) سورة النحل ٥٧ ـ ٥٩ ، الالوسي ، بلوغ الارب ج ٣ ، ص ٤٢ د. جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ، علي ابراهيم حسن ، التاريخ الاسلامي العام ، ص ٥٠١ .

(٣) من المظاهر الباقية لتعدد الازواج ما كان في الجاهلية بزواج الرهط وزواج الكثرة وسياتي الحديث عنهما بالتفصيل .

(٤) ثبت من تحقيق اخبار القدماء وابحاث العلماء الحديثين ان النسبة الى الام امر عم جميع الشعوب حتى لا نكاد نعرف قوما الا وينسبون للام في عهد من عهودهم . اذ نرى آثارا حية بينة لا تزال باقية عند البعض منهم الى هذا اليوم . وهذا النظام ليس اقدم نظام في تاريخ الاسرة عند البشر بل هو النظام الذي ساد في دور من ادوار حياتها ، فترك آثارا على شيوعه وتقدمه على عهد النسبة الى الاب » .

ـ د. علي الهاشمي . المرأة في الشعر الجاهلي ، بغداد ، ١٩٦٠ ، ص ١٨٨ وما بعدها .

« انتسبت قبائل باكملها الى اسم امرأة ( كبني « خندف » وبني « ظاعنة » ) وقد اعتبرتا « الام العليا » للقبيلتين ■

وكذلك نسب بنو طهية الى امهم ( المعارف لابن قتيبة ، ص ٢٥ ) .

العشيرة . وقد عرف هذا الانتساب باسم الحق الامي (١) . ومر احتساب النسب على اساس حبل النسل النسائي للوثوق به . أما بالنسبة للارث فكان يرث العضو المتوفى انسباؤه في العشيرة على أساس النسل النسائي، غير ان هذا الامر كان مقبولا لان الاشياء التي كان يتألف منها الارث كانت بسيطة ، لا تتعدى بعض الثياب والادوات ، فكانت تنتقل حسب النمط الذي ذكرناه دون ان يؤدي ذلك الى الاخلال بالانتظام الجماعي .

وفي آونة لاحقة استطاع الانسان تربية قطعان الخيل والجمال والماعز . وقد أدى هذا التدجين الى خلق مصادر ثابتة للغذاء والثروة ، والى نشوء علاقات اجتماعية جديدة . ففي الطور السابق كانت ثروته لا تتعدى الخيم والالبسة الخشنة وبعض الادوات للاستعمالات المختلفة . أما الآن فان بامكانه عن طريق المراقبة وقليل من العناية جعل قطعانه تتكاثر وتقدم له طعاما وافرا من اللحوم والالبان وكذلك الجلود والاصواف . لقد كانت هذه الثروة الجديدة تخص العشيرة بأكملها ، ومع الزمن تطورت تلك الملكية وانتقلت الى رئيس العشيرة لكونه يتصرف بكل ما في العشيرة في الواقع ، فأصبح يتصرف بها بحكم مركزه ، ومع الايام تحولت الى ملكية خاصة يورثها من بعده .

وعلى صعيد آخر أصبح الأسرى والمنهزمون من أفراد العشائر الاخرى يؤخذون كعبيد بعد ان كانوا يقتلون . واصبح بالامكان الاستفادة منهم بصرفهم الى رعاية القطعان من جهة ، وانجابهم اطفالا عبيدا أرقاء من جهة اخرى . لقد أدى تغيير الوضع ، مع ادخال المواشي الى خلق وضع جديد ، على الصعيد الاجتماعي هو استعباد الأخذاء .

وما أن ترسخ هذا المصدر من الغذاء وتحولت الثروة الى ملكية خاصة داخل العشيرة ، وما ان تنامت الثروة بسرعة حتى تهاوت اركان ذلك المجتمع الذي كان سائدا والقائم على نظام العشيرة الامية . وتهيأ المجتمع لمرحلة انتقالية يسميها « انجلز » ( الزواج الثنائي ) (٢) وهو تطور جديد يطرأ على وضع الاسرة . لقد أصبح الأب أبا فعليا وثابتا بموجب الزواج الثنائي الذي

---

(١) بقيت بعض آثار الحق الامي حتى أيام الجاهلية الثانية فقد أورد الرحالة ( سترابون ) في كتابه السادس عشر من رحلته « عن الزواج عند العرب » ما يفيد ان الابناء كانوا ينسبون الى الامهات وكانت رحلته قد تمت في القرن الاول قبل الميلاد . ووجد غيره في تانيث اسماء القبائل ، والتعبير عن القرابة بالبطن ، واشتقاق لفظ الامة من الام ، وشيوع المتعة والوأد ، شواهد على سريان الحق الامي عند العرب في حقبة من حقب حياتهم . وقد انتقد جرجي زيدان هذا الراي في كتابه ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ٣ فصل الامومة عند العرب ، ص ٢٥٤ .

ـ كما ان بعض الحكم الشعبية يعبر عن الحق الامي ويعكس اهمية اقرباء الام : « ثلثا الولد لخاله » و « الاصل يخول » . الهاشمي ، سبق ذكره ، ص ١٨٩ .

(٢) ف. انجلز . اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ، ص ٢٤٠ .

كان يقوم على التعايش بين رجل واحد وامرأة واحدة ضمن العشيرة ، وفي السابق كان على الرجل ان يستحصل على الغذاء وعلى ادوات العمل الضرورية لهذا الغرض . كان له بالتالي حق ملكية ادوات العمل هذه . وفي حال فسخ الزواج ، كان يأخذها معه ، بينما كانت المرأة تحتفظ بالآنية المنزلية . وبموجب العرف والعادة السائدين في المجتمع آنذاك ، كان الزوج مالكا أيضا لمصادر الغذاء الجديد ، اي الماشية ، ولوسائل وادوات العمل الجديد ، اي العبيد . ولكن بموجب العرف والعادة السائدين ايضا في ذلك المجتمع ، لم يكن بوسع الاولاد ان يرثوه ، لأن الارث كان ، كما أسلفنا ، يتم بموجب خط حبل النسل النسائي . فما الذي حدث ؟ وكيف تم نقل الارث الى اولاد الزوج الحقيقيين وتغير نظام الوراثة التقليدي لمصلحة الاولاد ؛ وبتعبير آخر ، كيف تم الانتقال من نظام الانتساب الى الأم الى نظام الانتساب الى الأب ؟

## الزواج الالزامي من بنت العم

العشيرة العربية القديمة في الواقع ، كانت مدهشة في ايجاد الصيغة الملائمة للانتقال دون ان تضر ــ مرحليا ــ بالأم ودون أن تلحق بها هزيمة مباشرة بضربة قاضية . لكن تلك الصيغة كانت تمهد في نفس الوقت لكي ينتقل الانتساب الى حبل النسل الرجولي . وقضى هذا التدبير المستحدث والناجح بالزامية الزواج بين أبناء العم (١) . وهكذا فان هذا التدبير يوفق بين أمور عديدة ؛ أولها ان يبقى الارث في عشيرة الأب والأم على السواء ، وثانيها أنه يجعل الانتساب الى الام أو الى الاب امرا واحدا ، لأنه يؤدي في نهاية الامر الى الانتساب الى الاصل المباشر نفسه ، وثالثها انه جعل الانتقال الى نظام الارث على أساس الانتساب الى الأب ممكنا ، وبالتالي نقل ملكية المواشي من الأب الى ابنائه الحقيقيين . ومع شيوع هذا النظام وترسيخه بدأت درجة الزامية الزواج من بنت العم تخف تدريجيا ، وان لم تختف كلية ، من المجتمعات العربية حتى أيامنا هذه . وهكذا أصبح ممكنا ان تتعايش انظمة نسبه مختلفة في آن واحد بقيت اثارها سائدة حتى ايام الجاهلية الثانية . فانتسبت قبائل كاملة الى نساء . أما احترام وسلطة وطاعة بعض النساء (٢) في ذلك العصر فبقيت علامات بارزة في المجتمع الجاهلي رغم تحولها عمليا الى أدوات انجاب لصالح الرجل والقبيلة . والقول بأن الانتساب في الجاهلية الثانية كان حسب خط النسل الرجولي ، وان انتسبت القبائل والرجال الى نساء ، رغم معرفتنا الصريحة والثابتة لنسبهم الأبوي ، نقول ان هذا الامر هو ما يجعلنا نؤكد ان هذه المرحلة هيأت مرحلة الانتقال حيث ترك فيها الانتساب

---

(١) الهاشمي ، سبق ذكره ، يشير الى ان القبائل الجاهلية لا ترغب في ان تزوج بناتها من القبائل الاخرى ، بل كانت تبقيهن ليلدن للقبيلة بل للعشيرة اولادا ، ص ١٨٨ .

(٢) شوقي ضيف ، المجتمع الجاهلي ، ص ٧٢ . الخضري ، تاريخ الامم السلامية ، ج ١ ص ١٨ ، الجميلي ، تاريخ العرب ، ص ٢١٠ .

للأب أو للام اختياريا (١) ، لكن التوارث أصبح ثابتـا على أساس خـط الأب وترسخ قاعدة وعرفا اجتماعيين . ولا يعرف متى وكيف تحققت فعليـا هـذه النقلة الثورية ، وكل ما بين الأيدي لا يتجاوز القرائن والادلة الاضافية (٢) التي تسمح ، الى حد ما ، ببناء نظرية على الصورة التي قدمناها . ويمكـن الجزم بأمر واحد هو ان هذا التحول تحقق قبل العصر الجاهلي المعروف بحقبة طويلة، لكن أثاره بقيت تجرر أذيالها حتى ذلك التاريخ .

ان اسقاط الحق الامي كان ، كما كان يسميه «ماركس» ، هزيمة تاريخية عالمية للجنس النسائي . فقد انتزع الزوج دفة القيادة في البيـت ايضـا ، وحرمت الزوجة من مركزها المشرف وغدت عبدة لرغبات زوجها ، فقيدهـا وحجبها وامست اداة بسيطة لانتاج الاولاد . وما ان أقرت سلطة الرجال على هذا النحو ، بوجه الحصر ، حتى أخـذ مفعولها الاول يتجسد بشكـل الزواج الثنائي ، فكان حلقة انتقالية ضمن تأليفة العشيرة أو القبيلة .

وحتى لا نتوغل بعيدا جدا في التاريخ غير المكتوب ، لنعد الى ما أنتهى وتجمع لنا من معطيات ومعلومات حول التاريخ المعروف للعصر الجاهلي لنرسم صورة لمجتمعه . وتقتضي الدقة تحديد مفهومنا للمجتمع الجاهلي ، مكانيا ، بحدود شبه الجزيرة العربية ، بوسطها الصحراوي القاحل البدوي واطرافها الخصبة الحضرية ، وسكانيا ، بمجموعة القبائل التي سكنتها بدوا وحضرا ، ومحتوى بمجموعة العلاقات والنشط التي مارستها وتبادلتها القبائل فيما بينها على الارض المحددة وانماط المعيشة والقيم التي سادت فيها .

---

(١) قبل ان تزول عادة النسبة للامهات تماما لا بد من توقع حالة مرت بها العرب كان يجوز فيها للابن ان يلتحق بقبيلة امه أو بقبيلة ابيه . وظهر هذا الواقع من اقوال الشعراء الجاهليين كاقوال عنترة وعامر بن الطفيلي .

(٢) المقصود بالقرائن الاضافية : انواع الزيجات التي عرفت في الجاهلية والتي لا يعدو كونهـا سوى بقايا نظام اجتماعي سابق للزواج الثنائي . سبي النساء بقصد الزواج وهي ظاهـرة من بقايا شيوعية المرأة والزواج الالزامي من خارج العشيرة . والازدهار وبروز علم القيافة . وهو العلم الذي يستدل من التشابه الظاهر في الهيئات بين الافراد ليحدد فيما بينها مـن علاقـة نسب .

## ٢ – مجتمع البداوة الجاهلي

### ظروف الحياة الجاهلية

لقد حددت الظروف الطبيعية وقوى الطبيعة القاسية السائدة في الجزيرة العربية نمط معيشة المجتمع الجاهلي . فالمرعى والماء القليل كانا عمادي الحياة والمعيشة في وسط الجزيرة البدوي . وكان أمر تأمينهما حيويا بالنسبة للقبائل في عيشها ومصادره . من هنا كان النزاع الشديد مسيطرا ومنتشرا في أكثر نواحي الجزيرة لمن يكون هذا المرعى ، ومن يشرب من هذه البئر . لقد كان الصراع تنازع بقاء وكان في أساس أيام العرب في العصر الجاهلي (١) .

والحصول على الماء وتوفير المرعى ليسا شأنا فرديا، لضآلة كمياتهما ولكثرة المتنافسين عليهما. فكانت القبيلة الشكل والاداة اللذين يؤمنان اسباب المعيشة والاستمرار لجميع افرادها . والسبيل الى تحقيق ذلك كان القوة . يفهم اذا المظهر العسكري الدائم للقبائل ، فهي مضطرة بحكم تنازعها البقاء الى التمرن المستمر على القتال والاحتفاظ بقوة كافية للاستيلاء على مصادر استمرار الحياة أو الدفاع عنها ضد غزوات الآخرين أو محاولات السيطرة عليها . الا ان للقوة ركيزة أخرى هي كثرة العدد .

وقد جهدت القبائل لتأمينها بالانجاب والاكثار من النسل والاستبشار بالذكور لانهم سيساعدون القبيلة بنشاطها الخارجي والغزو الذي تباشره . فلئن كان وأد البنات في طور الجاهلية الاول يمكن ان يفهم على أساس من عدم قدرة الجماعة على تأمين القوت ، فانه ينبغي ان نتجاوز التفسير الاخلاقي لمسألة وأد البنات في الجاهلية كأمر يقتضيه الشرف والخوف من العار ، الى

---

(١) د. عبد العزيز الدوري . مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، طبعة ٢ ، ١٩٦١ ، ص ٣٢ .

تفسير واقعي يستمد من نمط الحياة وأسبابها في الجاهلية ، وهو حرمان القبائل الغازية التي كان احتمال انتصارها على القبائل الضعيفة واردا ، من مصدر من مصادر قوتها أو امكانية التعزيز لهذه القوة ، عن طريق عدم الاحتفاظ بالبنات ، اللواتي يحتمل ان يسبين فيصبحن بالتالي أدوات انجاب وقوة مضافة لصالح تلك القبائل . فوأد البنات في الجاهلية يساوي اذن عدم تمكين الخصم من أن يزيد من قوته عن طريق استيلاد الابناء من نساء يمكنه سبيهن . فقدرة القبيلة على التوسع والامتداد مرهونة بقدرتها على ملكية أدوات الانجاب . من هنا كان التناقض السائد في الجاهلية هو كيف السبيل الى ان يكون في تصرف القبيلة اكبر عدد من النساء ليلدن المقاتلين الجدد ؟ ولكن في الوقت نفسه كيف السبيل الى عدم وقوعهن في أيدي الخصم كي لا يزيد من قوته على حساب خصمه ؟ لقد حتّمت الضرورة الاجتماعية أن يكون الحل بتعدد لا حد له للزوجات وتمجيد الاكثار من النسل وبخاصة البنين والافتخار بالانجاب من جهة ، ووأد البنات من جهة ثانية على ما في هذا الامر من تناقض عند القبائل التي تلمس في نفسها الضعف وامكانية حلول السبي لغير صالحها (١) .

لقد كان حادث السبي الاول ايذانا للقبيلة ان تبدأ بوأد بناتها (٢) . ويظهر بوضوح كيف ان الصراع على البقاء يتجسد بالحروب والنزاعات ويعبر عن هذه الاخيرة بامتلاك القوة . والقوة في نهاية التحليل ليست سوى التقاطع بين مفاهيم الانجاب والعفة والعرض والسبي والوأد .

## مصادر المعيشة الجاهلية

لقد كان توفير أسباب المعيشة والبقاء توفيرا مستديما ، أمرا حيويا بالنسبة للقبائل جميعها ، ولكنها في الوقت نفسه لا تقوى على تحقيقه لانه مرتبط بالقوى الصاعدة الجديدة والاحتمالات الاخرى . ذلك ان ظروف الصحراء وعدم توفر أراض زراعية جعلت حياة الجماعات والقبائل عبارة عن حلقة مفرغة تدور فيها ، من صراع على ماء ومرعى الى انتصار فثبات عليه مدة من الزمن ، الى انكسار امام قوة قبيلة صاعدة ، الى استذلال او تشتت بالارتحال ، أما الى اماكن اخرى أقل خصوبة ، واما الى هجرة الى اطراف

---

(١) قبيلة تميم حين استيقت نعمها وسبيت عذاريها على يد الريان أخي النعمان بن المنذر لعدم قدرتها أو تمنعها من دفع الاتاوة للنعمان .
الالوسي بلوغ الارب ، ج٣ ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) كما حصل في قبيلتي ربيعة وتميم حيث يفصل الالوسي ذلك بقوله : ان الوأد كان في ربيعة وسبب ذلك انه انحاز عليهم بعض أعدائهم فسبيت بنت امير لهم ، فغضب وسن لقومه الوأد ففعلوه غيرة منهم ومخافة ان يقع لهم بعد ذلك ما وقع فشاع ذلك بين العرب .
الالوسي ، بلوغ الارب ، ج ٣ ، ص ٤٢ .

الصحراء حيث كانت مواطن الحضر ، او الى عقد محالفات جديدة مع قبائل اخرى ، عودا لدوامة من نقطة صفر طارئة . وكان المجتمع غير مستقر ، رعويا، متخلخلا ، ينتظر دائما قيام توازنات جديدة (١) . تحركه وتؤمن بقاءه عوامل عدة اهمها : تربية المواشي ورعايتها التي عرفنا انها عماد الثروة والحياة في ذلك الحين . لكن اقتناءها ليس له أهمية اجتماعية واحدة . والتقدير الاجتماعي يكون حسب النفع الوظيفي الذي تؤديه النعم . فعرفت الابل اكبر التقدير ثم الخيل ثم الغنم ثم البقر . وكان البدوي يقول : العز بالابل ، والشجاعة بالخيل . والذل بالارض والمهانة بالبقر (٢) . وليست هذه النظرة نظرة اعتباطية فطبيعة الحياة وقيامها على الارتحال والتوغل في الصحراء ، توافقها وتؤمنها الابل بكل سهولة نظرا لصبرها وتحملها . وكذلك الخيل هي العنصر الحاسم في الغزوات . أما الارض والبقر فيعنيان ويرمزان الى الاستقرار وانتظار ثمرات الارض ، وهذا لا يتم الا اذا كان الذي استقر نهائيا وارتبط بالارض يرضى ان يبقى تحت رحمة البدو الغزاة وحمايتهم . وهذا ما لا يتفق وظروف الصحراء التي علمت البدوي الاعتماد على المجهول والشجاعة والبأس ورفض المذلة (٣) .

أما المصدر الثاني للمعيشة فكان السلب والنهب وغنائم الغزوات بما فيها النساء . فالاغارات تتم دوما بهدف الاستيلاء على ممتلكات قبائل اخرى لا تربطها بالقبيلة الغازية روابط نسب أو روابط دم . فيعود الغزاة بما استطاعوا جلبه من ماشية أو أدوات وحتى الأخذاء والسبايا ، ولهذين الاخيرين قيمة مادية . فالقبيلة يمكن ان تقبل فدية عنهما ، وهي عبارة عن كمية عينية من ماشية أو حبوب أو أسلحة أو سلع اخرى ، أو يسترجعا بالقوة ، أو عن طريق المبادلة بأسرى من الجانب الآخر ، واذا لم ينجح اي تدبير من كل هذا يعرض الامير المخطوف والمسبية في سوق النخاسة للبيع كعبد وامة (٤) . ويمكن للمنتصر ان يتزوج من المسبية ويستولدها عبيدا ، والانجاب في هذه الحالة ، كما أظهرنا ، له أيضا قيمته المادية . وواضح ان الاغارات والغزوات لا يمكن تنفيذها والقيام بها الا بصورة جماعية تتجسد بالقبيلة . ومن هنا نفهم لماذا كانت القبيلة الكائن الاجتماعي الطبيعي في هذه البيئة ، واصبح الولاء لها ضرورة لازمة للدفاع عن النفس وللحماية ، واصبحت التقاليد والعرف الناتج عن التجارب هي القانون السائد والمحترم (٥) . فالاعتماد على كثرة العدد كان السبيل الى استمرار الحياة . فالقبيلة ككل تحتضن افرادها

---

**(١) د. بلاشير ، تاريخ الادب العربي ـ العصر الجاهلي ، ترجمة د. ابراهيم كيلاني ، دار الفكر ، ص ٢٦ ـ ج. زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، جزء ٤ ، ص ٢٣ .**

**(٢) الاب شارل ، قبائل الرعيان ، ص ١٤٩ .**

**(٣) ج. زيدان ، سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٢٧ .**

**(٤) ج. زيدان ، سبق ذكره ، ج ٤ ص ٢٧ .**

**(٥) د. دوري ، سبق ذكره ، ص ٣٠ ـ بلاشير ، سبق ذكره ، ص ٣٤ .**

وتتحمل نتائج اعمالهم . وفي هذا المجال تقوم العصبية بدور الرباط الوثيق الذي يوحد فيما بين افراد القبيلة. ويجعلهم قوة ، ويجعل كل فرد يبذل قصارى جهده في سبيلها طالما هي تجسد وتؤمن مصالحه الآنية والبعيدة ومصالح أقربائه بالدم . أما الولاء فهو التعبير العملي عن العصبية ، اذ لا أهمية لعصبيه لا ضابط لها ولا وجهة تأتمر بأمرها . والولاء لشيخ القبيلة هو الولاء للقبيلة نفسها . وهذا الواقع يوضح قضية جوهرية اخرى تدور حولها المجادلات دائما هي قضية الثار . فاذا كانت القبيلة هي الكائن الاجتماعي الطبيعي الذي يعيه البدوي ويعي أهميته لاستمرار وجوده فيصونه بعصبية توحد بينه وبين بقية الافراد وتجعل من هذه القبيلة كتلة متراصة متماسكة قوية . فيبذل في سبيلها كل ولائه وجهده وقدرته الفردية ، لانه بحاجة . بالمقابل ، الى ضمانة جماعية لوجوده ولما يبذله . وقد قدمت القبيلة هذه الضمانة باقرار مبدأ الثار . فالثأر هو التعبير عن الحماية التي تؤمنها القبيلة للفرد ليشعر بالطمأنينة والامن وبالرضا ، فما يقدمه في سبيل الجماعة ككل ، تباديه الجماعة وتبادله تعهدا جماعيا بالحماية ، حيا وميتا .

أما المصدر الثالث للمعيشة في المجتمع الجاهلي الصحراوي البدوي فهو دخول الجعالة (١). كانت القبائل تفرض ما نسميه اليوم رسوم مرور على القوافل التجارية التي تستخدم أراضيها او تمر على مقربة منها . وهذا مظهر من مظاهر سيادة القبيلة على الاراضي حيث تقيم . وبديهي ان هذه الرسوم لا يتم تحصيلها الا اذا كانت القبيلة قوية فتستوفي عندئذ جعول الحماية (٢) لقاء عدم غزو هذه القوافل وسلبها . وهذا يظهر لنا كرة اخرى كيف ان البدوي يعتمد على القبيلة كجماعة لاستمرار حياته ومصادر معيشته . فقد كانت هذه الغنائم تقسم على الافراد المشتركين بنسب معينة تحددها شجاعة الفرد وبأسه وسمعته بين قومه ومقدار مساهمته في تلك الغزوة .

وهناك مصدر آخر لبعض القبائل يتأتى عن التجارة ، التي اقتصر أمر تعاطيها على القبائل التي قطنت الحواضر ومراكز القوافل (٣) .

أما الزراعة والاعمال الحرفية (٤) فندر ان كانت مصدر عيش لفئة من قبائل البدو ، لقلة الاراضي الصالحة للزراعة ، وعدم كفاية مواردها وللمسكنة التي تصيب من يود الاستقرار لاستغلال الارض ، فآلت الحراثة الى ما يرادف الذل فاحتقرها البدوي وابتعد عنها .

---

(١) بورغارد ، رحلة في الجزيرة العربية ، باريس ١٨٣٥ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٢٧٩ .

(٢) بلاشير ، تاريخ الادب العربي ، ص ٣٤ .

(٣) د. الجميلي ، تاريخ العرب ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٧٢ .

(٤) كان هناك بعض المزارعين وارباب المهن المحتقرين والمنبوذين في واحات تيماء واليمامة . نفس المصدر .

في حين أقتصرت الاعمال الحرفية في الصحراء على ما كانت نسوة القبيلة يقمن به من اصلاح للخيم وخياطة الثياب وصناعة بعض الحلى والادوات للاستعمال البيتي . اما في الحواضر فكانت ذات شأن اكبر .

## توزع الثروة الجاهلية بين القبائل

لا يكفي الحديث عن مصادر الثروة (١) واسباب المعيشة بل يجب معرفة كيف كانت تتوزع تلك الثروة على مستويين ، الاول فيما بين القبائل ، والثاني نصيب كل فرد في القبيلة الواحدة ، وهل تكونت اذ ذاك فئات تحتكر الثروة ؟ وما هو مركز تلك الفئات وكيف توصلت الى تجميع الثروة بين يديها ؟

اتصف المجتمع الجاهلي بعدم الاستقرار والظعن الدائم نشدانا وطلبا للماء والمرعى . لذلك كان التملك الثابت للارض فاقد الجدوى ، لا سيما أن الواحات قليلة العدد نسبيا والبقاء فيها مرتهن بأمرين : نضوب الماء ، أو صعود قبيلة قوية ورغبتها في الانتقال والتوطن في المكان نفسه . فاذا نزلت قبيلة بأرض اصبحت السيادة لها عليها ، وهي ما دامت تستطيع حمايتها فلها حق الانتفاع بمراعيها ومائها . أما اذا عجزت فان الارض والانتفاع بها ينتقلان الى القبيلة الاقوى . فملكية الارض اذا لم تكن امرا عمليا في الوسط الصحراوي ، وبالتالي لم تكن معروفة . أما المراعي والمياه فكانت لجميع بطون القبيلة وافخاذها ، اذ يستطيع كل فرد منها سوق ابله اليها ورعايتها هناك . والمواشي والابل كانت عناصر الثروة الاجتماعية . ولم تكن الملكية المشتركة لها سائدة في القبائل الا في بعض الاحيان او الحالات . فلكل فرد مواشيه وابله ، يسرح بها ، هو أو بعض اهله أو عبيده . وتميز القبيلة مواشيها عموما بميسم تسمها به حتى تفرق بين مواشيها ومواشي القبائل الاخرى (٢) . وتعمد القبائل الغازية الى طبع وسمها على غنائمها لتحدد الجهة الجديدة المالكة للقطعان . ويلاحظ اذا ان الثروة كانت في حركة دائمة تبعا لحركة الغزو والسلب . ويمكن الاستنتاج ان القبائل القوية كانت تملك نظرا لهذه الصفة قطعانا كثيرة ، استطاعت جمعها اما من القبائل الاخرى الضعيفة او من قبائل صاعدة ، ولكن لم تبلغ بعد قوة وامتداد القبيلة الأقوى . والنتيجة هي ان المجتمع الجاهلي البدوي كان ينقسم الى قسمين : قبائل غنية ( بالمواشي ) والنساء ــ حرائر وسبايا ــ وقبائل فقيرة . اما داخل القبيلة فكان يطبق المبدأ البدوي ( لكل حسب بأسه في الغزوات ) فنشأت فئة داخل كل قبيلة تتمتع بالاهلية والقوة واستطاعت بواسطتها أن تحقق ملكية كبيرة للقطعان وأن لم يكن ذلك على حساب الاخرين واستثمارهم بصورة مباشرة . والاستثمار كان ينتج فيما بعد من بابين : الاول ، ان هذه المواشي كانت تأتي على القسم الاكبر من المراعي

(١) لفظ الثروة هنا يعني كل ما يمتلك .

(٢) زيدان ، تاريخ التمدن ، ج ٢ ، ص ١٣ .

المعترف بحق الانتفاع بها للجميع ، فيستأثر بها صاحب القطعان الكثيرة ، عن غير قصد ربما ، وتتكاثر باضطراد وتزداد ثروته . والثاني هو انه يستأجر بعض أفراد القبيلة لمراقبتها أو يستخدم أسرى القبيلة العدوة الذين سبق ان شارك بأسرهم ، كعبيد له ، يساهمون وينجبون من يقوم برعاية مواشيه أيضا . وقد يكون توريث مثل هذه الملكية الكبيرة احد الاسباب التي دعت البدو الاوائل الى التشدد في التقصي لتحديد صلة النسب ، خاصة وانهم كانوا يحطمون نظام الانتساب الاموي — وينظمون الانتساب والارث على أساس القرابة الدموية لجهة الأب . وقد سرى ذلك وترسخ كعادة متبعة بحكم التقليد والعرف بالغ التحجر والاحترام وعدم القابلية للتطور نظرا لثبات طرق المعيشة (١) في ذلك الوسط الجغرافي منذ أقدم الازمنة . تلك كانت ملامح بدايات بروز فئات اجتماعية متميزة في العصر الجاهلي ، فاستأثرت فيه بعض القبائل القوية بمصادر الثروة . أما داخل تلك القبائل ، فقد استأثر الاقوياء بالثروة المشتركة للقبيلة ووضعوها في خدمتهم على حساب باقي افراد القبيلة وعبيدها . لكن تلك الملامح لا تتعدى كونها بدايات لان مصالح أفراد القبيلة كافة كانت مؤمنة بفضل الموارد المشتركة . فالجعالات والرسوم العينية والنقدية كانت توزع على بطون القبيلة وارهاطها بالتساوي ، وكانت منها تدفع الفدى عند الاسر ، أو الديات لاهالي القتلى الذين يتسبب أحد افراد القبيلة بمقتلهم . هذا التصرف الاجتماعي شكل صمام امان ، وبطا ، الى حين ، الصراع الفئوي أو الطبقي بين ابناء القبيلة الواحدة ولكنه لم يلغه فيما بينهم وبين عبيدهم ، لقد شكل هذا الواقع المحرك القوي لتطوير المجتمع الجاهلي ، فتنامت القطعان نتيجة لتزايد عدد العبيد المستخدمين في الرعاية وتركزت ثروات القبائل ، وانصرف افرادها الى المدن كيثرب والحجاز لشراء منتجاتها الحرفية وبعض مزروعاتها ، أو الادوات واللوازم التي تصلها بواسطة القوافل التجارية ، او يقايضون حوائجهم بالمواشي أو يبددون ثرواتهم في ملاهيها . فأزدهرت مدن الحواضر وتضاعف عدد سكانها وأخذت تلعب أدوارا جديدة في حياة المجتمع البدوي . والسؤال الذي يطرح الآن ؟ هل كان الوضع العام للمجتمع الحضري على غير ما كانت عليه حال المجتمع البدوي ؟

---

(١) د. الدوري ، المقدمة ، ص ٣٠ .

## ٣ – المجتمع الحضري الجاهلي

### نشأة الحواضر في الجاهلية

نشأت الحواضر نتيجة للتوافق الذي تأمن في فينة من فينات التاريخ بين معطيات الاماكن التي قامت عليها ، وبين الحاجات الجديدة للتجمعات السكانية . قامت المجتمعات الحضرية على أطراف الجزيرة العربية ، لا سيما في الهلال الخصيب واليمن ، وفي بعض مدن الحجاز «كمكة ويثرب والطائف» . ان خصب الارض وغناها بالمياه جعلا من الهلال الخصيب واليمن مناطق جذب شديد للمجموعات البشرية في المناطق نصف الصحراوية من الجزيرة العربية. وقد دعمت الحوادث الفجائية كالقحط ، دورية هذا الاتجاه (١) وكان من نتائج هذا الجاذب الذي كان يقوي التناحر بين قبيلة واخرى قيام حركات سكان واسعة في الجزيرة العربية كلها باتجاه الشمال ، اكتسبت شكل تسلل بطيء متقطع تارة ، أو شكل دفعات عنيفة تارة أخرى .

أن هذه الحركات السكانية هي التي عززت قيام الحواضر ورسخته . فالقبائل المهاجرة كانت بحاجة الى مصدر عيش يؤمن لها استمرار وجودها ، وجدته في السهول الشمالية الواسعة فاستقرت وتوطنت تزرع الارض وتتمسك بها . فحافظت في كثير من الاحيان على تماسكها وشكل سكنها التجمعي القبلي في الحواضر .

وتشبه أسباب نشأة بعض مدن الحجاز كالطائف ويثرب الاسباب التي تحدثنا عنها بالنسبة لحواضر الهلال الخصيب . أما « مكة » فقد كان تأسيسها تلبية لحاجة عبادية دينية أول الامر ، حين رفعت فيها الكعبة وأصبحت محجا يؤمه الناس من أقاصي البلاد . ومع توالي الاجيال استفادت من موقع المدينة الجغرافي الاستراتيجي المهم حيث تقع على ملتقى طرق التجارة العالمية ، وسط العالم القديم ، لا سيما الطرق التي تصل الشرق

---

(١) ر. بلاشير ، تاريخ الادب العربي ، ص ٢٦ .

الاقصى والهند بالشرق الاوسط برا ، عن طريق اواسط آسيا الى ايران والعراق فحوض البحر الابيض المتوسط ، وبحرا بطريق الملايو ، وحول الهند الى الخليج العربي . أو حول الجزيرة الى البحر الاحمر أو اليمن لتنتهي بالشام ومصر (١) ووفقت « مكة » بموقعها وحاجات الوافدين اليها بقصد الحج وزيارة الكعبة من ابناء القبائل الاخرى . فازدهرت تجارتها ، وأصبحت عصب الحياة الاقتصادية فيها ، كما ساعد هذا الواقع على قيام المدن التجارية بالحجاز ، فكانت بمثابة محطات على مسار الطريق التجاري المرسوم . وهكذا نمت « الطائف ويثرب » ، وقامت الاسواق التجارية المشهورة التي كانت تعقد في الاشهر الحرم ، مثل سوق عكاظ، وسوق مجنة وحباشة وذي المجاز (٢). ومن هنا كانت التجارة وموارد الحج مصدر العيش الاساسي لمكة والحجاز عموما منذ ان نزح اليها بنو خزاعة من اليمن ، وكان النزوح في القرن الثاني للميلاد بعد سيل العرم فتسلطوا على « مكة » ، وغلبوا الحجازيين من بني اسماعيل الذين كانوا سدنة الكعبة أي حجابها (٣) . لكن قصي بن كلاب استطاع ، في القرن الخامس للميلاد، وكان سيد قريش، أن يستعيد السدانة ويجعلها في قبيلته حتى جاء الاسلام .

يلاحظ ان النزاع الطويل الذي استمر قرابة ثلاثة قرون بين « بني خزاعة » ، وكانوا من القحطانيين و « بني قريش » ، وكانوا من العدنانيين ، تركز حول من تكون له سدانة الكعبة ، لانها تعني السيادة على « مكة » كلها حيث ان مواردها تضع من يحصلها في مركز الصدارة في الحجاز .

## مصادر معيشة الحواضر في الجاهلية : مكة

استمرت مكة وجوارها تعتاشان من التجارة وعوائد الكعبة . بل عمد المكيون الى التفاوض مع الدول المجاورة لبلاد العرب للحصول على ضمانات لتأمين تجارتهم فنجح القرشيون في عقد المعاهدات التجارية مع « الرومان والفرس » ، كما عقدوا معاهدات مماثلة مع أمراء العرب في الجزيرة (٤) . وكان من نتيجة ذلك أن أشركوا معظم القبائل الواقعة على الطرق التجارية التي تستعملها في رحلتي الشتاء والصيف ، الى «اليمن والشام وبصرى » (٥) أشركوها بنشاطهم عبر أعطائهم جعالات المرور والحماية فقد كان من المتعارف عليه أن لكل قبيلة « الحق في التجول ضمن منطقة خاصة تدعى « الدار »

---

(١) د. الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص ٢٩ .

(٢) د. سالم ، دراسات ، ص ٥١٢ — ٥١٣ ، صالح العلي ، محاضرات ص ٩٦ ، الجميلي ، تاريخ العرب ، ص ١٧٥ .

(٣) زيدان ، تاريخ التمدن ، ج١ ، ص ٣٣ .

(٤) د. عبد العزيز سالم ، دراسات في تاريخ العرب ، ص ٥٠٤ ، ٥٠٥ .

(٥) ج. زيدان ، تاريخ التمدن ، ج١ ، ص ٣٧ .

أو قد تنشىء لنفسها حمى ثابتة من الارض لا يجوز لغيرها أن يخترقها أو يستعملها الا بموافقتها » (١) . فاكتسبت « قريش بذلك امتيازات لم تكن لغيرها من قبائل العرب : فكانوا لا يؤدون اتاوة . ولا يتكلفون دفاعا ... يحكمون على الناس ولا يحكم أحد عليهم ... وكانوا يتزوجون من اية قبيلة شاؤوا ولا شرط عليهم في ذلك . وكانوا لا يزوجون احدا الا اشترطوا عليه ان يكون متحمسا لدينهم (٢) .

وقد ساعد على احتكار « قريش » لتجارة الهند والحبشة واليمن ، اشتباك « بيزنطية والفرس » في حروب متواصلة . مما عرقل التجارة العالمية المارة بالعراق . فوجهت « مكة » انذاك تجارتها الى الاقطار الاخرى في « سورية واليمن والحبشة والعراق » (٣) .

ولما كانت تجارة « قريش » تقوم على الحجاج الذين يفدون في المواسم فقد عمدت الى تسهيل طرق القدوم (٤) وترغيب الناس في الحج لمقتضيات مصلحتهم التجارية . حيث اتبعوا في ذلك عدة وسائل اهمها واكثرها زخما بالمعاني ان « قريش » ارتضت ان تضع لكل قبيلة صنما خاصا بها في الكعبة. تاتي في المواسم لزيارته والذبح له . حتى زاد عدد الاصنام في الكعبة على ثلاثماية صنم من مختلف الاحجام . منها الكبير والصغير ، ومنها ما هو على هيئة الآدميين أو على هيئة بعض الحيوانات أو النباتات (٥) . وسهل على الناس القدوم الى « مكة » . فانشاوا فيها اماكن للسقاية واخرى للطعام . وجعلوا ما يجاورها حرما لا يجوز فيه القتال . وتولى كل فخذ في القبيلة مهمة محددة كالسقاية او الرفادة خلال مدة الحج . كذلك اوجدت «قريش» في سوق عكاظ مسرحا للادب والشعر . كانت تجذب اليه القبائل ، خاصة لما عرف عنها من عناية بهذا الفن . فتسابقت اليه لاظهار نوابغها من الشعراء والخطباء .

وقامت في « مكة » صناعات حرفية بسيطة كصناعة الاسلحة من رماح وسكاكين وسيوف ودروع ونبال . كذلك عرف أهلها صناعة الفخار من قدور وصحاف واباريق . وصناعة الاسرة والأرائك وبعض الثياب (٦) .

## سمات المجتمع العصري

ويستنتج مما سبق ، ان السمة الاساسية للمجتمع الحضري انه

---

(١) صالح العلي ، محاضرات ، ص ١٥٠ — ١٥٢ .
(٢) معجم البلدان ، ج٤ ص ٦٢٠ .
(٣) صالح العلي ، نفس المصدر ، ص ٩٥ — ٩٦ .
(٤) ج. زيدان ، نفس المصدر ج١ ، ص ٣٦ .
(٥) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن ، ج١ ، ص ٣٧ .
(٦) د. سالم ، دراسات ... ، ص ٥١٢—٥١٣ .

مستقر نسبيا ، بمعنى ان القبائل التي توطنت في الحواضر تجاوزت البداوة مع ما يستتبعها من الترحال والظعن والغزوات والسلب وغيرها . واستقرت في بيوت واصبحت لها مواردها ومصادر عيشها الثابتة . وبذلك تكون سمتها الثانية هي اعتمادها على التجارة كركيزة لحياتها الاقتصادية . والسمة الثالثة هي الانفتاح السكاني . حيث تعايشت فيها قبائل مختلفة كمن بقي من بني خزاعة وبعض بطون كنانة ومضر التي سكنت بظاهر « مكة » (١) وكانت من الاحلاف أي حلفاء لقريش ، الى جانب القرشيين البطاح ، وهي البطون التي كانت تسكن « مكة » نفسها ، ومنهم الاثرياء والتجار . وهي قبائل « عبد مناف وبني الدار ومخزوم » وغيرهم (٢) . كما استوطن بمكة عدد من الاجانب المنتمين الى عشائر وامم شتى ، وكثيرا ما سكن هؤلاء في الشعاب المحيطة بها . الا ان اهم ما افرزه ذلك التعايش المختلط بين قبائل لا ترتبط ببعضها برباط النسب ، هو اجتماعها سوية في الدفاع المشترك عن « مكة » حين كانت تتعرض لغزو او اعتداء او ما شابه. فبرز بالتالي شعور الانتماء الى ارض محددة دونما وعي لطبيعة العلاقات التي تربط بين مختلف هذه القبائل غير العصبية . فادركت ان المصلحة المشتركة النابعة من تلك الرقعة من الارض هي التي تجعلها تجتمع ، رغم ان لا جامع نسب واحد يجمعها للدفاع عن « مكة » .

وانعكس الانفتاح السكاني المحلي على الخارج فأدى الى تبادل ثقافي وحضاري تم بين الحواضر والمراكز التجارية من جهة ، وبين الثقافات والحضارات الاجنبية الاخرى . خلال الاحتكاك التجاري في بعض الفترات (٣) من جهة ثانية . وهذا التبادل هو عنوان السمة الرابعة للمجتمع الحضري الجاهلي .

## توزع الثروة في الحواضر

واذا انتقلنا الآن لمعرفة لمن كانت الثروة في الحواضر وكيف توزعت على سكانها ، فاننا سننطلق من نموذج واقعي مادي ملموس لان الكلام المعمم يكون قليل الدلالة سهل الانتقاد . فمكة تجسد هذا النموذج لعدة أسباب اهمها : الدور الذي لعبته قبيل وخلال وبعد الدعوة الاسلامية في الحجاز ككل بل في الجزيرة العربية . وثانيها : توفر بعض المعطيات والمعلومات التاريخية حولها . وثالثها : كونها تصلح منطلقا لشيء من التعميم على اعتبار ان « قريش » كانت المثال الاجتماعي الذي تستوحيه القبائل الاخرى في تصرفاتها الاجتماعية ، كما كانت موطن الامتيازات .

---

(١) ضواحي مكة .

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٥٨ .

(٣) د. الدوري ، مقدمة ... ، ص ٢٩ .

وثروة مكة كانت تنتج عن التجارة ، ومـوارد الحج ، ومـن الاعمـال الحرفية وبعض الضرائب وكانت هـذه النشاطـات ومواردهـا محصورة بالقرشيين .

فلقد جاء في تاريخ اليعقوبي ان الفضل يعود الى هاشم بن عبد مناف جد الرسول ، في سن رحلتي قريش التجاريتين الى « اليمـن والشام » (١) وان التجارة في مكة لم تكن تتجاوز حدود المدينة . فكان القرشيون يعانون ضيقا بسبب ذلك ، الى ان رحل هاشم الى بلاد الشام فافتتح لهم بذلـك خطا تجاريا وكسبا جديدين .

اما تعاطي التجارة داخل مكة فيعود لابنـاء قريش انفسهم . لقد ذكـر « المسعودي » ان الوظائف الكبرى واعمال الادارة والتجارة والشراء كانـت بيد رجالها . ويكفي للتدليل على المستوى الذي بلغته التجارة في ذلك الحين ان نشير الى ان تجار مكة عرفوا نظام الامانـات والودائـع ونظام الصكوك وتعاماوا بالربا ، وكانت العمـلة السائدة آنـذاك هي الدرهم والدينار (٢) . وربا الجاهلية مشهور ويمكن ادراك مستوى تفشيه واثره الاجتماعي السلبي المستنكر على اهل مكة ، اذ سحقهم وحول مجموعة مـن الذين عجـزوا عن وفاء ديونهم الى عبيد ، ويمكن ادراك كل ذلك من ردة الفعل الاسلامية القاسية تجاه الربا حين حرّمه الاسلام تحريما مطلقا (٣) .

## التقسيم الاجتماعي للعمل في الحواضر الجاهلية

ذكرنا ان الكعبة كانت من مصادر رزق اهل مكة ، لما تجلبه من موارد في مواسم الحج . لقد اناطت قريش الخدمـات الواجب تقديمها في الحج بأبنائها دون سواهم ، ووزعتها على بطون القبيلة . وهـذا التخصيص كـان بمثابة توزيع اجتماعي للعمل . فكل بطن عليها ان تؤدي مهمتها او الخدمة المناطة اليها حسب كفايتها واهميتها في القبيلة . فالسدانة والسقاية كانتا لبني هاشم . وسدانة الكعبة هي الحجابة ، وصاحب هذه المهمة كانت بيده مفاتيح الكعبة يفتح بابها للناس ويقفله . ولهـذا المنصب المقـام الاول في قريش ، لان من كان يشغله كانت له السيادة على مكـة . امـا السقـاية فصاحبها يتولى سقاء الحجاج لقلة الماء في مكة فينشىء حياضا مـن الجلد توضع في فناء الكعبة وينقل اليها الماء العذب من الآبار على الابل في المزاود والقرب . وظلوا على هذه الحال حتى حفرت زمزم . في حين كانت الرفادة

---

(١) اليعقوبي ، تاريخ ... ، ج١ ، ص ٢٤٢ .

(٢) د. سالم ، دراسات ، ص ٥١٢-٥١٣ .

(٣) « احل الله البيع وحرم الربا » سورة البقرة آية ٢٧٥ ، « يا ايها الذين آمنوا لا تاكلوا الربا اضعافا مضاعفة » سورة آل عمران آية ١٣٠ .

في بني نوفل وهي مسؤولية اعداد الطعام من الخراج الذي كانت تخرجه قريش من مالها كل عام ليكون طعاما للفقراء في موسم الحج . والعمارة وهي مهمة مراقبة الناس داخل الحرم والمحافظة عليهم ، وكانت دورية بين البطون . اما بقية بطون القبيلة فكانت تتولى مهمات اخرى كالراية والقيادة والاشناق والأعنة والندوة وغيرها (١) .

يتضح مما تقدم ان الخدمات قد وزعت بحيث تصيب خيراتها الجميع لارضائهم خوفا من الفرقة والنزاع . لكن هذا التوزيع يقوم على خلفية معينة ، حيث كانت المناصب المهمة تولى للبطون الاكثر اهمية في القبيلة . ويلاحظ في هذا الشأن كيف ان بني هاشم جمعوا سدانة الكعبة والسقاية والتجارة بيدهم فكانوا بحق سادة مكة واغنياءها .

اما الاعمال الحرفية فلم تكن محترمة اجتماعيا لموقف القبائل من العمل اليدوي عموما . فترك هذا النشاط لابناء القبائل من غير قريش ، او للذين يعملون لحساب التجار القرشيين لقاء اجرة معينة او للعبيد . واغلب هؤلاء من أسرى الحروب ، وكان بعضهم قد أشتري من افريقيا أو جاء عن طريق الولادة او الدين او القمار . ويعتبرون ملكا يباع ويشترى مع بيع الاموال المنقولة ، ويعهد اليهم القيام بالاعمال اليدوية التي يأنفها العرب ، كالرعي والحدادة والحجامة والنجارة (٢) .

لقد بدأت هذه الصناعات تنمو بشكل محدود نظرا لازدهار التجارة وتبادل منتجاتها ، لكن اصحابها ظلوا غير معتبرين .

وتذكر كتب التاريخ (٣) ان زعماء قريش ، أي بني هاشم ، كانوا يفرضون ضريبة على من يدخل مكة من التجار الغرباء عن قريش عرفت بالعشر . ويمكن تقدير حجم واردات هذه الضريبة اذا علمنا انه قد نزل عدد من التجار الروم في مكة واتخذها دار مقام له . وتوافد عليها تجار من الفرس ، وتحالفوا مع اثريائها، ومنهم من اقام في مكة مقابل دفع جزية لحمايته وحفظ امواله وتجارته . وكان تجار الشام يجلبون الى مكة منتجات بلادهم من القمح والزيوت والخمور والمصنوعات ، كما حمل اليها تجار الجنوب الذهب والاحجار الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل من بلاد الهند ، وكذلك حملوا المنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية والارجوان والزعفران والآنية الفضية والنحاسية ، ومنتجات افريقيا الشرقية واليمن من العطور والاطايب وخشب الابنوس وريش النعام واللبان والمرو والاحجار الكريمة والجلود ، ومن البحرين اللآلىء واليواقيت (٤) .

---

(١) ج. زيدان ، تاريخ التمدن ، ج١ ، ص ٣٩ .

(٢) د. جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج٨ ، ص ٤٢ .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٥٨ .

(٤) د. رشيد الجميلي ، تاريخ العرب ، ص ١٧٣ .

توخينا من سرد هذه اللائحة من السلع والبضائع والمنتجات ان نبين ان قسما مهما من المواد التي تستهلكها الجزيرة العربية كان يصلها عن طريق التجار الاجانب ، وان قسما من أرباحهم ، قدره العشر ، كان يذهب ضريبة الى اثرياء قريش .

وتركز الثروة بيد قريش لا يعني انها كانت مشتركة بين جميع ابنائها . فكما في البادية كذلك في المدينة ، لا شيء مشترك سوى المياه والمرعى ، اما ما تبقى فهو موضوع الملكية الخاصة في القبيلة . فكلما ازدادت اهمية بطن من بطون القبيلة ، ازدادت ملكيتها لازدياد حصتها ، ولحصولها على منصب عام يدر عليها الارباح والنفوذ . ويصل الامر احيانا الى ان يستخدم احد الاثرياء أفرادا من بطن اخرى من نفس القبيلة ليقوموا له ببعض الاعمال لقاء اجر (١) .

وشارك القرشيون اذن التجار الغرباء في ارباحهم . وحققوا بذلك السيطرة شبه التامة على عمليات التجارة في مكة ، وعلى تفرعاتها في بقية انحاء شبه الجزيرة العربية . واذا تذكرنا ان التجارة ، بما فيها من المبادلة والمقايضة ، كانت عماد الحياة الاقتصادية في شبه الجزيرة نستطيع تقدير حجم الثروة التي جمعها القرشيون بين أيديهم .

ان تجمع الثروة وتمركزها في ايدي قلة قليلة العدد من اشراف قريش كان يتم ويتقدم مترافقا مع اتساع التجارة وتعزز الربا والرهونات . والى جانب ذلك ، كان يزداد افتقار العرب الصيلبة وتضخم جموع الفقراء والعبيد الذين كان عملهم يؤلف القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الجاهلي في مكة .

## بروز الحرفيين

وقد كان لازدهار التجارة ونمو طبقة التجار تأثير كبير على العمل الحرفي . فقد أخذ الحرفيون يطمحون الى تصريف انتاجهم بواسطة التجار، وتعزيز كمية المبادلات . لكن قدراتهم المادية لم تكن تسمح لهم بتحقيق هذا النمو ، فجاءت القروض من التجار وجاء معها الربا والفوائد الجاهلية . كانت النتيجة المباشرة لهذه المحاولة ان امتد راس المال الربوي الى كل الحرفيين الصغار واستعبدهم عن طريق الديون . وهكذا وقعوا تحت عبودية المرابين . ويذكر « ماركس » ان الصراع الطبقي كان ايام الاقدمين ، في

---

(١) ( هم العرب الصيلبة ) اي جمهور أبناء القبائل الصرحاء الذين يرتبطون فيما بينهم برابطة الدم والقرابة ، وكان لهؤلاء حق الاحتفاظ بحريتهم وحق الاجارة . « كمال اليازجي ، معالم الفكر العربي في العصر الوسيط ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٨ » ،صالح العلي ، محاضرات ص ١٣٤ .

الدرجة الاولى ، صراعا بين الدائنين والمدينين ، وقد انتهى في « روما » الى زوال المدين الشعبي وتحوله الى عبد (١) . ولم يختلف الامر كثيرا بمكة في ايام الجاهلية ، فقد كان سائدا ان يتحول المدين العاجز عن السداد الى عبد (٢) . وقد ادى هذا الصراع الى خراب الحرفيين وتحولهم الى جماعة من المعدمين او العبيد يستأجرون (٣) للقيام ببعض الاعمال الوضيعة او يمتلكون للقيام بالاعمال المنزلية والخدمات الاخرى .

## الفئات الاجتماعية في الحواضر

ابناء مكة كانوا ينتمون اجتماعيا اما الى فئة السادة التجار الاغنياء وجميعهم من قريش وأشرافها ، وأما الى قلة العرب الصيلبة ، أي عامة ابناء القبائل أو الى فئة العبيد . وكان العبيد موجودين بكثرة في مكة ، خاصة وان سوقا كبيرا للنخاسة والرقيق كان مزدهرا فيها (٤) . فاذا كان الجاهليون في البادية ينتمون الى طبقتين فقط تضم الاولى ابناء القبائل والثانية العبيد والاسرى فأنه ينبغي ان نلاحظ تطور الوضع في الحواضر بالنسبة لهذا الموضوع .

فرغم ان ابناء القبيلة الفقراء ـ العرب الصيلبة ـ يتميزون عن العبيد بالحقوق التي لهم ، مثل حق الحرية والاجارة ، الا انهم يخضعون مثلهم للاستغلال عينه ، ومن قبل الاشخاص انفسهم . فالأولون يعملون بالاجارة في حين ان العبيد مملوكون ، يعملون بالسخرة . والاستغلال واحد هنا ، لكن درجته تختلف من حيث الكيفية لا من حيث النوعية .

والفئات الاجتماعية الثلاث ، المعروفة في الحواضر ، تنتظم بدورها في طبقتين ، وغالبا ما كان ابناء الفئة الثانية يهبطون الى الطبقة الدنيا ، لانسحاقهم بالربا ، أو يفتنون فيصعدون الى الطبقة الاولى في المجتمع الجاهلي الحضري حيث اصبحت ملامح الحياة الطبقية اكثر بروزا ووضوحا لدخول طاقة عمل الآخرين كسلعة في السوق حيث يمكن استئجارها دون اي اعتبار لروابط النسب والدم .

---

(١) ماركس ، راس المال ، جزء ١ ، ص ٢٠٠ ، دار اليقظة العربية ، دمشق ١٩٥٨ ،

(٢) د. جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج٨ ، ص ٤٢ ، زيدان ، تاريخ التمدن ج ٤ ، ص ٢٧ .

(٣) لم تعد رابطة النسب والدم صالحة وحدها لتكون اساس العلاقات الاجتماعية .

(٤) اشهر النخاسين في الجاهلية عبد الله بن جدعان التيمي ، زيدان ، تاريخ التمدن ، ج ٤ ص ٢٧ .

## ٤ – انعكاس ظروف الحياة الجاهلية
## على تنظيم حياة الجماعات ومعيشتها وعلاقاتها

### الوضع السياسي للمجتمع الجاهلي

نظر اكثر المؤرخين الى وضع المجتمع العربي في الجاهليـــة فوجدوه مفككا سياسيا ينقسم الى وحدات متعددة ، قائمة بذاتها ، تمثلها القبائل المختلفة . ووجدوا ان العصبية القبلية هي التي قضت على فكـرة الترابط السياسي (١) . ووجد آخرون « ان سعـة الارض في الجزيـرة وقسوة الطبيعة وصعوبة المواصلات وتفشي البداوة ، منعت نشوء دولة موحـدة وابطلت التنظيم السياسي الصحيح » (٢) وعاب غيرهم على العرب الجاهليين افتقاد النزعة او الشعور بالقومية الشاملة ، وبرر ذلك بقوله « ان وعيهـم السـياسي كان ضعيفا محدودا لا يتجاوز القبيلة او القبائـل المنتمية الـى الجد المشترك » (٣) .

ان وجهات النظر هذه نابعة من تطبيق المفاهيم السائـدة في المجتمـع المعاصر ومحاولة النظر من خلالها الى المجتمع الجاهلي بلا شك . فالترابط السياسي وليد عملية تطور تاريخية طويلة طرأت على العلاقـات الاجتماعية التي ربطت فيما بين اطراف مجتمع معين . تلك العلاقات التي كانت تتطور باستمرار مع تطور القوى المنتجـة التي اقتضت بالنهـاية ، تحـت وطأة الضرورات الاقتصادية والاستهلاكية والانتاج ، توحيـد المجتمعات . فوجد انذاك الترابط السـياسي .

---

(١) د. سالم ، دراسات ... ، ص ٥٧ .

(٢) د. الدوري ، مقدمة ، ص ٣٢ .

(٣) د. سالم ، نفس المصدر ، ص ٥٧ .

ان طبيعة مرحلة البداوة الجاهلية لا يمكن ان تفرز ، على صعيد التنظيم الاجتماعي ، مؤسسات سياسية ، حسب المفهوم الحالي ، يكون فيها الترابط ترابطا سياسيا . فقد اظهرت « شابيرا » (١) ان الحقيقة الاولى والاساسية في الفكر السياسي في المجتمعات القبلية ، هي أن قرابة الدم هي الاساس الوحيد للامة في تلك المجتمعات . فالذي يقول « بترابط سياسي » ينطلق اساسا من فكرة الحيز الجغرافي المحدود موغل في الوهم لان هذه الفكرة لم تكن معروفة بعد . والفرق اذن بين الجماعة البدائية والجماعة المتحضرة هو ان الفرد في الجماعة الاولى يتقمص شخصية الجماعة عن طريق النسب وقرابة الدم ، في حين انه في الثانية يجعل حدود شخصيته ضمن ارتباطه بأرض معينة .

من هذا المنطلق يصبح الكلام عن عدم وجود تنظيم سياسي صحيح ضربا من التفسير الذاتي والاخلاقي اذ ان كل تنظيم سياسي هو تنظيم تفرضه طبيعة المرحلة التي يمر بها المجتمع وتطورها . وكما يقول « مورغان» في مؤلفه « المجتمع القديم » : التنظيم الاجتماعي او المجتمع موجود عند كافة الجماعات البشرية ، لكن اسسه تختلف من جماعة الى اخرى حسب درجة تطورها ، ماديا ، واجتماعيا . فعند الجماعات البربرية والبدوية يقوم هذا التنظيم على اساس البطون والعشائر والقبائل . والسلطة في هذا النظام تتعامل مع الناس على اعتبارهم اعضاء ينتمون الى نسب او قرابة واحدة . اما في الجماعات المتحضرة فان التنظيم الاجتماعي يرتكز على نظام عام هو التنظيم السياسي او الدولة . ومن اهم اسسها توفر الارض المعينة والملك او التملك . وتتعامل السلطة مع الناس ، في اطار كهذا ، كسكان في وحدة اقليمية كالبلدة او البلد او الدولة .

ومن نافلة القول الزعم بان العرب الجاهليين لم يعرفوا النزعة القومية الشاملة ، لان القومية كشعور لم تتبلور الا في عصور متأخرة تاريخية حديثة وقد ساهم في بلورتها وابرازها طموحات توسعية قياسية معينة لدى بعض الشعوب .

## القبيلة وحدة التنظيم الاجتماعي والمعيشي والسياسي

من كل ما تقدم يستخلص ان طبيعة الجاهلية كمرحلة من مراحل التطور التاريخي اقتضت ان تكون القبيلة وحدة التنظيم الاجتماعي في العصر الجاهلي عند عرب الصحراء : في الحواضر والمدن ، يعزز ذلك ويفرضه ان

---

(١) شابيرا ، الحكومة والسياسة في المجتمعات القبلية ، لندن ٥٦ ، ص ٩٣ .
حسن الكرمي ، الأسرة وتطويرها في المحيط الاسلامي ، في الاسلام وتنظيم الاسرة ، صدر عن الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية ١٩٧٣ . ص ٦٨—٦٩ .

النسب وقرابة الدم كانا المبدأ الذي يحدد علاقات الناس ويرسم لهم الاطار المادي والاجتماعي الذي سيعيشون داخله . فلم يكن مقبولا اجتماعيا ان يبقى الانسان بدون انتماء قبلي او خارج اطار القبيلة . وسبب هذا الامر مشاكل اجتماعية بالنسبة للذين كانت تخلعهم قبائلهم من عضويتها فتحولوا الى صعاليك لا يجدون الاطار الاجتماعي الذي يمكنهم العيش ضمنه . فامتهنوا قطع الطرق والغزو والسلب . وكذلك مشكلة الادعياء الذين قبلت بعض القبائل التحاقهم بها ، لكن ، استمرت النظرة الاجتماعية اليهم على اعتبار واحدهم « دعيا » ، ولا يخفى ما في ذلك من مهانة واذلال .

كما ان فكرة الانتماء الى حيز جغرافي محدد في المدن ، لم تكن قد تبلورت بلورة كافية رغم بروز بعض تباشير هذا الانتماء كما حصل في اوقات الدفاع عن « مكة » او « يثرب » .

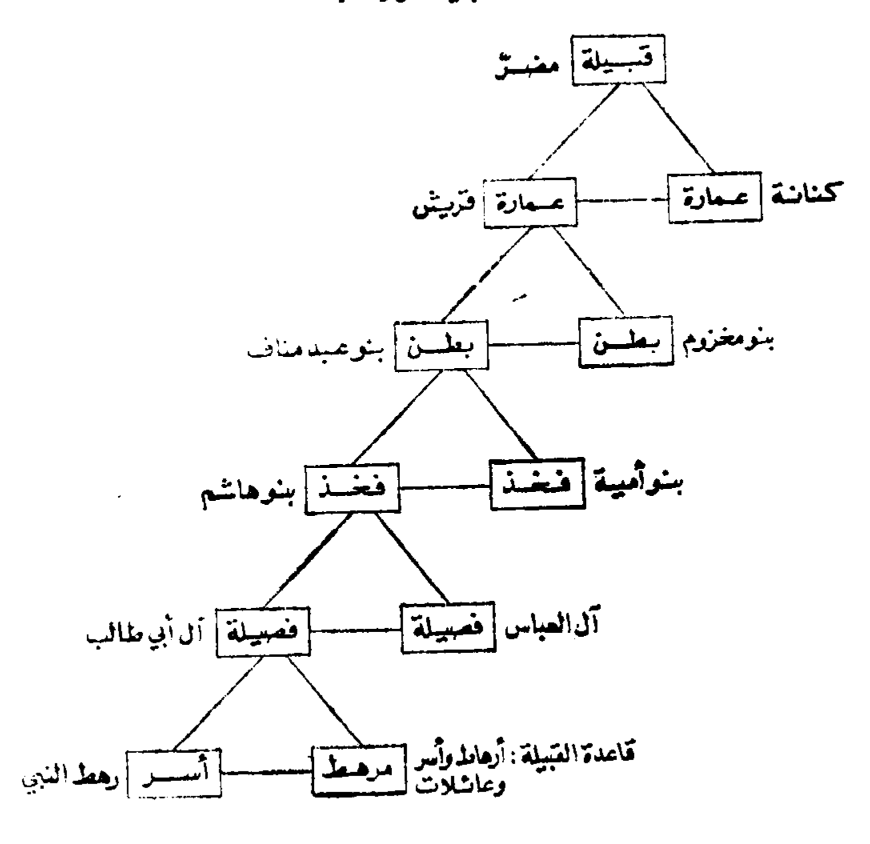
مجتمع شبه الجزيرة العربية كان اذن عبارة عن مجموعة من مجتمعات القبائل . كل منها يشكل مجتمعا قائما بذاته مستقلا في ادارة شؤونه ومعيشته وحكمه . بيد ان هناك جامعا مشتركا واحدا بينها هو نمط تنظيمها الداخلي . ان هذا التنظيم هو نفسه ، يتكرر عند كل القبائل مما يجعلها وحدات منفصلة ماديا فيما بينها ، لكنها منسجمة التكوين الداخلي ، متشابهة الاوضاع . والحديث عن اي منها يسمح بالتعميم والالمام بالوضع الاجتماعي في الجزيرة العربية كافة .

## التنظيم الداخلي للقبيلة الجاهلية وموقع الاسرة فيها

فلندرس الآن التنظيم الاجتماعي الداخلي للقبيلة ، لنر موقع الفرد فيها ، وما اذا كنا نستطيع التحدث عن « اسرة في العصر الجاهلي ضمن نطاق القبيلة » .

يظن البعض ان الرهط او الاسرة هو أصغر تشكيلات القبيلة ، وانهما تسميتان لمسمى واحد يضم الابوة والاخوة والعمومة . غير انه يظهر بعد التدقيق ان ثمة فرقا بينهما . فالرهط هو الابسط . يضم الاب والابناء . بينما تضم الاسرة الاخوة والاعمام الى جانب الابوة . ومجموعة الاسر تكون عشيرة أو فخذا . سنأخذ وضع وتنظيم قبيلة « قريش » نموذجا لتيسير وشرح التشكيل الداخلي عامة . فيقال رهط النبي « محمد » ، عائلة او اسرة « عبد المطلب » . ومن العائلات تتألف الفصيلة ، كآل « ابي طالب وآل العباس مثلا » . فان كلا منهما فصيلة مؤلفة من عائلات . وكلاهما من بني هاشم . ومن الفصائل تتألف الافخاذ ، مثل بني هاشم وبني أمية ، وكلاهما من بني عبد مناف . ومن الافخاذ تتألف البطون مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ، وكلاهما من قريش . ومن البطون تتألف العمائر ( جمع عمارة )

مثل بني قريش وبني كنانة ، وكلاهما من مضر . ومن العمائر تتالف القبائل ، مثل ربيعة ومضر ، وكلاهما من عدنان . ومن القبائل يتألف الشعب ، وهو النسب الابعد ، مثل عدنان وقحطان (١) . وتمثيل ذلك برسم بياني يوضح حقيقة التراتب في التنظيم الاجتماعي للقبيلة :




(١) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ٤ ، ص ١٦—١٧ .

الكلام عن الاسرة في العصر الجاهلي يكتنفه الغموض ويحمل في طياته بذور الالتباس . والغموض ناجم عن صعوبة ضبط المدلول الذي كانت تعنيه هذه الكلمة في ذلك العصر . اذ لا تمكن دراستها على ضوء المفاهيم والمعاني الحالية الموضوعة كاطار لمؤسسة الاسرة الحديثة . اما الالتباس فيتأتى نتيجة لعدم القدرة على التمييز القاطع في الحديث عن الاسرة الجاهلية بينها وبين الجماعات الكبرى المترابطة من تاليفات او تشكيلات القبيلة في الصحراء ، او ما تطورت اليه هذه التشكيلات في الحواضر والارياف. فجميع هذه الاشكال ، سواء البدوية او الحضرية ، كانت تعتبر جزءا تابعا للقبيلة ملحقا بها ، وملزما بالتزاماتها ، ولا تستطيع الاتيان بأي عمل الا اذا كان من مقتضيات الحياة القبلية واغراضها (١) .

## المفهوم الجاهلي للأسرة

واذا عدنا الى الحياة الاجتماعية الجاهلية ونمط التشكيلات القبلية وعلاقاتها ، والى المدلول اللغوي للكلمة ، أمكننا ان نستخلص ونرسم حدود الاسرة ومفهومها كما كان سائداً .

فكلمة اسرة تحمل في معناها صورة مصغرة للحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي ، حينما كان الناس مرتبطين بالقبائل والعشائر والبطون . وكان واجب الجميع التناصر والتآزر والتضامن لحفظ القبيلة . من هنا يبدو ان كلمة اسرة هي في نطاق معنى الفعل « اسر » . ولعلها صيغة اخرى للفعل « أزر » بمعنى ناصر وقوى وشدد بتبديل السين بالزاي وهذا امر معروف وكثير الحدوث في اللغة العربية (٢) . ان لكلمة اسرة اذاً صلة بحياة القبيلة وحياة البداوة . وهي كذلك للعلامة اللغوية او للاشتقاق من جهة ولارتباطها الوثيق بالتقسيمات الاجتماعية في زمن الجاهلية من جهة اخرى ، فهي ، كما اظهرنا ، تشكل قاعدة الانطلاق الاساسية في الانساب بعد الرهط .

اما كلمة عائلة فمستحدثة مشتقة من الفعل « عال » وتكشف لنا عن المعنى المراد بها . وهو كونها مجموعة الافراد الذين يعيلهم معيل او كاسب . لذلك نفضل استعمال كلمة اسرة للدلالة على « اصغر تشكيلة او جماعة قبلية وادناها في سلم حساب النسب » .

---

(١) حسن سعيد الكرمي ، الاسرة وتطويرها ، ص ٣٩ـ٤٠ .
(٢) حسن سعيد الكرمي ، المصدر نفسه ، ص ٣٦ .

## ٥ – بنية الأسرة الجاهلية البدوية

كانت الاسرة الجاهلية البدوية تعيش بتداخل مع بقية ارهاط الفخذ التي تنتمي اليها ولها جميعا كبيرها ويعرف بسيد القوم او الشيخ .. وهو يمثل مجموعة الاسر او العشيرة في مجلس القبيلة ، حيث يبت السادة، ورؤساء العشائر والافخاذ المكونة للقبيلة ، في امورها وقضاياها .

وقد يشترك افراد العشيرة بسكن حي واحد في خيم متقاربة او حتى يتقاسمون خباء واحدا اذا لم يكونوا كثار العدد . وقد شبه بعضهم (١) هذا الشكل من التشكيل القبلي بالاسرة المشتركة او الاسرة الموسعة التي تضم رب الاسرة مع ابنائه وزوجاتهم وبناته غير المتزوجات وجميع حفدته . وكانوا يقيمون سويا وكانت لرب الاسرة السلطة على الجميع وله الملكية التامة على جميع ما بحوزتهم . وبكلام آخر . يذهب هذا البعض الى تشبيه فخذ القبيلة بالاسرة البطريركية القديمة . ولا يخفى مقدار الشطط الناجم عن هذا التشبيه .

فالفخذ كتشكيلة في القبيلة لم تكن مستقلة عنها ولا عن بقية حلقاتها ، في حين أن العائلة البطريركية مستقلة استقلالا تاما ، بشؤونها وموارد معيشتها وملكيتها . ورئيس العشيرة لم يكن لديه اي قدر من السلطة الا بعض التقدير المعنوي غير الملزم بشيء . أما في العائلة الثانية فالسلطة محصورة كلها بيد ربها يتصرف بكل شيء تصرفا فرديا . ففي القبيلة يكون ولاء الابناء لشيخها باعتباره ممثلا لها وليس لصفته الشخصية . بينما كان ولاء الابناء والزوجات والحفدة محصورا برب العائلة البطريركية لا يشاركه فيه احد . فسلطة الاب والولاء له يأتيان في المرتبة الاولى حتى لو تناقضت مع ما يقتضيه الولاء للسلطة العامة أو للاشراف .

---

(١) حسن سعيد الكرمي ، سبق ذكره ، ص ٥٨ .

فلا جدوى اذن من أثبات وجه شبه قسري بين العائلة البطريركية وبين العشيرة القبلية والاختلاف جوهري بين هذين النمطين من انماط المعيشة الجماعية . فكل منهما يلبي مقتضيات مرحلة معينة من تطور المجتمع ومصلحته .

وللعشيرة قطيعها الذي يرعاه أفرادها ، من صغيرهم الى الرجال والنساء . ولكل رهط ان يحتفظ بملكيته لعدد من الرؤوس في هذا القطيع، يحق له التصرف به وبيعه متى شاء ، في الوقت الذي لم يكن لاي من ابناء الاسرة البطريركية الحق بالملكية لانها كانت محصورة بالاب فقط .

والفرد الواحد في الاسرة او على مستوى العشيرة او القبيلة ليس له كيان ذاتي منفصل عن الكيان الجماعي لان هذا الكيان هو الذي يتحكم بمعيشة الفرد من جميع الجهات . في الداخل ، كما في علاقاته مع الخارج. والذين ينتسبون الى احدى القبائل لا وجود اجتماعيا لهم . فالفرد في علاقاته الخارجية ، يعرف من خلال القبيلة التي هو منها ، اذ يقال عنه « اخو قريش » او « اخو تميم » . اما في علاقاته داخل القبيلة فيعرف من خلال انتمائه الى فصيلة او عشيرة محددة كان يقال له من آل عبد المطلب مثلا او من بني عبد مناف . وفي كلا الحالين يختفي الكيان الفردي او حتى كيان الرهط او الاسرة القاعدية ، اصغر تشكيل في القبيلة .

## الزواج في الجاهلية

ان ما نسميه اليوم « شأنا خاصا » لم يكن كذلك عند القبائل الجاهلية ، بل كان شأنا تابعا للعشيرة أو حتى للقبيلة ككل . ومن هذه الشؤون الزواج . فالزواج كان أمرا يبت فيه مجلس القبيلة واعيانها ورؤساء عشائرها . يرشح او يوافق او يرفض صيغة أو مشروع زواج مقترحا عليه على ضوء مصلحة القبيلة . وكان من الطبيعي ان تبدي القبيلة مثل هذا الاهتمام الكبير بزواج افرادها ، لان الزواج كان الوسيلة العملية التي تتيح للقبيلة ان تنشىء روابط قرابة مستحدثة تشدها الى قبائل جديدة ، فتنظم تحالفاتها وسياستها وتجدد قوتها .

ولا شك في أن الزواج السائد في القبيلة يعكس الى حد ما ، درجة تطور المجتمع وحاجاته . واختيار القرين مقيد الى حد بعيد بقواعد الزواج السارية في نطاقها . لقد عرف البدو الجاهليون نمطين من الزواج : الزواج الداخلي «Eadogamie» والزواج الخارجي «Exogamie» . والنمطان متعاكسان . الاول يعبر عن الميل الى الاحتفاظ بوحدة القبيلة وتماسكها الداخلي وبتقويتها من الداخل ، والثاني يعكس تطلعات القبيلة لتجديد قوتها عن طريق الخارج . وقاعدة الزواج في النمط الاول ومبداه هو الزامية زواج أبناء الاعمام بعضهم بعضا . واذا صادف ان تجاوز أحد الاعمام هذه

القاعدة ، فان ابن العم يستطيع ان يبطل الزواج متمسكا بحقه القبلي الناتج عن العرف في الزواج من ابنة عمه . اما اذا تنازل فلها ان تتزوج ممن تشاء . وتشذ هذه القاعدة عما عرف لدى القبائل القديمة من الزامية الزواج من خارج القبيلة . ويمكن تفسير هذا التناقض ان تلك القبائل نشأت في مجتمعات زراعة وصيد . وكان ضروريا ان تتبادل الفائض من منتجاتها مع القبائل الاخرى . فالتجأت الى اسلوب تحريم الزواج بالاقارب كي تجعل أنظار افرادها متجهة ، بل ملزمة بالبحث عن زوجة من خارج القبيلة . ومن وجدها كان يقدم لاهلها الهدايا والعطايا ليظفر بها ( كانت الهدايا عبارة عن بعض منتجات قبيلته من خضار وحبوب أو لحوم وخلافه ، مما يفيض عن حاجاتها ) . والنساء ، كن الواسطة التي يتم بواسطتها التبادل الاقتصادي بين القبائل . فتنمو علاقات التعاون والتبادل فيما بينها ، ويحصل رجالها على زوجات من جهة ، والنساء على ازواج من جهة ثانية ، والجماعة على قوت جديد ومتنوع . لم يكن هذا الامر هو واقع حال المجتمع العربي الجاهلي . اذ ان طبيعة البيئة التي عاشوا فيها كانت مختلفة. فالصحراء قاحلة ومصادر المعيشة فيها على نحو ما فصلناه فلم يكن من الممكن تبادل منتجات غير متوفرة . حيث تكررت محاولات الحصول على ما للقبيلة الاخرى بالقوة ودون مقابل . من هنا أهمية عامل القوة وبأس القبيلة . ولا يتم لها ذلك الا بالتماسك الداخلي ، والتضامن والتآزر بين افرادها. وكانت رابطة الدم تحقق الوحدة الداخلية للقبيلة عن طريق العصبية. فتعزيز روابط الدم كان الطريق لاستمرار المعيشة ودوام مصادرها . وكما اوجدت القبائل القديمة مبدأ تحريم الزواج من الاقارب ، اي تحريم الزواج من داخل القبيلة كوسيلة لاستمرار معيشتها ، كذلك أوجدت القبائل الجاهلية في المجتمع الصحراوي الفقير مبدأ الزامية الزواج من بنت العم ، أي الزامية الزواج من داخل القبيلة لنفس الغاية . والمبدآن المتناقضان وجدا للوصول الى نفس الهدف : تامين أسباب استمرار المعيشة .

## الزواج الخارجي

اما ما كان معروفا عن الزواج من خارج القبيلة فيمكن تفسيره بأنه استكمال واستدراك لنقاط الضعف التي يتصف بها نمط الزواج الداخلي . فصحيح انه يحقق الوحدة والتماسك الداخلي والقوة للقبيلة ، لكنه يصادف احيانا أن تكون القبيلة قليلة العدد ، أو ان تقل الخصوبة فيها لسبب من الاسباب أو ان يكون نموها بطيئا . لذلك أتجه المجتمع القبلي للتساهل أحيانا حيال المبدأ الاول وسمح بالزواج من خارج القبيلة وكان أدخاله أول الامر عن طريق الزواج باماء القبائل المغلوبة وسباياها ، فاستعملوهن أدوات للانجاب والكثرة ، لتنمو القبيلة فيكثر عدد أفرادها وتقوى . وفيما بعد عرف الزواج الخارجي بالحرائر لسبب قبلي أيضا ، لتوفير امكانية اقامة الاحلاف والانتماء الى كتلة قبلية قوية مما يجعل أمر تفوقها محتملا .

## انماط الزواج المعروفة في الجاهلية

ويستدل من حديث السيدة « خديجة » ان انكحة اخرى كانت معروفة في الجاهلية هي نكاح الاستبضاع والشغار والبدل والمتعة والخدان والصداقة وزواج الرهط وزواج الكثرة .

وكان الزوج يقول لامرأته في الجاهلية استبضعي من فلان ، اي اطلبي منه الجماع ، كي تنجب له ولدا منه يتصف ببعض صفاته . وكان الزوج يلحق الوليد بنسبه . وهذا الزواج هو ما كان يسمى بنكاح الاستبضاع .
أما نكاح الشغار فهو ان يتزوج الرجل امرأة نظير ان يتزوج وليها امرأة أخرى تكون تحت ولاية الاول كالبنت والاخت ومن دون اي مهر او هدية .

ونكاح البدل يتبادل بموجبه زوجان زوجتيهما بصورة نهائية لا عودة عنها . في حين كان لنكاح الخدان والصداقة طابع السرية ، والا جلب العار واللوم .

ونكاح الرهط دون العشرة هو ان يدخل جمع دون العشرة من الرجال على المرأة فيصيبونها في يوم او ليلة مثلا . ثم تمتنع عن الوطء بعد ذلك حتى يتم حملها وتضع . ولها الحق ان تلحق الولد بمن تشاء منهم ، فيقبل الرجل ذلك طائعا ويحمله اسمه .

أما نكاح الكثرة فمضمونه ان يدخل ناس كثيرون على احدى البغايا . فاذا حملت ووضعت اجتمعوا اليها بحضور القافة ( وهم خبراء بالحاق الاولاد بآبائهم على التشابه الظاهر بينهم ) ليثبتوا انتساب الولد الى من يقرر القافة أبوته .

ويتضح أن بعض هذه الزيجات يحمل طابع المشاعية الجنسية ، وبعضها الاخر طابع تعدد الازواج ، أو الزواج الثنائي غير القطعي او الزواج التبادلي . وقد عرفت هذه الانماط جميعها خلال المسار الذي قطعته البشرية في تطورها بدءا بأشكال تجمعها البدائي الاول حيث كانت المشاعية الجنسية سائدة وحتى تجمع الثروة بيد الرجال وانتقال حساب النسب الى حبل النسل الرجولي حيث أصبح الزواج الاحادي هو التعبير الاسمى عنه . كما استمر تعددالزوجات وهو شكل يسود في المرحلة التي تسبق التكريس المطلق لصيغة أحادية الزواج – من جانب الرجل كما من جانب المرأة – ولم يعرف المجتمع الجاهلي الزواج الاحادي حتى بعد انتشار الاسلام .

والزيجات المشار اليها هي آثار وبقايا أنظمة زواج كان معمولا بها في حقبة ما من حياة المجتمع الجاهلي ، لكننا لا نملك من الشواهد الكافية ما يمكننا من تحديد تلك الحقبة أو متى تم الانتقال الى نظام زواجي آخر . ومن المؤكد ان المجتمع وقواه ومصادره المعيشية والانتاجية كانت تتطور بوتيرة أسرع من تطور أنظمة الزواج . ففي كل مرحلة كان المجتمع يفرز نظام زواج

يوافقها ، كتوافق المشاعية البدائية مع المشاعية الجنسية ، والبداوة مع تعدد الزوجات مثلا . لكن المجتمع لا يتقبل النظام الجديد بسهولة . فرتابة الحياة وحدودها كانت تفرض نوعا من التحجر على التقاليد والعادات ... وما ان تخترق حتى يكون المجتمع قد دخل مرحلة تطور جديدة ، لا يعود نظام الزواج الجديد معها قادرا على ان يعكس بدقة وضع المجتمع والمرحلة التي انتقل حديثا اليها . فينتشر دون ان يمحي الزواج السائد السابق كلية ، وتتراكم انواع الزيجات المتعارف عليها اجتماعيا خلال حقب عديدة .

وواقع هذا التطور يفسر وجود عدة أنواع مختلفة معمول بها من الزيجات ، يعود كل منها الى نظام زواج كان سائدا خلال مرحلة من مراحل التطور التاريخي لهذا المجتمع .

فالزواج اذن لم يكن شأنها فرديا خاصا ، ولم يكن يبحث فيه الفرد عن مصلحته . لقد كان وسيلة لتحقيق سياسة القبيلة ومطامحها . وعلى ضوء هذا الامر يفهم لماذا كان مجلس القبيلة هو الذي يتولى عقد الزيجات والنظر فيها وليس الزوجان انفسهما او حتى والداهما . ويفهم ايضا حرص القبيلة على ان يكون الزواج مؤسسا على التقدير الشديد للنسب . ومن يقول بنسب ينتظر ان يكون مؤيدا بعصبية قوية . ومتى وجدت العصبية توفرت القوة . وحين تتحقق القوة تؤدي الى الغلبة والانتصار والتفوق على القبائل الاخرى وتجميع الثروة المتوفرة في الصحراء .

### صورة القرين المرغوب فيه

حين ننفي عن الزواج كونه شأنا خاصا ، فهذا الامر لا يعني ان الفتى أو الفتاة لم تكن عندهما صورة للقرين المرغوب والذي يحلم به كل منهما . فالادب الجاهلي يمدنا بعناصر تلك الصور . فالفتاة كانت ترغب بشاب متعقل ، قوي العزيمة ، لا يتوانى عن الاخذ بالثأر ، كريم ، غني ، ذي شباب ونسب وعصبية (١) . أما الشاب فكان يطلب الفتاة لعفتها ولكرم أهلها ونسبهم ولكونها تلم بأعمال الخدمة المنزلية .

هذه الصفات « الفردية » تجسد مصلحة القبيلة العليا وتعبر عنها ، ولا تخرج في خطوطها العريضة عن سياستها ، ومعظمها ليس له علاقة بذاتية الفرد بالمعنى الحصري . وهذا الواقع يؤكد ان كيان القبيلة هو الكيان الوحيد الذي كان يعيه الجاهلي فلا يستطيع تجاوز اطاره حتى حين ينظر الى نفسه .

### الحب الجاهلي وفن الشعر

أما القصائد الجاهلية المحتوية على الغزل فلا يمكن نكران وجودها .

---

(١) الاصفهاني ، الاغاني ، ج٢ ص ٤ـ٥ ، الهاشمي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، ص ٢٤٠.

فلقد وقف الجاهلي قدرا كبيرا من شعره لاجل الحبيبة . فاوحت اليه بكثير من الشعر والهمته بالمعاني العذبة . وكانت غاية امنية الشاعر المحب ان يسمعها نشيده ، وينال رضاها . اما غير الحبيبة من النساء ، فلم يثر في الرجال ما اثارته الحبيبات (١) .

لقد كان تقليدا راسخا ان تبدأ القصيدة الجاهلية النموذجية بالغزل المباشر او بالوقوف على الاطلال لتذكرها . كان ذلك بمثابة افتتاحية او لازمة خاصة بالقصيدة ، وقد اشتملت في العادة على أكثر من موضوع ورمت الى اكثر من غرض . وهذه الكثرة من شعر الغزل اوحت لبعض الباحثين ليظنوا ان الحب كان يلعب دورا مهما عند عقد الزيجات آنذاك . فاذا نظرنا الى الشعراء وجدنا منهم المكثر في النسيب . ومنهم المقل الا ان الشاعر المجيد في نظر أهل البادية كان ينبغي ان يأخذ نفسه بشيء منه . اننا اذن امام واقع فني ، ظاهرة أدبية ، أسلوب في الشعر يعتبر ان النموذج المثالي للقصيدة ، مهما كان نوعها ، يجب ان يبدأ بالغزل المباشر أو بالنسيب الطللي . وقد لا يكون الشاعر على علاقة حب بامراة . لكنه مضطر الى التقليد والوقوف على الاطلال ، لينقل الى جمهوره اراءه ونظرته عبر جسم القصيدة . أما عواطفه ومشاعره التي يبثها في صدر قصيدته الى محبوبته فهي من مقتضيات الفن الشعري . وتفرض الامانة الاشارة الى شعراء محبين ، عشقوا بصدق ، وهووا بعمق . ولكن هذا الحب لم يوصل احدا منهم الى الزواج بمحبوبته . فالمحب كان لا ينال الا الحرمان والاستسلام الى الضنى والسهاد . وقد يذوي ويموت دون ان يحقق حلمه بالزواج من محبوبته كحالة المرقش (٢) وعبدالله بن العجلان (٣) ومالك بن الصمصامة (٤) .

كان الحب كتوما بفعل القيود الاجتماعية التي فرضت عليه . فلم تستطع المراة ان تجهر بحبها ولا ان تتصرف بمقتضاه خوفا من أعين الرقباء . فاكتسبت نتيجة لذلك مجموعة من الصفات ساعدتها على اخفاء حبها دون ان تخفيه ، والبوح به دون ان تعلنه . ومن هذه الصفات الحياء ، والخفر ، والحشمة والدلال والتبدل والهجران والاحتجاز . وتعززت هذه الخصال في شخصية المراة العربية الجاهلية بفضل التقاليد الاجتماعية التي كانت تتصون في الاعراض أو الاحساب .

## التفريق بين الجنسين

تلك القواعد سدت على الجاهلي كل سبل اللقاء المباشر مع المراة .

---

(١) الهاشمي ، نفس المصدر ، ص ٩٠ .
(٢) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، ج٥ ، ص ١٨٩ .
(٣) الاصفهاني ، نفس المصدر ، ج ١٩ ، ص ١٠٢ .
(٤) نفس المصدر ، ج ١٩ ، ص ١٠٢ .

فالحجاب كان يتولى الفصل المادي بينها وبين العالم الخارجي . وقد يترك الوصواص مجالا للعيون لتنظر من خلاله الى ما يحيط بها . أما في الخدور فتوارت المرأة خلف الاستار والخباءات . وانتشرت أعين الرقباء تبحث في الخلاء عن المحبين لتلحق بهم المتاعب . لقد كانت مراعاة التفريق بين الجنسين مراعاة صارمة رغم ما تقتضيه حياة البداوة من اختلاط منذ الصغر في الرعي المشترك ، الى مبدأ التزوج من ابنة العم ، فكل اختلاط خيانة ، وكل خيانة اهانة للرجل ولشرف الجماعة يعاقب عليها بشدة « عقوبات » خاصة (١) .

لقد شكل هذا التفريق بين الجنسين دافعا لكل جنس كي يرسم عالم الجنس الاخر كما يتصوره ، وينسج معه علاقات يتخيلها في أكثر الاحيان . ولسنا ندعي ان العلاقات بين الجنسين كانت مقطوعة بل كانت مقتصرة على ما ينشأ من اللقاء العفوي والعابر اثناء السقي والرعي أو الرحيل أو في أوقات الحج أو في الاسواق . وتبدو كل هذه المناسبات خارجة عن سعي أحد الطرفين أو ارادته .

ففي ظل هذه الظروف بقي الحب مرغوبا وممنوعا في الوقت نفسه . ولم يتجاوز في معظم الاحيان الطرف الواحد ، بمعنى انه لم يكن متبادلا . فدون تبادله معيقات اجتماعية كثيرة . ولم يشكل بالتالي أساسا لزواج تحقق .

كانت القبيلة تحقق الزيجات وتوافق على اتمامها عن طريق مجلس الاعيان او العشائر فيها (٢) . وحين يذهب وفد آل الخاطب للخطبة ، يتولى أحد أعيان القبيلة ، ويكون راس الوفد وليس والد الخاطب ، الطلب نيابة عن القبيلة ككل وباسم الشاب . ويتم الاخراج بأن يعرض والد الفتاة ، الذي يكون على علم سابق بنية عشيرة الخاطب ، بسبب مشاركته أو مشاركة شيخ عشيرته في مناقشة الموضوع في مجلس اعيان القبيلة ، على أبنته امر الخطبة وينال موافقتها على قرار القبيلة . أما اللواتي تمنعن أو رفضن هذا القرار فقليلات . ويظهر بجلاء ان الزواج في الجاهلية كان شأنا قبليا ، رغم انه يتستر بموافقة جميع الاطراف حتى ليبدو وكأنه شأن شخصي يخرجه الاعيان . وقد يحدث الا يكون الخاطب قد راى الخطيبة بسبب منع الاختلاط، فيستعين عند ذلك بالاقرباء أو الجارات يخبرنه عما يريد ان يعرفه عنها (٣) . ثم يجري عقد الزواج ويسمى فيه مهر يتفق عليه الطرفان ، قد يكون ابلا أو أعيانا أو نقدا أو غير ذلك (٤) والرجل هو الذي يدفعه وكان غالبا ما يأخذه والد الفتاة . لكنه يبقى من حقوق الزوج ان يسترجعه عند الفرقة بالطلاق أو

---

(١) ر. بلاشير ، تاريخ الادب العربي ، ص ٤٤ .

(٢) يذكر اليعقوبي في تاريخه انه كان لا ينكح رجل ، ولا يتشاورون في امر ولا يعقدون لواء بالحرب الا في دار الندوة ، ج١ ، ص ٣٠ .٤٢ ، زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ٢٧٧

(٣) الهاشمي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، ص ٢٣٨ .

(٤) الهاشمي ، نفس المصدر ، ص ٢٤١ .

الموت (١) وقد تشترط المرأة في عقد الزواج حيازتها للطلاق ان شاءت تركت معاشرة الزوج أو أوقعت الطلاق . وكذلك قد يحتوي العقد ذكر الجهة أو الطرف الذي سينتسب اليه الاولاد ، وهل سينتسبون الى أمهم أو الى أبيهم (٢) .

## العلاقات الزوجية في الجاهلية

بعد الزواج ، تتحكم بعض العوامل بالعلاقات بين الزوجين . وأول تلك العوامل هي المنزلة الاجتماعية لقبيلة الزوجة اذا كان الزواج قد حصل من خارج قبيلة الزوج . وثانيها كون الزوجين ابناء عمومة ، وثالثها كون قبيلة الزوجة تسكن بعيدا أو قريبا من قبيلة الزوج .
فمنزلة الزوجة في بيت زوجها تتوقف الى حد بعيد على منزلة أهلها وقوتهم بين القبائل . فان قوتهم تنعكس نفوذا لابنتهم بعد زواجها ، في محيط زوجها . أما ضعفهم فتحصده مهانة وانكسارا . والزوج يعي ذلك ، ويلمس نتائجه . فكثيرة هي الحروب والمشاكل التي بدات بسبب سوء معاملة زوجة ، اعتبر أهلها ذلك اهانة لحقت بقبيلتهم تستوجب التأديب والمحو .

أما ارتباط الزوجين بصلة نسب ورحم سابقة على الزواج فكان غالبا يستوجب المعاملة بالحسنى نظرا لما تقتضيه القرابة من رعاية للارحام . وقد يكون عدم احترام هذه الصلة سببا لنمو عداوة مرة بين أبناء العم ورغم ما عرف عن البدو من عصبية .
أما اذا كانت قبيلة الزوجة تسكن بعيدا عن موطن قبيلة الزوج فان منزلة الزوجة تتأثر بشكل مباشر ، لانها تفقد الحماية التي يمكن ان توفرها لها ، وبالتالي يخف نفوذها في اطار قبيلة الزوج .
لقد انعكس هذا الواقع بسلبياته وايجابياته على العلاقات التي كان الزوجان يتبادلانها ، فاذا كانت الزوجة صاحبة منزلة عالية في بيتها ، شاورها الزوج في الامور البيتية والمعيشية وقدر لها رأيها . وغالبا ما كان يستجيب لرغباتها . وترك لها مجال الدخول في الحياة العامة . فاشتركت في عقد الاحلاف مثل عاتكة بنت مرة زوجة عبد مناف التي ساهمت في حلف الاحابيش (٣) أو كانت تحمل زوجها على ان يصلح بين المتخاصمين ، كما فعلت بهية بنت أوس الطائي مع زوجها الحارث بن عوف (٤) .

---

(١) د. محمد البهي ، الفكر الاسلامي والمجتمع المعاصر ، مشكلات الاسرة ، دار الفكر طرابلس ١٩٧١ ، ص ٣٠٨ .
(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ وقد بقي ذلك سائدا حتى اواخر العصر الجاهلي .
(٣) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .
(٤) الهاشمي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، ص ١٧ .

اما اذا كانت منزلتها وضيعة . لم يكترث الزوج لشأنها او لرغباتها وقل احترامه لها اذ عاملها بقسوة مستعملا السوط أحيانا لضربها . وقد جعله « الشنفرى » من اعمال الرجال . على العموم ، كان الزوج الجاهلي لا يرضى ان تخرج زوجته عن طاعته ، فاذا حاولت ذلك سعى لوضع حد له . . اذ لم يكن يعتبر من المستحسن الخضوع لها دائما (١) .

ومهما يكن من أمر الزوجة ومنزلتها فلم تكن تستطيع تجاوز بعض الحدود في علاقاتها مع زوجها كتوجيه لوم لالقاء نفسه في المخاطر ، أو أن تبدي حرصها على سلامته أو بغضها لعكوفه على اللهو والخمر أو أن تظهر اهتماما أو حرصا على المال أو على وجهة انفاقه (٢) .

## تقسيم أعباء العمل المنزلي

واختلفت العوامل التي فرضت تقاسم الاعباء والاعمال المنزلية بين الزوجين عن تلك التي حددت للزوجة منزلتها في بيت الزوجية اهمها ، الانتماء الاجتماعي ، النسب والجنس .

تقدم شرح التطور الذي لحق بالمجتمع وجعل من الرجل كاسب رهطه وصاحب القطعان . وكيفية تحول المراة الى وجود تابع للرجل ، منع عنها الاختلاط وحجبها عن الناس وجعلها أسيرة الخباء او البيت ومنحها ادارته ، اي القيام بكل اعمال الخدمة فيه ، من طهي وكنس ونظافة ، وخياطة الثياب واصلاح الخيمة ، وتربية الاطفال واحتفظ بالسيادة فيه لنفسه (٣) . فهو الذي يصدر الاوامر ويوزع المهمات ويتولى المراقبة . واناط بها ايضا القيام ببعض الاعمال الاخرى كالاشتراك في الرعي والسقي وحلب الماشية والاحتطاب والتهيئة للارتحال . وبقي للرجل امر المساهمة بالغزوات والدفاع عن القبيلة، وضرب الخيام وتهديمها ، ورعاية القطعان وحراستها . وواضح ان هذا التوزيع هو لصالح الرجل ، ينبع من سيطرته الاقتصادية وملكيته ومسؤوليته في اعالة رهطه .

وتخفف اعباء هذه الاعمال عن كاهل الزوجة بل قد تسقط كلية اذا كانت من قبيلة قوية او غنية ، أو صاحبة مال أو أعمال . عندئذ تقوم الخادمات من الاماء بهذه المهمات وتبقي هي لنفسها أمر الاشراف ، وبهذه الحالة يخسر الزوج هذه الوظيفة ولكنه يبقي على سيادة البيت لنفسه .

ولا يخفى أن تقاسم الاعمال والوظائف في البيت أو في الحياة العامة كان ولا يزال يتحدد تبعا للجنس . فعلى المرأة واجبات المنزل المملة المرهقة

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٣ ، ص ٥٣ ، ابن الاثير ، ص ٤٢٠ .
(٢) الهاشمي ، سبق ذكره ، ص ١٤٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤ .
(٣) الهاشمي ، المراة في الشعر الجاهلي ، ص ٦٣ .

والرتيبة . وعلى الزوج واجبات العمل الاجتماعي : يعزز من ملكيته ، يجسد فروسيته ، يطور شخصيته . وقد ادى هذا التقسيم الى قيام تفاوت في العلاقات بين الزوجين على الدوام . اتخذت طابع العلاقة التبعية والاستعلائية والتسلطية لصالح الذكر دائما .

واذا تذكرنا أن الرجل كان غالبا ما يتزوج باكثر من زوجة في العصر الجاهلي ، ولا يتوقف ذلك على الاغنياء ، لسهولة الحصول على الزوجة الجديدة ، عن طريق السبي ، او تبادل بعض المنافع ، أو التمدد القبلي ، أو عن طريق الشراء أو تلقي المرأة كهدية . فانه يصبح سهلا تصور التغيرات التي تطرأ على علاقات الزوج بزوجته ومنزلتها في بيته . وكثيرا ما كانت الزوجة الثانية ، اداة ضغط بيد الزوج يمارسه على زوجته ويستحصل به على رغباته ويعزز نفوذه .

## اشكال الفرقة الجاهلية بين الزوج والزوجة

في مجتمع العرب قبل الاسلام ، كانت هناك عدة صور لفرقة الرجل والمراة ولفصم العلاقة الزوجية القائمة بينهما (١) . وكل صور الفرقة كانت حينئذ تنطوي على تعسف بالنسبة للمرأة ، وعلى أستعلاء وامتهان لكرامتها . فالعلاقات التي كانت تربط بين الرجل والمراة هي نتاج المجتمع ودرجة تطوره. ومن الطبيعي أن يعزز المجتمع الجاهلي قواعد وتقاليد يغلب عليها طابع الاستعلاء الذكري ، لا سيما انه كان مجتمعا رجوليا عماده الفروسية والقوة . وما كان متبعا في موضوع الفرقة والطلاق ليس سوى مظهر لتلك العلاقة غير المتكافئة بين الجنسين .

## الطلاق

وكانت الفرقة تقع بلفظ الطلاق . فهو مصطلح جاهلي . ويذكر الترمذي عن عروة عن « عائشة » ان فترة مراجعة كانت تتبع الطلاق . « وكان الرجل يطلق امراته ما شاء ان يطلقها . وهي أمرأته اذا شاء ارتجعها وهي في العدة ، وان شاء طلقها مائة مرة » . فقد كان الرجل يقول لامرأته « والله لا اطلقك فتبيني مني ، ولا آويك ابدا » . وكان ذلك بأن يطلقها ، وكلما همت عدتها ان تنقضي كان يراجعها دون أن يحق لها رفض العودة .

والتعسف باد في هذا التصرف . اذ يمكن مع الطلاق المتكرر والمراجعة المتكررة في غير حد وعدد ، ان يمسك الرجل زوجته ويقصد الاضرار بها الى الابد . ويمكن مع هذا التحامل المستمر ان يطيل اساءة عشرتها . وربما يلجئها بذلك أن تفتدي نفسها وحريتها بمالها ، وتطلب الخلع منه نظير مال

---

(١) د. محمد البهي ، الفكر الاسلامي ، ص ٢٠٤-٢٠٧ .

قد يكون اكثر مما مهرها به يوم عقد زواجه عليها .

ويستدل من ديوان الاعشى ان الطلاق بالثلاث كـان معروفـا أيضا . وايقاعه لا يتطلب شروطا أو قيودا وكثيرا ما كان فيه اجحاف للمرأة (١) ويقدم لنـا « أبو الفرج الاصفهاني » وصفـا للطريقـة التي تطلـق الزوجـة بهـا نفسها حين يكون طلاقها بيدها بموجب عقد الزواج فيقول : كانت المرأة تغير وجهة البيت الذي تسكن خصوصا اذا كان خيمة أو بيتا من الشعر ، فتتغير ناحية الباب تبعا لذلك فيعلم الرجل انها طلقته فلا يدخل (٢) . هـذه القدرة قاصرة على الخواص من الزوجات ، اللواتي ينتمين الى قبائل قوية ، أو تكون لهن منزلة بين قومهن ، أو يكن متزوجات بين أهلهن وتحت حمايتهم . أما عموم الزوجات فكان أمر اطلاقهن بيد الرجل .

## المخالعـة

والخلع يقع بلفظه ايضا . ولا يتم الا ببـدل يحصل عليـه ألزوج مـن زوجته المختلعة . وقد كان منه نوعان . النوع الاول كـان يقـع تحت تأثير الرجل . فاذا تزوج امرأة ، ولم تكن من حاجتـه حبسها مـع سوء العشرة والقهر ، وضيق عليها لتفتدي منه بمالها وتختلع . أو اذا اراد الزواج بأمرأة جديدة رمى زوجته القديمة بفاحشة حتى يلجئها الى الافتداء ، بما أعطاهـا من مهر ، أو بأزيد منه ، ليصرفه في تزوج الجديدة .

والنوع الثاني من الخلع كان يقع تحت تأثير تصرف الزوجة ، أو رغبتهـا في الانفصال عن الزوج . فكانت تأتي بفعل واضح النشوز أو شكاسة الخلق ، أو ايذاء الزوج أو أهله بالبذاءة .

ولا شك ان النوع الاول كان ينطوي على تعسف واستغـلال . فتصبح الزوجة كالامة الرقيقة سواء بسواء ، يملكها ويكاتبها على مال ، ان هي أتـت به أعتقها ، والا بقيت في رقه لا ترى ضوء الحرية .

## الظهـــار

وكان شكل الفرقة الثالث هو الظهار . وهو ان يقول الزوج لزوجته ، انت علي كظهر أمي ، فتحرم عليه في المعاشرة الجنسية ثم لا انفكـاك عـن التحريم وعن الزواج معا طوال الدهر .

## الايـــلاء

والايلاء هو ان يحلف الزوج ان لا يقرب زوجته ، فيمتنع عـن معاشرتها

---

(١) الهاشمي ، المرأة ، ص ١٧٢ .

(٢) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٦ ، ص ١٠٢ .

معاشرة جنسية ، الى أمد غير محدود . وبذلك لا يريدها ، كما لا يحب ان يتزوجها غيره ، قاصدا الاضرار بها وقد يمتد هذا نحو سنة أو اكثر .

## انعكاس ظروف الحياة الجاهلية على العلاقة بين الزوجين

وكلا هذين النوعين من الفرقة الظهار والايلاء يشبهان ما يسمى اليوم بالانفصال الجسماني فلا هي زوجة ولا هي خليلة ... انما معلقة بين بين . والتعسف واضح . والايذاء ايضا بترك معاشرة الزوجة من جهة وعدم اخلاء سبيلها لتزوج من آخر .

فهل كان يقصد من الظهار والايلاء في الجاهلية ايذاء المراة والاضرار بها معنويا ؟ أم انه كان يقصد منهما حمل المراة على الافتداء والاختلاع بمال تقدمه للزوج ، ان لم يكن أكثر من المهر ، فلا أقل من ان يكون مساويا له ؟

واغلب الظن ان الحاق الضرر المعنوي لم يكن هدفا لذاته يسعى الزوج لالحاقه بالزوجة عن طريق اساءته معاشرة الزوجة ، أو توسل الظهار أو الايلاء لتحقيق ذلك .

كان الظهار والايلاء وسيلتين مقنعتين للافتداء بالمال . ويشبهان بذلك « عضل المراة » التي طلقت وما كادت عدتها تنقضي حتى يمسكها الزوج ، ضرارا ، أو يمنعها من أن تتزوج ثانية . فالحصول على المال عن طريق الخلع كان غاية الرجل في المجتمع الجاهلي . ولقد أضحى ذلك طابعا عاما في علاقة الرجل بالمراة سواء عند قيام الزوجية ، أو عند محاولة انهاء عقدها بالفرقة . وهو مظهر من مظاهر عدم استقراره . فلا يكاد الرجل يحصل على زوجة ويشبع رغباته منها حتى يكرهها على الفرقة . فيشكل مال خلعها المهر الذي يمكن الزوج من الزواج مرة ثانية وهكذا . واذا اضيف تعدد الزوجات الى هذا الواقع ظهر وكأنه الحلقة الانتقالية ما بين مشاعية النساء ومن مرحلة الزواج الثنائي المستقر نسبيا . وما يجمع بين هاتين المرحلتين هو حرية الرجل الجنسية . لكن درجة تمتعه بها تتدنى مع ترسخ الزواج الثنائي ودخول الزواج الأحادي .

وكما كان الاستغلال يطبع الحياة الاجتماعية والاقتصادية الجاهلية ، فانه يطبع حياة المراة وعلاقتها بالرجل ، بمعنى ان ما أصابها من مال يحصل عليه الرجل ، أيا كان مصدره مهرا أو ارثا . فالاب يحصل على مهر الابنة وقريب الزوج يستولي على الزوجة بعد وفاة زوجها ، ليتزوجها فيبقى ارثها من زوجها المتوفى ، بين يديه ، وقد يرث المال بعد وفاتها . واذا كان مستعجلا فهو يزوجها لغيره ويستوفي منه مهرها . وله أيضا ان يبقيها في البيت ويمنعها من الزواج حتى تموت فيرثها (١) .

---

(١) الجميلي ، تاريخ العرب ، ص ١٧٧ .

ونكتشف هنا بعدا جديدا ، وغاية جديدة للزواج في العصر الجاهلي . فقد كان ينعقد لرغبة الرجل في مال المراة اذا كانت قد ورثت أبا او زوجا أو قريبا . فبنتيجته تنعقد بينها وبين زوجها الجديد رابطة الوراثة . فيحقق الزوج بذلك ثلاثة اهداف : اشباع رغباته الجنسية ، زيادة راسماله عن طريق استرجاع المهر مضاعفا او وراثة مال الزوجة في حال وفاتها ، أو وراثتها في حال وفاة زوجها واستعمالها للحصول على مال جديد عن طريق قبض مهرها من زواج جديد .

## صورة الأسرة البدوية الجاهلية مكثفة

هكذا تكتمل صورة الاسرة البدوية الجاهلية ، حيث نجدها عبارة عن تشكيل قاعدي بسيط وصغير في القبيلة ، لا استقلالية له ، يجسد بشكل مكثف كافة التناقضات القائمة في المجتمع ، يعكسها ويجدد قيامها عن طريق اقامة علاقات تضج بالتناحر بين أفراد هذا التشكيل . ولا تخرج عن كونها نابعة من صميم ذلك المجتمع القائم على الاستغلال والمطبوع بالطابع المادي . وقد عزز هذه الظواهر عدم وضوح بل غياب الحدود الفاصلة ما بين الرهط والقبيلة ، والاسرة والعشيرة . فكان الكل في واحد ، والواحد في الكل . واضحت دراسة طبيعة التناحرات والتناقضات القائمة في المجتمع الجاهلي، ممكنة عن طريق تتبع تطور العلاقات القائمة في قلب قبيلة أو عشيرة أو رهط (١) .

---

(١) انجلز ، اصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة ، ص ٢٥٦ .

## ٦ – الاسرة الجاهلية في الحواضر

ان وضع الاسرتين البدوية والحضرية متشابه من حيث ارتباط كل منهما بالقبيلة ، والزامها بقضاياها واعتبارها جزءا لا يمكن تمييزه ، فالاسرة تذوب في القبيلة . لكن ملامح التبعية المطلقة والوثيقة تخف في الاسرة الحضرية . فثبات العمل واستقرار مدخوله ساهما الى حد ما ببروز بعض ملامح الاستقلال والذاتية . ولا يعني هذا الواقع ان العصبية القبلية عند أهل الحضر تضعف أو أن علاقاتها بباقي تشكيلات القبيلة تتراخى ، لان السكن التجمعي يعمل على توحيدها .

**السكن**

فحين تمكن قصي بن كلاب بن مرة من انتزاع السيادة والادارة الملكية من خزاعة عمد الى جمع أهله من قريش وتقسيمها الى بطون ، فميز بين قريش البطاح وقريش الظواهر (١) ، واخرجهم عن نطاق الفوضى والاضطراب، وأدخلهم قلب مكة فاقامهم فيها أسيادا (٢) فبنوا المساكن وعمرت بهم (٣) .

وقريش البطاح هي البطون التي كانت تسكن مكة نفسها ، وكانت الادارة بيد رجالها وكذلك الوظائف الكبرى ومنها التجار والاثرياء ، وهي قبائل عبد مناف وبني عبد الدار وبني العزى بن قصى ومخزوم ويتم بن مرة ، وجمح ، وسهم وعدي ، وبني عقيل بن عامر بن لؤي (٤) .
أما قريش الظواهر فهي البطون التي سكنت أطراف مكة ومنها بنو

(١) الجميلي ، تاريخ العرب ، ص ١٧٧ .
(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٥٨ .
(٣) زيدان ، تاريخ التمدن ، ج ١ ، ص ٣٤ .
(٤) المسعودي ، تاريخ ، ص ٥٩ .

محارب ، والحارث بن فهر ، وبنو الأردم بن غالب بن فهر ، وبنو هصص بن عامر بن لؤي . ولم يكن لهذه البطون دور مهم عند ظهور الدعوة الاسلامية وبعدها الا انهم كانوا يساهمون في الدفاع عن مكة (١) .

## توزيع العمل الاجتماعي

ومما ساعد على استقرار المعيشة في مكة ان قريشا عمدت الى تقسيم العمل والوظائف المتوفرة في المدينة وتوزيع المهمات على مختلف مستويات تشكيلاتها وحلقاتها فجعل القريشيون سدانة الكعبة والسقاية والرفادة لبني هاشم ، والراية والندوة لبني عبد الدار ، وقيادة المحاربين لبني امية ، أما الاشناق (٢) فليتم ، والمشورة لبني أسد ، والسفارة للخطاب ، والايسار جعلوها لبني جمع ، أما الاموال المحجرة وهي ما يشبه بيت المال لصالح آلهتهم فلبني سهم . أما الفصل بين الناس اذا اختلفوا ، اي التحكيم ، فلم يكن منوطا بشخص بعينه . وغالبا ما يقوم رئيس العشيرة بالفصل في المنازعات التي تقع بين أفراد القبيلة .

ويبدو مما تقدم ان بعض هذه الوظائف لا أهمية له على الاطلاق . لكنه يندرج في عداد تقسيم اجتماعي للعمل لتأمين مصلحة قريش العامة . وفتح باب المشاركة لكل البطون ليس عن طريق منح الولاء فقط بل ترجمته الى عمل لصالح القبيلة . ولم يكن هناك من تمييز بين ما هو عمل سياسي او حزبي أو اداري أو قضائي . فالسلطة لم تكن تتركز بيد شخص واحد لذلك ترسخ مفهوم الولاء المباشر للقبيلة ككل، لان صاحب المنصب الواحد، لم يكن يستطيع، مهما كان قدره ، وبحكم طابع وظيفته المحدودة أن يؤدي خدمات شخصية . لقد كانت القبيلة الحضرية أقوى من أي فرد فيها لان تقسيم العمل جعل كل بطن فيها تعي ان استمرار مصلحتها مرهون باستمرار مصلحة المجموع .

## الاهتمام بالعمل كمصدر للمعيشة : ظهور الحسب

أما النتائج المباشرة لهذا التقسيم للعمل فكان بروز شعور متزايد العمق بضرورة الاهتمام بالعمل نفسه وبمشاكله ونتائجه الاقتصادية . وقد ساعد هذا الامر على ظهور بعض ملامح الاستقلال فيما بعد ، لا سيما عند الاسر التي تعاطت الاعمال المهنية والحرفية . أما النتيجة الثانية فهي نمو شرائح اجتماعية طفيلية من ابناء القبائل الاخرى التي سكنت الشعاب المحيطة بمكة ، وأخذت تزاول الحرف وتلبي الحاجة اليها ، فاجتمع لديها المال وأصبحت صاحبة

---

(١) صالح العلي ، محاضرات ، ص ١٠٨ .

(٢) الاشناق ، هي تقدير الخسائر بعد الحروب ، وتقدير ما يتطلبه انهاؤها من دفع ديات وتعويضات .

حسب وقد مكنها ذلك من الفوز بمنزلة اجتماعية في مكة تعويضا لها عن انسابها القريشية .

لقد كان بدء تقدير الحسب دليلا على التحول الذي اصاب القيم الجاهلية ، وتقدما مهما وبارزا للقيم المادية على ما عداها . وكان طبيعيا ان يفتتح ذلك في المدن ، لانها كانت تشكل الارضية الصالحة والموضوعية للتحول . وستظهر آثار تلك القيمة المستجدة على كل التصرفات الاجتماعية لاحقا . كما ان بعض البطون في القبائل اصبحت تعرف باسم الحرف التي زاولتها كبني الحداد وبني النجار وغيرهما .

ان هذا الاستبدال للانتساب من القبيلة الى الحرفة يعكس تطوراً بارزا على الصعيد الاجتماعي هو الاستقرار المعيشي والارتباط بالعمل . كما تجاوز البعض انتماءه الى قبيلة ، حين كان يعمد الى التعريف عن نفسه في علاقاته الخارجية ، رابطا نفسه بمدينة أو بمكان جغرافي فكان يقول انا من مدينة كذا ، ومن قرية كذا . هذا الواقع الجديد كان يؤكد ويعزز طابع الاستقرار الذي تحدثنا عنه .

## انفراد الاسرة الحضرية

في ظل هذا الوضع العام كانت الاسرة الحضرية تكسب قدرتها على الوقوف على قدميها بصورة مستقلة . فبدات استقلاليتها بالسكن في بيوت من التراب المجبول ، وكسب افرادها عيشهم بانجاز ما اناطته بهم القبيلة من مهمات ووظائف . فهل يكفي ذلك لنؤكد مع بعض الباحثين « ان العرب سواء في جاهليتهم او اسلامهم ، وسواء في بداوتهم او حضارتهم ، كانت عندهم دائما وحدة اجتماعية صغيرة هي الاسرة العينية أو المتعينة الصغيرة . حتى أن نظام الاسرة المتفرعة المتأخر الذي ظهر في المناطق الريفية والمدينة لم يحدث أي تغيير في الاسرة المتعينة بل ان التغير طرأ على الاسرة المتفرعة وعلى الاسرة المشتركة (١) .

ولا يمكن تصور وجود أسر زواجية نووية أو متعينة صغيرة مؤلفة من الوالدين والاطفال الصغار وحدهم ، كما لا يمكن تصورها مستقلة بنيويا ووظائفيا عن القبيلة ، في تلك المرحلة من مراحل تطور الاسرة . والاسرة الزوجية تقوم أساسا على مبدأ تناسلي وزواجي . وهذا لا يتم الا بزوج واحد وزوجة واحدة وأولادهما حين يعيشون على شكل مجموعة صغيرة متميزة تماما عن المجموعة الكبرى . والواقع الحقيقي الذي كان سائدا في الجاهلية ، حتى في حواضرها كمكة والمدينة ، ان الزواج كان وسيلة لا غاية في حد ذاته. وكانت الغاية هي الانجاب وتقوية القبيلة وحفظ الملكية بالتوارث . والاسرة لم

---

(١) حسن سعيد الكرمي ، الاسرة وتطويرها ، الاسلام وتنظيم الاسرة ، ص ٤١ .

تكن متميزة تماما عن المجموعة الكبرى حتى في مكة (١) فالسكن وكسب المعيشة المستقلان لا يكفيان لان يعينا استقلالية بنيوية ووظائفية . اذ ان كلا منهما يتم في أطار بنية القبيلة وفي تكاملها الوظيفي ، في الواقع ، فكانت امكاناتهم غير كافية لبناء البيوت المتسعة لكافة افراد البطن الواحدة . فنشأ السكن المستقل ، لكن المتراص والمترابط بحي واحد ليمكن القبيلة من التصدي لخطر هجوم محتمل على المدينة .

واقتضى التنظيم الاجتماعي للحياة بمكة عملا متخصصا نسبيا يقدمه كل فرد للقبيلة . وليس انتشار ظاهرة تعدد الزوجات للرجل الواحد ، والزواج بالاماء والاستيلادهن في كافة تجمعات العرب الجاهليين ، سوى الدليل على ان الاسرة الزوجية المتعينة لم تكن قد ظهرت بعد ، وان ظروف المجتمع وتطوره لم تكن قد استدعت وجودها . لقد كانت الاسرة الجاهلية الحضرية حلقة مستقلة من الحلقات التي يؤلف مجموعها القبيلة الحضرية ، ذلك الكيان الاجتماعي المعترف به وحده .

## الكفاءة والزواج

استتبع الاستقلالية النسبية للاسرة ضمن القبيلة بروز ظاهرات جديدة على صعيد الزواج فبعد ان كانت الكفاءة بالنسب شرطا وحيدا للموافقة على الزواج عند الجاهليين البدو ، اصبحت الاسرة في البيئة الحضرية تتمسك ، وبتأثير من بروز طبقة التجار الموسرين او الحرفيين ، بالكفاءة بالنسب والكفاءة بالحسب على حد سواه . وشكل هذا المبدأ الاداة العملية ليبقى الزواج فئويا ، وبتعبير حديث زواجا طبقيا . فالمتساوون يتزوجون من بعضهم . وبعد ان كانت قريش بعضا لبعض اكفاء بالنسبة للزواج، اصبح التاجر القريشي الثري كفوءا، ليس لجميع البنات والقريشات، بل للائي يشابهنه وضعا ماديا واقتصاديا ، اي لبنات التجار من امثاله .

واتاحت هذه القاعدة للتمايز الطبقي داخل كل قبيلة ان يعبر عن نفسه كفئة مستقلة لها مصالحها وامتيازاتها ، يحفظها لها ويعمل على استمرار ديمومة السلطة فيها .

فالرئاسة او المشيخة في القبائل العربية الجاهلية لم تكن متوارثة بل كانت اختيارا يمارسه افراد القبيلة ، فيختارون لهذه الرئاسة اقواهم عقلا واكثرهم دهاء وسياسة بلا تواطؤ أو تعمد (٢) . أما حين تمكن « قصي بن كلاب » من السيطرة على مكة ، جمع كل المناصب المهمة بين يديه ومنها رئاسة دار الندوة والسدانة والحجابة والرفادة والسقاية واللواء . وخلفه ابنه

---

(١) الكرمي ، نفس المصدر ، ص ٣٩ .

(٢) ج. زيدان ، تاريخ التمدن ، ج ١ ، ص ٣٦ .

عبد مناف فلما دنت وفاة عبد مناف اوصى بالسدانة الى ابنه هاشم وهكذا اصبحت السلطة في مكة وراثية . من هنا نفهم ابعاد قاعدة الكفاءة في الزواج حين طبقتها قريش . فالتجار الموسرون كانوا من قريش ومن بني هاشم بالتحديد ، وقد سبق ان اشرنا الى ان هاشم بن عبد مناف كان اول من ارتحل الى الشام بقصد التجارة . لقد جمعوا الثروة الى جانب كونهم من قريش ، فكانوا بذلك اصحاب حسب ونسب .. والزواج من بناتهم يفرض على الخاطب ان يكون مثلهم ، واستطاعوا عن هذا الطريق ابقاء السلطة المكية في عشيرتهم وتجميع الثروة فيها .

اذا ، انحصر الزواج الحضري ضمن دوائر اختيار مغلقة لا يمكن اختراقها الا لمن انتمى الى احداها . واخذ التجانس بين افراد الفئات يتعمق عن هذا السبيل . وبدا التفاوت يظهر على صعيد الفئات . فتكونت فئات متجانسة من حيث تركيبها الداخلي ، ولكنها مغايرة لفئات اخرى مغايرة كلية من حيث مضمونها . وساهم زواج ابناء رؤساء العشائر من بعضهم ومصاهرتهم على نشر هذا الواقع الجديد في كل الجزيرة العربية وعلى تعزيز ملامح التمايز الفئوي .

لقد ملأت اخبار زيجات الامراء والاغنياء متون الكتب ، لذلك سنحصر اهتمامنا هنا بالبحث عن اوضاع الحضريين العاديين الاسرية .

## اوضاع الاسرة الجاهلية الحضرية

لم تكن الاسرة الجاهلية الحضرية تختلف كثيرا بظاهرتها ومظاهرها ومضمونها وعلاقاتها عن الاسرة الجاهلية البدوية ، كما لم تنقطع علاقات الثانية بالاولى من حيث انها بقيت المعين الذي يمد الحواضر بالسكان . فتواصلت التقاليد البدوية واستمرت مظاهرها تطبع كل السلوك المتعلق بالزواج أو العلاقات الزوجية في الاسرة . غير ان ما لحق بالمجتمع الحضري من تطور كان لا بد له ان ينعكس ولو بصورة بسيطة وهامشية على الزواج والاسرة .

## استشارة الفتاة بأمر الخطبة

بعد ان كانت الفتاة البدوية تزف الى ابن عمها في السابعة او الثامنة من عمرها في كثير من الاحيان ، خوف العار ، ونشدانا مبكرا لتعزيز روابط العصبية التي تمكنها المصاهرة ، فان المراة الحضرية التي كانت تخطب من وليها كانت تستشار في الزواج المعروض ، ويؤخذ برايها في مسألة القبول او الرفض . لكن ما بين ايدينا من الحوادث والاخبار التي تروى عن نساء كثيرات توصلن الى رد رجال جاؤوا يخطبونهن ، كن معظمهن من النساء الشهيرات اللواتي كانت لهن حظوة في اوساطهن كالخنساء وهند بنت عتبة بن

ربيعة والزباء بنت علقمة بن حفص الطائي (١) ويستدل من ذلك ان الشريحة العليا في القبيلة هي التي أدخلت هذا التقليد على موضوع الزواج ، فكانت سباقة الى منح الفتاة رأيا بمسألة زواجها .

## المجالسة

وتساهل الحضريون في مجالسة الخطيب لخطيبته قبل الزواج وسمحوا لها بتجاذب أطراف الحديث (٢) واعتبروه حقا للخطيبين . لكن المخالطة قبل الخطوبة لم تكن مسموحة قط . بل على العكس كان التفريق بين الجنسين منتشرا ومعمولا به ومعززا بفرض الحجاب . ويظن ان سكنى المدينة فرضت على الجاهليات التحجب لان التقاء المرأة بالاغراب اصبح امرا محتملا وكثير الحدوث . فساكنو المدينة ليسوا جميعا من الاقرباء الذين يرعون صلة الارحام وحرمتها . وتبقى الطريقة الوحيدة لمنعهم من النظر هي اللجوء الى التحجب .

ومن نتيجة حياة المدينة وظهور الحرفيين والموسرين واستقرار الموارد المعيشية ، ارتفاع قدرة الرجال على الانفاق . مما أدى الى ازدياد نسبة تعدد الزوجات . ومال الحضريون الى اقتطاع حصتهم من الثروة عن طريق فرض مهور مرتفعة لقاء تزويج بناتهم . وهكذا استمر الزواج اداة اجتماعية لتوزيع الثروة والتبادل .

## صورة القرين المرغوب

وعرف عن الحضريين ميلهم الى تفضيل الشاب ذي المقدرة الاقتصادية والغنى . اما الذين كانوا غير قادرين على تحمل نفقات زوجات عديدات فقد لجأوا الى تدبير وضعه المجتمع تحت تصرفهم ، وهو الطلاق بالمخالعة عن طريق افتداء الزوجة نفسها بمبلغ من المال . وتمتعت بعض نساء الشريحة العليا في المدن باحترام ازواجهن ومعاملتهن معاملة حسنة والاخذ بآرائهن وذلك لعدة اسباب .

كن ينتسبن في الغالب الى قبائل جمعت الغنى الى جانب عراقة النسب فاضحى أمر احترامهن ملزما خاصة وان النساء كن يعتبرن جزءا لا يتجزأ من شرف قبيلتهن وعرضها . كما ان حق المرأة القاضي باحتفاظها باملاكها الخاصة ، او ما ترثه حتى بعد زواجها . جعل الزوجة الثرية في منزلة خاصة عند زواجها ، طمعا لا اقتناعا . وقد ترسخت علاقات الاحترام والتعاون بفعل العادة في تلك الاسر الحضرية الموسرة حتى اصبحت فيما بعد نموذجا يحتذى من قبل عامة العرب .

---

(١) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٩ ، ص ١١ . وج ٩ ، ص ١٤٢ ، وج ١١ ، ص ١٠٤ .

(٢) الهاشمي ، المرأة ، ص ١٦٦ .

وبدأ التصاق المراة الحضرية بمسكنها فكانت قلما تبرحه لان الـزوج هو الذي يؤمن الاحتياجات من الخارج بينما تقوم هي بالاعمـال البيتيـة وحدها .

## الشريحة العليا تدخل عادات جديدة على صعيد العلاقات الزوجية

وباختصار . وبعد ان انتقلت بعض الثروات الى نساء عن طريق الارث او العمل التجاري ، واستطعن الاحتفاظ بها حتى بعد زواجهن لان عقـد الزواج انما يتيح للزوج حق معاشرة الزوجة وانجاب الاولاد لا حق تملكها (١)، استغلت هذه الفئة من النساء ظروفها وفرضت على الزوج شروطا اقلهـا امتلاك حق طلاقها بيدها (٢) . واحيانا حق انتساب اولادهما اليها (٣) . وتعزز وضعها في كثير من الاحيان لانتمائها الى قبيلة مشهورة او قوية تحميها او تدافع عنها . حيث اضطر الزوج الى ان يعاملها معاملة حسنة والى الاخذ برأيها في شؤونهما المشتركة . وشكل مجمل هذا الوضع سابقـة ادخلتهـا النساء الشريفات على وضع الاسرة الحضرية ، ككيان ، فلم يطرأ عليها سوى تعديل طفيف لجهة السكن المنفرد لكن غير المستقل عن « اراضي » القبيلة . اما استقلاليتها فلم تتحقق . ولا خفت فيها مشاعر العصبية التي جعلـت حجم الاسرة بحجم القبيلة ، او بحجم المدينة مع ما يستتبع ذلـك من ولاء القبيلة مشدود الى الارض التي اقامت عليها . ولم تمنح تلك المشاعر للاسرة مباشرة وبصورة مستقلة ، او للرهط الذي ينتمي اليه الفرد . مع تقـدم عملية تجميع الثروة بيد الفخذ شهد ارتباط الفرد بالقبيلة عمليـة انحسار وتخلخل ، حتى بلغ هذا الارتباط حدود الفخذ نفسها . فالارتبـاط يشتد وينحصر ويضيق مع تقدم تلك العملية . وكلما بقيت الثروة خـارج التشكيلة القبلية التي ينتمي اليها كلما استمرت القبيلة ككل مستحوذة ولاءه وفخره .

---

(١) الجميلي ، تاريخ العرب ، ص ٢١١ .
(٢) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٦ ، ص ١٠٢ .
(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ .

## ٧ – طعام الاسرة ولباسها

أما طعام (١) الاسرة ، حضرية كانت ام بدوية ، فكان مقتصرا على الالبان وما يستخرج منها كالسمن والزبدة والجبن . وعلى التمر والحبوب واللحوم يأكلونها على ابسط ما يكون من احوالها ، فلا يتفننون في اعدادها او في تركيب اصناف جديدة . كل ما عرفوه في هذا المضمار كان الثريد وهو يصنع من اللحم واللبن والخبز بنسب معينة ، وصنعوها من اللبن والدقيق فقط وسموها غيرة او عصيدة او رهيدة . هذه الالوان كانت اطعمة المقتدرين والميسورين واصحاب الضيافة ، في حين عجز الفقراء عن اكل لحم الابل او الضأن فاقتاتوا بلحم الضب او الجراد ، وكانوا اذا جاعوا اكلوا الاعشاب او نحامة القرون والاظلاف والمناسب من برادتها . واذا عطشوا ولم يجدوا ماء ، شربوا مصل دم الابل (٢) .

وكان لباس (٣) الجاهليين بسيطا مثل طعامهم وسائر طرق معيشتهم . وهو عبارة عن القميص والحلة والازار والشملة والعباءة والعمامة . ولم يكن عامة العرب في جاهليتهم يعرفون السراويل ولا الاقبية . انما هي فارسية ، وكذلك النعال والخفاف كان يلبسها الخاصة وأهل الثراء فقط .

وكانوا يعلقون سيوفهم على عواتقهم ، وثيابهم على الاجمال ، قصيرة الى اسفل الركب كالبرودة (٤) او البياض (٥) او الحبرة (٦) . فكان يلبس

---

(١) مقتبس عن فصل المعيشة العائلية من كتاب تاريخ التمدن الاسلامي ، لزيدان ، ج٥ ، ص ٩١
(٢) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٨٣ .
(٣) مقتبس من نفس المصدر ، ص ٩٢ .
(٤) البرودة جمع بردة وهي شملة من الصوف الغليظ يلتف بها الانسان ويلتحفونها في الليل ولونها بني او رمادي .
(٥) البياض كساء أبيض خفيف من الكتان او القطن .
(٦) الحبرة بفتح الحاء وكسر الباء ، بردة حمراء .

العامة حلة حمراء وازارا ورداء . والازار قصير الى اسفل الركبة .

على ان الذين وفدوا الى الشام والعراق مــن اغنيــاء الجاهلية لتجارة او زيارة ، كانوا يقلدون اهلها بملابسهم المميزة .

# الفصل الثاني

## أثر الدعوة الاسلامية على مسيرة تطور الأسرة
## العربية كيانا ووضعا وتنظيما
## حتى أواسط العهد العباسي

## ١ – الظروف السائدة قبل الدعوة الاسلامية

احتوى الفصل الاول تفصيلا للاوضاع الاقتصادية والسياسية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي ، ولما افرزته هذه الاوضاع على الصعيد الاجتماعي ، من تنظيم لمختلف مظاهر حياة الجماعة كالزواج والقرابات والنسب والعشيرة والقبيلة والرهط وغيرها ، فكانت التجسيد المادي المعبر عن الظروف السائدة في ذلك الزمن . بيد ان تطورات داخلية استجدت فساهمت في القضاء على التوازنات والتشكيلات الاجتماعية القائمة وادت الى قيام اوضاع جديدة لتلبية تلك التطورات .

### من الناحية الدينية

فمن الناحية الدينية يلاحظ تنوع في الايمان والاعتقاد ينعكس في تعدد اشكال العبادات ، هناك الوثنية وهناك اتباع للديانات السماوية . وفي الوثنية ذاتها نجد مراحل ومستويات . لقد اجتمعت جنبا الى جنب ، عبادة الاجرام السماوية (١) التي قد تعود الى البابليين ، وتقديس الآباء الاولين الى حد عبادتهم ، والطوطمية وما تمثل من الاعتقاد بحلول الارواح المقدسة

---

(١) ألّه العرب الاجرام السماوية وعبدوها ، وقد ضاع خبر ذلك لعدم تدوينه ، ويستدل عليه من بعض ما وصل الينا من أسماء أصنامهم وعبادة بعض رجالهم . فاللات تعني الشمس وقد اشتهر كثيرون بعبادتها وعبادة الشمس والقمر .
وقد شخص العرب تلك الاجرام وأنزلوها منزلة البشر . ويستخلص ذلك من الاقاصيص الميثولوجية التي تناقلوها . أنظر :
– جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ٣ ، ص ١٨ .
– الميداني ، مجمع الامثال ، ج ٢ ، ص ٣١٣ ، بيروت ١٣١٢ هـ .

في الجمادات او الاشجار ، والاعتقاد بالجن والشياطين وعبادة الاصنام (١) مختلفة الاشكال والاحجام والتسميات .

ويلمس تطور لحق بالوضعية الوثنية لعرب الجاهلية . فبعد ان انفردت كل قبيلة بالهها الخاص ، اجتمع الجاهليون على تقديس الآلهة . وتلا ذلك تدرج عند بعض القبائل وصل الى حد الشعور بالله اعلى من الاوثان والاصنام المتعددة اطلقوا عليه اسم الله ، وتقديس بيته المشرف هو الكعبة . فصارت لها طقوس وشعائر خاصة وصلت ذروتها في الحج . اما الاصنام فجعلوا منها واسطة بينهم وبين الله . لقد كان التوحيد وجهة التطور الذي حصل على مستوى العبادات . اما ذروة التطور الديني التي عرفها العرب في الجاهلية ، فكان يجسدها الاحناف (٢) وقد ظهروا قبيل الدعوة الاسلامية مباشرة . وكلمة « حنفية » سامية ، وهي ذات تاريخ غامض . وقد استعملت قبل الاسلام ضد ( الوثنية ) كمفهوم وتشير الى الخروج على الشرك والاتجاه نحو التوحيد . وكانوا متحمسين (٣) لدينهم متقشفين في حياتهم ، يعبدون الله واحدا . وقد أوضح القرآن ان الحنفية هي التوحيد الاول ، وانها دين ابراهيم الذي جاء الاسلام ليبعثه (٤) .

وظهر اتجاه آخر لتطور الوثنية شاع في جنوب الجزيرة العربية حيث ذكروا « الله » ووصفوه « بالعلي » واطلقوا عليه « رحمانان ورحمن » . كان ذلك التطور مستقلا عن تأثير المسيحية واليهودية (٥) .

ونجد اليهودية والمسيحية الى جانب تلك الاتجاهات . وقد حملت اليها اليهودية بعد خراب بيت المقدس ولجوء اليهود اليها حيث ازداد عددهم بعد ان امعن الرومانيون في اضطهادهم . فأقاموا في يثرب ومكة والطائف الى جانب

---

(١) يذكر ابن هشام ان عمرو بن لحي عندما غلب ، وجدها في مكة وتولى من بعده سدانة الكعبة حمل اليها الاصنام ، فعمل على نقل هبل واساف ونائلة من البلقاء ، وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر من ساحل جده ، واختصت كل قبيلة من القبائل المشهورة يومئذ بواحد منها . فاصبح ود لقبيلة كلب ، وسواع لهمدان ، ويغوث لمذحج ، ويعوق لمراد ، ونسر لحمير . وكان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونصر على صورة نسر . ومن الاصنام ما هو على صورة الحيوان واكبرها هبل وكان على هيئة رجل ضخم ويسمى الصنم الاكبر .

(٢) اصحاب الحنيفية ، كما يذكر د. حسين مؤنس ، هم بقايا دين ابراهيم الخليل .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٦٢٠ — ٦٢١ . « كانوا لا يشتكون ولا يأتطون ، ولا يرتبطون عنزا ولا بقرة ، ولا يغزلون صوفا ولا وبرا ، ولا يدخلون بيتا من الشعر والمدر ، وانما يكتنون القباب الحمر في الاشهر الحرم » .

(٤) د. دوري . مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص ٣٤ .

(٥) دوري ، سبق ذكره ، ص ٣٣ .

العرب الجاهليين فاقتبس عنهم هؤلاء امورا كثيرة كانوا يجهلونها كالحج ، والذبائح والزواج والطلاق والكهانة والاحتفال بالاعياد ونحوها . وعلموهم بعض اقاصيص التوراة وفصولا من التلمود ، ونشروا بينهم كثيرا من تقاليدهم وعاداتهم (١) . اما المسيحية فكان اتباعها قليلين — في شبه الجزيرة العربية نفسها — ومهما يكن من امر ، فلقد ولد الاحتكاك والاتصال باتباع الديانات السماوية شعورا لدى الوثنيين هو اشبه بالثورة الفكرية على الوثنية . وليس ادل على حصول هذا التطور الديني في الجزيرة العربية من ظهور للانبياء الكذابين ، يدفعهم احساس كانوا يلمسونه حول امكانية توفر استعداد نسبي لدى بعض القبائل لتصديقهم . لقد كان هناك اذن ، ترقب وانتظار وتطور على الصعيد الاعتقادي الديني ، تعكس جميعها مأزقا يواجهه نفر من الجماعة يزداد باضطراد ، فيبحث له عن مخرج .

**المازق الاقتصادي**

اما مأزق الصعيد الاقتصادي الذي عاناه عرب الجاهلية قبيل الاسلام فكان نتيجة لعدة عوامل : أولها نشوء وتركز طبقة من الاثرياء المترفين في مكة ، الى جانب جماعات الفقراء الذين ارهقهم الربا وسحقهم الاستغلال وثانيها التهديد الجدي الذي حمله تطور الملاحة ووسائط النقل البحرية ، لنمط حياة القبائل المنتشرة في الصحراء والى مداخيلها . فقد تحول قسم هام من حركة التجارة التي كانت عماد الحياة الاقتصادية للجزيرة العربية ، من الطريق البري الصحراوي ، الذي يقطعها من الجنوب الى الشمال ، الى الطريق البحري فخسرت القبائل ما كانت تجنيه من جعالات او رسوم او حتى غنائم السلب ، وثالثها ، ان الثروة المتداولة بين القبائل سلبا ونهبا وغنيمة كانت تستهلك وتتناقص وبالمقابل كان الناس يتزايدون . تلك الاوضاع جعلت الجميع ، سكان مدن وحواضر وصحارى ، اثرياء وفقراء ، اسرى دائرة اقتصادية مغلقة لا يستطيع واحدهم اختراقها او حتى المحافظة على مستوى الحياة نفسه الذي اعتاد عليه . لذلك كله ، كانوا يتطلعون الى كيفية كسر الطوق الاقتصادي والانطلاق باندفاع اكبر .

**الفراغ السياسي**

وتكونت في منتصف القرن الخامس للميلاد مملكة قبلية في وسط الجزيرة نتيجة اجتماع عدة قبائل يمانية بزعامة رئيس واحد ، هي مملكة كندة (٢) . وكانت تلك المحاولة تعكس احساسا بالفراغ السياسي فيالجزيرة

---

(١) زيدان ، سبق ذكره ، ج١ ، ص ٣٢—٣٣ .

(٢) د. دوري ، سبق ذكره ، ص ٣٥ .

لا سيما ان دول الجنوب قد انهارت امام قوى البيزنطيين والاحباش والفرس ودول الشمال قد انحدرت متلاحقة او وضعت تحت الحماية نتيجة طموح وتنافس الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية (١) . ان تلك المحاولة قد فشلت ، وعاد الاحساس بالفراغ المذكور يشتد من جديد ويبحث عن سلطة يملؤه بها .

## التقارب الجديد بين القبائل

اما الاسواق التي عرفها العرب في الجاهلية فكانت عاملا مهما وايجابيا في حياة الجزيرة قبيل الاسلام . فالاحتكاك بين عناصر القبائل المختلفة قرب بين العادات وولد اتجاهات مشتركة جديدة . كما كان عاملا فعالا في تقريب المشاعر وخلق الشعور العام . كما قامت الاسواق ببث الثقافة والاراء وحملت على صهر اللهجات وتكوين لهجة منتقاة موحدة ، تجمع اجمل ما في اللهجات وامتنه .

وكان التوحيد بين اللهجات السائدة في القبائل ، وقد تم على صعيد اللغة ، بمثابة بداية لحركة توحيد بدات الجزيرة تشعر بجدواها وتنتظرها.

ان تضافر المآزق على المستوى الديني والاقتصادي والسياسي وحتى الاجتماعي ، جعل القبائل مهيأة نفسيا وماديا لتقبل صورة بديلة للحلول ، وجعلها تنتظر من يخرجها من تلك المآزق .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٦ .

## ٢ – مبادىء الدعوة الاسلامية والحلول البديلة

في هذه الظروف المؤاتية ظهرت الدعوة الاسلامية وانتشرت وفرض الاسلام سيادته . ولسنا ندعي انه ما ان جاء الرسول حتى رددت الجزيرة دعوته ، بل كافح كفاحا عظيما ، وبذل جهده وصبره حتى استطاع نشر الدين الجديد .

اما المبادىء التي قام عليها الاسلام فهي الايمان باله واحد لا تدركه الابصار ، خالق لهذا العالم ومحاسب كل نفس بما كسبت ، فعلى الانسان ان يعبد الله ، ولا يشرك به شيئا ، وان يسعى الى نجاة روحه من شرور الدنيا ، زاهدا في حطامها ، ناشدا الحق والعدل والخير والرحمة ، مبتعدا عن متاع الدنيا . كما نشر فكرة مسؤولية كل انسان ، بعد مفارقته هذه الحياة ، عما عملت يداه . وهذا الايمان من شأنه ان يستولي على الروح استيلاء تاما ، وهو لا يكتفي بأن يبعث في نفس الانسان الرضا بارادة الله ، بل هو يدفعه ايضا الى العمل بما يريده الخالق . تلك كانت الصيغة الايمانية والدينية التي قدمها الاسلام لحل مأزق التعددية العبادية والوثنية الجاهلية. انه التوحيد الايماني والعبادي .

### الحل الاسلامي لقضية الدولة

قلنا في الفصل السابق ان العرب الجاهليين لم يعرفوا الدولة من حيث هي نظام منفصل عن الجماعة ، مستقل عنها في وظيفته ، ومن حيث ان لهذا النظام سلطانا يجب ان يخضع له الناس ، لقد كانت « الدولة » عندهم هي الجماعة في جملتها ، ولم تكن هيئة لها نظامها الخاص (١) . ولا كانت لها ارض محددة . فلم يكن هناك دولة ، بل كانت هناك امة . ولم يكن هناك

(١) ي. فلهوزن، تاريخ الدولة العربية ، لجنة التاليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣ .

نظام من صنع الانسان ، بل كان هناك كيان طبيعي هو « القبيلة » على درجة معينة من التطور ، يرعى شؤونه رؤساء العشائر والبطون والقبائل . اما اللحمة التي كانت تؤلف بين افراد الامة فهي نفس اللحمة التي تربط بين افراد الاسرة ، اي لحمة الدم . وكانت وحدة الجماعة تقدم على لحمة الدم. وعلى تقديس هذه اللحمة ، دون حاجة الى قوة من الخارج تحمل الجماعة على التماسك . وبعد ان جاء الرسول ، جعل من العقيدة ، البوتقة التي تصهر كل معتنقيها وتتسع لتقبلهم جميعا دونما حاجز من عصبية او غيرها واحلها محل رابطة الدم .

## الكيان السياسي والقانون

وادخلت فكرة الدولة والقانون الى العرب عن طريق الدين لتحمي فكرة القبيلة والعرف . فالبدو لم يكونوا يعترفون بسلطة خارج تقاليد القبيلة . فالسلطة في الاسلام هي لله وحده . والنظم كانت تنسب الى الله ايضا . فظهرت بذلك فكرة الرئاسة . لكن السيادة التي تستتبع الرئاسة ينبغي الا تكون لقوة انسانية تفرض نفسها على الناس من الخارج ، بل تكون لسلطة فوق الانسان . تخولها الجماعة للحاكم ولا تعتبر قضية خاصة يتصرف بها صاحبها على النحو الذي يعود عليه بالنفع ، ولكن ، كوكيل يعرف ما يريده الله فينفذه . وكل سلطة مشروعة فباسمه ، ويجب ان تهدف الى اقامة العدل ورعاية الامة . فالسلطة واحدة لكنها ذات شقين : الاول يختص بالامور الدنيوية والثاني بالهداية الدينية . ولم يميز بين ناحية دينية وناحية سياسية بل جعلهما متلازمتين فالدين هو الذي يحفظ الوحدة في الامة . واساس الحكم الشورى التي ترك سبيل تطبيقها للامة . وعناصر الدولة ظهرت باسم الله ، وجعل من الشريعة القانون العام ، لانها بدورها نابعة من الله وهي القانون الالهي . وبهذا المعنى ليست الدولة مؤسسة سياسية بالمعنى المعروف ، تقوم على رقعة ارض معينة ، بل هي في الاساس هيئة اجتماعية قوامها الامة . والامة هي مجموعة الشعوب والاقوام والقبائل التي اتبعت رسالة الرسول وقامت بينها روابط العقيدة . فهي اذن كيان سياسي اجتماعي . وحيث تتوسع الامة تمتد ديارها (١) .

اخذ مضمون هذا المفهوم واقع حال القبائل العربية بعين الاعتبار ، وقدم لها حلا لمأزقها السياسي الذي تحدثنا عنه ، عن طريق طبيعة الكيان والسلطة التي فرضها عليها وجعلها مقبولة منها .

## معالجة الاسلام للناحية الاقتصادية

اما الناحية الاقتصادية فقد عالجها الاسلام من عدة جوانب .

---

(١) د. الدوري ، سبق ذكره ، ص ٣٨ .

اتجه الاسلام الى تخفيف التفاوت المادي والحد من التباين والاستغلال المتفشي بين الناس . فحرم الربا ، وهو الفائدة المركبة دون مقابل ، لقوله تعالى « احل الله البيع وحرم الربا » (١) و « اخذهم الربا وقد نهوا عنه واكلهم اموال الناس بالباطل » (٢) . وفرض الزكاة في مصلحة الفقير واكد على الانفاق والصدقة بقوله : « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم » (٣) على ان البحث المتعمق في التدابير المالية التي اتخذها الاسلام يقتضي النظر في كل ما يتعلق بأموال الدولة وكيفية التصرف بها على ضوء تعاليمه . وتشمل تلك الاموال الصدقة والاعتبار والاخماس والخراج والجزية وغير ذلك . فعنها ستنتج امور كثيرة وتترك انعكاسات واضحة وعميقة على التنظيم الاجتماعي للجماعة ، وبالتحديد على بنية الاسرة وعلاقاتها واطار حياتها . فما استحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم فهو من حقوق بيت المال . وكل حق وجب صرفه في مصالح المسلمين . وهي ثلاثة اقسام : الصدقة . الغنيمة والفيء . ولكل منها قواعد واحكام في كيفية تحصيلها ووجوه انفاقها .

**الصدقة**

الصدقة والزكاة مترادفان . وتؤخذ من اغنياء المسلمين وتوزع على فقرائهم . ويستقل والي كل بلد بالاستيلاء وتحصيل اموال الصدقة من اغنياء البلد وتفريقها على فقرائه . ومصادرها اربعة هي زكاة الماشية ، الذهب . الفضة ، الاثمار والزروع .

اما زكاة الماشية والاثمار والزروع فحسب العدد والنوع في الاولى ، وكمية الانتاج في الثانية . وعلى كل حال يميز عند تحصيل زكاة الاثمار والزروع اذا كانت مروية من سيل او بعمل الانسان ، في الحالة الاولى زكاتها عشر الانتاج بعد ان تبلغ حدا معينا . اما في الثانية فنصف العشر (٤).

اما زكاة الذهب والفضة وكافة الاموال المنقولة فهي معدل ( ٢ر٥ ٪ ) اي واحد من كل ( ٤٠ ) .

**الجهات التي تصرف فيها الصدقات والزكاة**

جاء في القرآن تفصيل واضح وصريح للجهات التي يجب ان تصرف فيها اموال الزكاة وهو قوله : « انما الصدقات للفقراء ، والمساكين ،

---

(١) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، آية ٢٧٥ .

(٢) القرآن الكريم ، سورة النساء ، آية ١٦١ .

(٣) القرآن الكريم ، سورة التوبة ، آية ١٠٣ .

(٤) انظر : القاضي ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم ، كتاب الخراج ( طبعة المطبعة السلفية ، القاهرة ) فصل في الصدقات ، ص ٧٦ وما بعدها .

والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله، وابن السبيل » (١) . بناء عليه ، تقسم أموال الزكاة الى ثمانية أسهم يدفع سهم منها الى الفقراء وهم الذين لا شيء لهم . والثاني للمساكين ، وهم الذين لهم ما لا يكفيهم ، وهم ارفق حالا من الفقراء . ونصيب كل واحد من هؤلاء يحدد بالنظر الى ما يكفيه بشرط الا يزيد عن ٢٠٠ درهم ، لانه اذا اخذ اكثر من ذلك وجبت عليه الزكاة .

والسهم الثالث يعطى للقائمين بجباية الزكاة وتحصيلها وتفريقها فيأخذون اجورهم .

والسهم الرابع يفرق للمؤلفة قلوبهم ، وهم الذين كان النبي وخلفاؤه يتألفونهم لكف اذاهم عن المسلمين ، لترغيبهم وقومهم وعشائرهم في الاسلام. واذا كان احد المؤلفة قلوبهم غير مسلم تدفع له حصة من مال الغنائم والفيء لا من مال الزكاة .

والسهم الخامس ينفق في شراء العبيد وعتقهم .

والسادس للغرمين وهم المدينون ، فيعطون ما يسدون به دينهم .

والسابع في سبيل الله ، اي لاهل الجهاد نفقة ما يحتاجون اليه في حروبهم .

والثامن لابناء السبيل ، وهم المسافرون الذين لا يجدون نفقة سفرهم. اما اذا زاد سهم على المخصص لهم ، رد الباقي على الاسهم الباقية .

### الغنيمة

الغنيمة هي ما يكسبه المسلمون بالقتال ويشمل اربعة اقسام : الاسرى وحصيلة السبي ، والارض والاموال .

فالاسرى هم المقاتلون الذين يقعون في الاسر ، وفديتهم مال يدفعه قومهم ليشتروا به حريتهم .

ويضاف المال المأخوذ على هذه الصورة الى باقي مال الغنيمة . ويجوز قتل الاسرى . اما السبي فحصيلة النساء والاطفال من القوم المهزومين والذين يقعون في ايدي المسلمين . فلا يجوز قتلهم بل قبول الفدية عنهم . والشائع انهم كانوا يفرقون في جملة الغنائم على المسلمين . في حين ان الارض التي تؤخذ في الحرب فهي اما ان تكون قد فتحت عنوة فتصبح ملكا للمسلمين على انها فيء . او ان تدخل في حكم المسلمين صلحا على شروط فتصبح من قبيل الفيء . وباختلاف احوالها تختلف انواع الضرائب عليها كالخراج او العشور .

---

(١) القرآن الكريم ، سورة التوبة آية ٦٠ .

أما الأموال التي تعد من باب الغنائم . فمنها ما يمكن نقله كالماشية والمال فهي تفرق على المقاتلين وقد جاء الامر بالتخميس في الآية « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (١) . فاربعة اخماس توزع على المقاتلة والخمس الباقي كان يقسمه الرسول الى خمسة اسهم : السهم الاول ينفقه على نفسه وازواجه والثاني يفرق على ذوي القربى وهم بنو هاشم رهط النبي ، وبنو عبد المطلب ابن عبد مناف خاصة ، ولا يحق لاحد سواهم من قريش والثالث والرابع والخامس حسب الوجوه المذكورة .

### الفيء

هو سائر ما بقي من اموال بيت المال . وهو كل مال وصل من المشركين عفوا من غير قتال . ويدخل فيه الجزية والخراج والاعشار وغيرها . وكان للنبي خمس الفيء يقسم كما يقسم خمس من الغنائم . وبعد موته اصبحت حصته من حق بيت المال . وكانت الاخماس الاربعة الباقية توزع في صدر الاسلام على الجند . وهم عموم المهاجرين والانصار ، يوزع فيهم على السواء دون تمييز أو تخصيص . وبعد ان وضع عمر بن الخطاب الديوان وسجل فيه الجند ، صار الفيء يوضع في بيت المال وينفق منه على الجيش .

اهل الصدقات اذن هم غير أهل الفيء والغنيمة . ولا يمكن صرف الصدقات في أهل الغنيمة والعكس بالعكس . فأهل الفيء هم أهل الحرب والمجاهدون والمهاجرون في سبيل الاسلام . وكانت القبائل تدعى بررة اذا اسلمت وهاجرت بأسرها ، أو تدعى خيرة اذا هاجر بعضها .

### الجزية

الجزية والخراج متشابهان من حيث انهما يؤخذان من غير المسلمين . وهما من جملة أموال الفيء ويجبيان بأوقات معينة كل سنة . ولكنهما يختلفان بأن الجزية موضوعة على الاشخاص وتسقط عند اسلامهم ، اما الخراج فيوضع على الارض ولا يسقط .

والجزية قديمة العهد . والظاهر ان العرب أخذوها عن الفرس لفظا ومعنى وهؤلاء عن اليونان ، وقد استثني المسلمون من دفع الجزية لانها كانت تجبى لقاء الحماية ، وهؤلاء هم الذين يؤمنونها لاعتبارهم من الجند . أما مقدار الجزية فكان يحدد بحسب الاحوال وعلى مقتضى التراضي الذي يتفق عليه بين المسلمين واعدائهم . لما كثرت الفتوحات ايام عمر عين مقدارها ، فكتب الى امراء الجند يأمرهم بأن يضربوا الجزية على كل من جرت عليه

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الانفال ، آية ٤١ .

الموسي . وان يجعلوها على اهل الفضة مقدار اربعين درهما على كل رجل ، واربعة دنانير على الرجل من اهل الذهب . وعليهم أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت . ثم تعدلت لتحسب على اساس درجات الناس ومقدرتهم ، أو حسب أوامر الخليفة ووضع بيت المال .

## الخــــراج

الخراج هو ما يوضع مــن ضرائب على الارض أو عــلى محصولاتهــا . وهو أقدم أنواع الضرائب والاصل في وضعه الاعتقاد الذي كـان سائـدا بأن الارض ملك للسلطان أو الملك والاهالي انما يتمتعون بريعها . فللملك أو مــن يمثله حصة من ذلك الريع هي الخراج . فلما فتــح المسلمون الشــام ومصر والعراق وغيرها ، أبقوا الدواوين على ما كانت عليــه وراقبوا فقــط اعمالهــا وجباياتها . وفي عهد بني أمية نقلوا الدواوين الى العربية وسلموها الى رجال من المسلمين . وكان ذلك سنة ( ٨١ هـ ) على أيام عبد الملــك بن مروان ، أمــا ديوان الحجاز فكان في المدينة على ما وضعه عمر بن الخطاب ، وهو أشبه مــا يكون بسجل للجند والجبايات ، فيه دون اسماء الصحابة وعــن اعطياتهــم وطبقاتهم ، وضبط ما يرد على المدينة من بقايا الخراج والجزية ، بعــد دفــع نفقات الجند حيث يعسكرون ، فكان ديوان المدينة في صدر الاسلام بمثابــة ديوان مركزي للدولة .

أما تقدير الخراج ، فلقد ذكرنا ان العرب اقروا ما كان سائدا من أحواله ومقاديره على أيام الروم والفرس في البلاد التي فتحوها . غير انهم عدلوا ذلك فيما بعد ، حسب ما اقتضت الاحوال في سائر البلاد . والغالب ان خــراج الارض هو العشر ، ويصل احيانا الى نصف الغلة وقد لا يقل عن خمسها (١) . أما حكم الارض في الاسلام فهو انها أربعة اقسام :

١ — ارض أحياها المسلمون ، فهي ارض عشر ، للامام عشرها . وتعــد من قبيل احياء الموات .
٢ — أرض اسلم أهلها عليها ، فهم احق بها ، وهي ايضا ارض عشر .
٣ — ارض ملكها المسلمون عنوة فهي غنيمة لهم ، تعد ارضا عشرا .
٤ — ارض صولح أهلها عليها ، وهي المختصة بالخراج ، والخــراج لا يبطل ولو أسلم اهلها .

## ملكيــة الارض

كانت نظريا في أول الاسلام ملكا للامام . والناس قوامون عليها بمــا فيه صالحها وصالحهم والانتفاع بهم من حقهم . وقــد استقرت أوضــاع الاراضي

---

(١) زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ١ ، ص ٢٣٢ .

في صدر الاسلام بحسب ظروف كل منها . فمنها أراض كانت ملكا لاصحابها يتصرفون فيها كيف يشاؤون كاراضي العرب واراضي الصلح . امـا أراضي العنوة فقد كانت ملكا للامام فعلا ، يزرعها من عليها ويؤدون عليها الخراج . ثم أخذ الخلفاء يقطعون الناس من أراضي العنوة حتى نفـدت ، واصبحـت الارض كلها ملكا للناس يتبايعونها ويتوارثونها ، لان الاسلام لا يحـرم الملكيـة العقارية . وظل الامر على ذلك حتى جاء خلفاء بني عثمان فاستعادوا ملكيـة رقاب الارض ، ولم يبق للناس الا حق الارتفاق . ودرج الخلفـاء على اعطـاء الاراضي للملتزمين ، أي الذين يلتزمون باداء مال الدولة عنهـا ، ولهـم ان يتصرفوا بهذه الاراضي كيف شاؤوا ، مما أضاع معنى ملكية الارض .

فالاقطاع كان اذن على كيفية معينة عند الخلفاء المسلمين . ويؤخذ مما كتبه ابو يوسف ، ان الارض التي تقع في ايدي المسلمين وليس لها مـن يطالب بها ، حيث كان الخلفاء الراشدون يجيزون اقطاعها لمن شاؤوا ، على ان يؤدى عشر مالها لبيت المال أو اكثر أو أقل ، على ما يرى الخليفـة ، وهـذا العشر هو الذي يشكل الفيء الذي يصرف لمصلحة المسلمين كافة .

واقطع بنو أمية . ثم بنو العباس من بعدهم الارض لبعـض خواصهـم واهلهم ، وكانوا لا يأخذون عنها خراجا، في أكثر الاحيان . حتى اذا ما خرجت السلطة من ايدي الخلفاء وصارت بايدي السلاجقة ، جعلوا الاقطاع عاما على يد نظام الملك ، فاقطعوها للامراء والجند . ثم تعدل الاقطاع بعد ذلك وتبدل . فصارت بعض الاراضي اقطاعا وبعضها مبيعا وبعضها موقوفا .

## اثر الجهاد على المأزق الاقتصادي

حين فرض الاسلام الجهاد على المسلمين ، وهو القتال في سبيل الله ، لنشر الدين ، كان ، بطريقة غير مباشرة ، يعالج عـدة مسائل في آن معـا . فمن جهة تجب تصفية الاحقاد التي نمت على المدينة والتي أورثتهـا حروب الردة واخضاع شبه الجزيرة العربية بالقوة . ومـن جهـة أخرى هنـاك اثر الحياة القبلية وعصبيتها ، والغزو الذي يعتبر جانبـا أساسيا مـن الحيـاة البدوية ، وكان الاسلام اوقفه في الجزيرة . حيث لا بد من معالجته . كمـا ان قضية موارد الجزيرة التي أصبحت أقل من حاجة سكانها ، كانت تضغـط في سبيل ايجاد مورد عيش جديد . فبات تنظيم روح التوثب الدينيـة التي اثارها الاسلام وتوجيه الغزو الى جهاد خارج الجزيرة ، الحل الامثل لكافـة القضايا المثارة . وقد عرف الخلفاء الراشدون ، بدءا من ابي بكـر الصديق كيف يستعملون الجهاد المفروض على المسلمين فها هـو أبو بكـر في كلمتـه الافتتاحية يعلن : « لا يدع احد منكم الجهاد في سبيل الله ، فانـه لا يدعـه قوم الا ضربهم الله بالذل » . وقد عدت حملة أسامـة التي جهزهـا الرسول ليرسلها الى جهة الشام أكبر دليل على رغبته في التوسع خـارج الجزيـرة . وللتدليل على علاقة الجهـاد بالعـامل الاقتصادي ، وعـلى وعي المسؤولين

المسلمين الاوائل لاهمية هذا العامل في تحريك الجهاد نورد ما ذكره الطبري في كتابه (١) بعد معركة ذات السلاسل « قام خالد خطيبا في الناس يرغبهم في بلاد العجم ويزهدهم في بلاد العرب وقال : الا ترون الى الطعام كرفغ التراب ؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء عز وجل ، ولم يكن الا المعاش لكان الرأي ان نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولي الجوع والاقلال من تولاه ممن أثاقل عما أنتم عليه » .

ويروى انه جرى بين المغيرة بن شعبة ، رسول سعد بن أبي وقاص ، ورستم قائد الفرس ، الحديث التالي : سأل رستم « انبئوني ما جاء بكم من بلادكم فانا لا نرى لكم عددا ولا عدة » . فقال المغيرة : « كنا قوما في شقاء وضلالة فبعث الله فينا نبيا فهدانا الله به ، ورزقنا على يديه . فكان فيما رزقنا حبة زعموا انها تنبت في هذه الارض ، فلما أكلنا منها وأطعمنا أهلينا قالوا لا صبر لنا حتى تنزلوا هذه البلاد فنأكل الحبة » (٢) .

ويذكر ان الاقباط استهانوا برثاثة العرب بعد فتح حصن بابليون سنة ( ٦٤١ م ) ، فدعا عمرو جماعة من كبارهم الى وليمة فنحر جزورا ووضع لهم المرق بالماء والملح وجعل ذلك امامهم وقد جلس القبط الى جانب العرب . فجعل العرب ينهشون اللحم نهشا حتى استبشع القبط ذلك وعادوا دون ان يأكلوا . وفي اليوم التالي أمر عمرو أن يؤتى بالوان الطعام في مصر وعمل وليمة عظيمة وجاء الاقباط فجلسوا الى الطعام وأصابوا منه . فلما فرغوا قال عمرو للقبط : « قد علمت أنكم ترون في أنفسكم امرا تريدون به الخروج ، فخشيت ان تهلكوا فاريتكم كيف كان العرب في بلادهم وطعامهم من لحم الجزور ، ثم حالهم بعد ذلك في ارضكم ، وقد رأوا ما فيها من ألوان الطعام الذي رأيتم . فهل تظنون انهم يسلمون هذا البلد ويعودون الى ما كانوا فيه ؟ انهم يسلمون قبل ذلك حياتهم ويقاتلونكم أشد القتال » (٣) .

سقنا هذه الامثلة لنبين الخلفية الاقتصادية التي حركت الجهاد ... ومدى أهمية الحل الذي قدمه ، هذا الاخير ، للمأزق الاقتصادي المعيشي الذي كان يتحكم بالعرب .

## الاسلام والفرد

تناول الاسلام حياة الفرد ، ضائعا في بحر القبيلة ، يذوب فيها ويخضع لسياساتها ومصالحها . ووجد في ذلك الواقع اذا استمر ، تعديا على سلطته وسيادته وتناقضا مع ما ينادي به ، من وحدة الامة ووحدة مصالحها . فاذا استمر الولاء للقبيلة ، فمعنى ذلك الاشراك بالولاء المفترض لله ولرسوله .

---

(١) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج ٤ ، ص ٩ .

(٢) القاضي ابو يوسف ، الخراج ، بولاق ، ص ١٦ .

(٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٢٤٢ عن : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص ٤٥ .

وبقي التفتت مسيطرا على الامة . كان التكوين القبلي يفرض على اعضائه مواقف نفسية وعاطفية معينة والتزامات معينة ايضا . فنتيجة للجو القبلي الذي ينشأ فيه الفرد ، يفرض التمييز الصارم بين الاقرباء والغرباء . فينشطر الفرد القبلي نحو توجهين مختلفين : أحدهما يحوي الارتباطات والالتزامات والعواطف تجاه الاقرباء ، والاخر ما يلزم اتخاذه تجاه الغرباء . ويتميز السلوك مع الاقارب بالتعاون والتعاطف واحترام ذواتهم وملكياتهم . بينما لا تتوافر هذه الالتزامات في العلاقات مع الاخرين .

كان هذا الوضع يحول دون تكوين الامة التي يرتبط افرادها بعلاقات يسودها النظام والقانون بدرجة متساوية وتكون المحبة والتعاون عنوانها .

تصدى الرسول لهذه القضية ، ونجح الى أبعد حد ، في ايجاد نظام جديد ، يوائم بين واقع التنظيم الاجتماعي لمجتمع القبائل السائد في الجزيرة العربية من جهة ، وبين الطموح السياسي وهدى المبادىء الدينية والمثل السامية التي ينادي بها من جهة اخرى .

وحرر الاسلام المؤمن من علاقة التبعية التي كانت تربطه بالقبيلة ، وجعله على علاقة مباشرة بالله ، له الخضوع والولاء اذ لا شريك له . فسقطت بالنتيجة ، الزامية السلوك القبلي . وأخذت علاقة المسلم الجديدة تتجه نحو حلقة أضيق في التشكيلة الاجتماعية المعروفة ــ القبيلة ــ عنيت العشيرة أو الاسرة . ففرضت عليه التزامات مادية ومعنوية لصالحها وقوت من روابطه بها على حساب التزاماته وارتباطاته بالقبيلة كتجمع . هذا التركيز على الحلقة الضيقة جعل المسلم أكثر شعورا واحساسا بشخصه من جهة ، وبعشيرته المباشرة من جهة اخرى ، واضحت باقي الحلقات ، حتى ولو انتمت الى قبيلة أو الى قبائل اخرى ، متشابهة ، بالنسبة اليه ، من حيث نظرته وعلاقته بها .

## ٣ – مثال التنظيم الاسلامي للاسرة

لقد كان الاسلام معنيا بخلق مجتمع جديد على أسس تنظيم جديد . بمعنى ان ركائز هذا المجتمع واساساته يجب ان تحل محل الركائز والاساسات القديمة بعد تقويضها . واذا كان المجتمع الجاهلي قائما على العصبية القبلية ، وعلى الولاءات للقبيلة فانه يصبح من الضرورة ضربها . كي يتسنى للدين الجديد ان يستقطب ولاء المؤمنين به . لذلك عمد الرسول الى خلق الظروف المؤاتية ووضع القواعد . وأتى بالتشريعات اللازمة ، والتوجيه الكافي لاحداث تغييرات بنيوية في القبيلة . بحيث يضعف شأنها وتاثيرها على الافراد ، فتقوى توجيهات الدين ووجوده في نفوسهم . وأدرك أن تعزيز الاسرة كتشكيل اجتماعي قاعدي مغمور في القبيلة . وعلى حسابها . يؤدي الى الغاية المنشودة. فروابط الدم كانت من القوة بحيث ان كل نظام الحياة كان مبنيا على أساسها ، من القبيلة . الى العصبية . الى الولاء . . لم يحاول الاسلام ان يضرب هذه الروابط بل عمل على توظيفها وفقا لمصلحة المجتمع الجديد الذي ينادي به . فضرب الولاء للقبيلة وأحل محلها موضوعين للولاء الجديد المطلوب . ولاء للاسلام نفسه . وولاء للاسرة المكونة من الاقارب الأدنين . تحقق الاول بفضل تحول العرب عن أديانهم وعباداتهم القديمة . وأخذ الثاني يشتد ويتعزز بفضل الانظمة الجديدة التي وضعها الاسلام لايجاد اسرة متحيزة في موضع ثابت ، وصاحبة املاك ثابتة . وسنثبت في بحثنا لاحقا . ما هي الاهمية التي كانت لهذا التدبير على صعيد تركيز الاسرة بل على صعيد بلورة كينونتها .

وجه الاسلام الاهتمام الى الاب والام وجعل منهما المركز أو القطب في تشكيلته المختارة . كما جعل جماعة الاولاد يلتفون حول هذه النواة على أساس تبادل الطاعة والمودة . وأحاط الجميع بالاقارب الادنين وبث في النفوس التنفير والتثبيط عن التمسك الشديد بالقبيلة أو العشيرة . وكان الولاء للقبيلة يسمى برا .

ولما جاء الاسلام عكس معنى البر الذي كان في الجاهلية وجعله يعني

مسؤولية الانسان الفردية تجاه أسرته القريبة . وفي القرآن الكريم آية بهـذا المعنى وهي « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البـر من آمن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبـه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب » (١) . هذه الآية تحدد قواعد جديدة للسلوك يتوجب على المسلم التقيـد بها حسب ضميره ، ليس تبعا لقواعد القبيلة او أعرافها .

ولتمتين هذا الاتجاه وتعزيزه وتحويل الولاء الى الوالدين بـدلا مـن ان يكون للجد القبلي ، حض الاسلام على طاعة الوالدين ، وندد باتباع ما كـان عليه الآباء الاولون من عبادات ومعتقدات . وامـر المسلمين بمحبـة الوالدين والاحسان اليهم والرفق بهم : « ووصينا الانسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله في عامين ان أشكـر لي ولوالديك الي المصـير » (٢) . واوضح من ذلك قوله تعالى : « وقضى ربك الا تعبـدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فـلا تقـل لهما أف ، ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة . وقـل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » (٣) . وتعليقا على هذه الآية يقـول محمـد علي اللاهوري في ترجمة القرآن الكريم « طاعـة الوالدين واردة تـلو عبـادة الله ، لانه لا يوجد بين افراد الجماعة الواحدة تكليف هو اكثر وجوبـا عـلى المرء من واجبه نحو والديه » . وللتدليل على الطبيعة المميزة للعلاقة ضمـن هذه التشكيلة الاجتماعية ، فقد اوجب الاسلام انتساب الابناء بالتسمية الـى آبائهم ، عوضا عن النسبة الى القبيلة فكان يقال : « اخـو تميـم أو اخـو قريش » ، وذلك لقوله : « أدعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله » (٤) .

والرسول الكريم لم يكن أقل تشديدا في حضـه على طاعـة الوالدين ومحبتهما فهو يقول : « ان الله يوصيكم بأمهاتكم ، ثـم يوصيكم بالاقـرب فالاقرب » . وندد بعبارات شديدة بالذين يخرجون عـن طاعـة الوالدين ، فيكتسبون بذلك اثم عقوق الوالدين وهو اثم شديد . ولـه حديث مشهور في التوصية خيرا بالامهات وهو قوله : « الجنة تحت اقدام الامهات » .

وحاول الاسلام خلق ترابط وثيق بين أفراد الاسرة بتشجيعه على اقامة الصلات الحسنة فيما بينهم ، وسماها صلة الرحم ، يفهم ذلك من نص الآيـة الكريمة التالية : « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل اللـه والذين آووا ونصروا هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين آمنـوا مـن بعد وهاجروا وجاهدوا معكم ، فأولئك منكم ، وأولوا الارحام بعضهم اولى

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٧٧ .

(٢) سورة لقمان ، آية ١٤ .

(٣) سورة الاسراء ، آية ٢٤ .

(٤) سورة الاحزاب ، آية ٥ في الاصل جاءت هذه الآية لتحريم التبني ، ولكن يمكننا ان نستنتج منها ما يفيد ضرورة انتساب الابناء الى آبائهم حتى بالتسمية .

ببعض في كتاب الله » (١) . ويقول النبي في هذا الموضوع : « أسرع الخير ثوابا الى البر صلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم » .

وتجمع الآيات القرآنية والاحاديث النبوية على وجوب تمتين علائق القرابة بين أفراد الاسرة الواحدة مع التناصر والتعاطف ، ففي التعاليم الاسلامية نجد ان المحبة والطاعة والواجب تتجه جميعا نحو وسط الاسرة ، فتصلب وحدتها . واصبحت رعاية العلاقات بين افراد الاسرة الواحدة وتقويتها واجبا دينيا فوق ما هو واجب اجتماعي .

ولا شك ان هذا النسيج الاسلامي من العلاقات التي أوجدها الاسلام بين أفراد الاسرة هو عامل محدد في ابراز كيان ذاتي واضح للاسرة .

**التدابير العملية الاسلامية الضابطة لتطوير الاسرة :**
**الركن الاول للاسرة ، تحديد الحقوق والواجبات**

لم يكتف الاسلام بدعوة المسلم لتكوين أسرته على الوجه الذي شرحناه ، ولا بحضه على اقامة علاقات مميزة مع أقربائه والارحام ، ولا بترغيبه بذلك مرضاة لله ولرسوله ، ولا بترهيبه من غضبه وسوء العاقبة اذا لم يحترم التعليمات الدينية بهذا الخصوص ، بل اتخذ من التدابير ما من شأنه ان يرغم المسلم على احترام التوجيهات المذكورة ، وسن من التشريعات والقواعد ما يكفي ليوطد العلاقة بين ذوي الارحام ، وحدد حجم الاسرة بمعطيات مادية لا يستطيع الفرد تجاوزها ، تلك التدابير هي الحقوق التي منحها لافراد الاسرة تجاه بعضهم ، والواجبات التي رتبها ، بالمقابل ، بعضهم في سبيل بعض اخر .

اولها : الحقوق والواجبات الزوجية (٢) ، أي التي تقوم بين الزوجين : نظمها باحكام تتناول مختلف مراحل الزواج من خطبة الى عقد زواج الى طلاق الى تعدد زوجات الى علاقات زوجية .

ثانيها : الحقوق والواجبات المتبادلة بين الابناء والآباء (٣) .
فحقوق الآباء على الابناء بر الوالدين وطاعتهما . اما واجبات الآباء نحو الابناء فلا تقتصر على الإلزام الخلقي بوجوب الرعاية والعطف والشفقة بل تشمل احكاما الزامية قضائية تحمل في طياتها وجوب النفقة والميراث وحق النسب .

ثالثها : الحقوق والواجبات المتبادلة فيما بين ذوي الارحام والاقرباء (٤) .
اوجب الاسلام التوارث بين ذوي الارحام في بعض الحالات مثلا بين ابناء العم حين يكونون اقرب من العصبة وليس من وارثين من اصحاب الفروض تستغرق حصتهم التركة كلها (٥) .

---

(١) سورة الانفال ، آية ٧٤-٧٥ .

(٢) محمد المبارك ، في تقديم كتاب نظام الاسرة وحل مشكلاتها ، ص ١١ .

(٣) (٤) (٥) سيرد لاحقا شرح موجز لهذه الحقوق والواجبات على ضوء الاسلام .

كما الزم أبناء العم بواجب دفع الفدية عن ابن عمهم اذا لم يكن ميسورا . فالغرم بالغنم .

## الركن الثاني : التملك والثبات

وأوجد الاسلام للاسرة قاعدة اخرى . لكنها هذه المرة قاعدة مادية ، لكي تكون مكتملة التركيب قوية الاسس راسخة البنيان . هذه القاعدة المادية هي الاستقرار والسكن في موضع ثابت معين . فالركن الثاني للاسرة التي نظمها الاسلام هو تملك المال . او العقار او الخيرات وتوارثها بين افراد الاسرة الواحدة . وكان ذلك بمثابة ظرف مساعد لايجاد كيانها المستقل وتدعيم مادي لهذا الكيان .

ان الاسلام قد حض بصورة غير مباشرة على الاستقرار والسكن في مكان ثابت حين وضع قوانين تضبط التصرف بالأموال والاملاك بالميراث او غيره ، وتضمن حق التملك للفرد . فقد كان لهذه التنظيمات اثرها البالغ في تثبيت أركان الاسرة وعلى ابرازها وحدة أجتماعية مستقلة (١) . وأصبح التملك الثابت والتناصر والتعاطف بين افراد الاسرة اساسا للمجتمع الجديد الذي اراد الاسلام بناءه . وعلى هذا يصح ان يقال ان العهد الاول من الاسلام افرز وحدة اجتماعية ــ هي الاسرة ــ ليست مبتدعة ابتداعا بكاملها، لكن لها صفاتها الخاصة .

روي عن سعد بن أبي وقاص انه قال : « عادني رسول الله في حجة الوداع من وجع اشفيت منه على الموت . فقلت : يا رسول الله ، بلغني ما ترى من الوجع وانا ذو مال لا يرثني الا ابنة لي واحدة . افأتصدق بثلثي مالي . قال : لا . قلت : افأتصدق بشطره ( اي نصفه ) ؟ قال : لا ، الثلث ، والثلث كثير . انك ان تزر ورثتك اغنياء خير من ان تزرهم عالة يتكففون الناس » . وننقل التعليق التالي على هذه الحادثة عن دراسة للاستاذ الكرمي (٢) . هذه القصة تبين لنا مبلغ الاهتمام الذي كان الرسول يوليه لقضية الملك والمال والحرص الذي يحض على وجوب الاحتفاظ بهما في الاسرة تقوية لافرادها وتوثيقا لعرى الترابط بينها . وفي القصة اشارة الى نقطة شرعية اخرى وهي ان الاسلام لم يسمح للشخص بالتصرف بأكثر من ثلث امواله يوصي بها لغير وارث شرعي بعد وفاته . اما الباقي فللورثة ملكا لهم . ويجب ان نتذكر ان الاسلام جعل الميراث في نطاق الاسرة وحدها لا يتعداها (٣) . ويفضل الاسلام في هذا النطاق ، ان تكون حصص الميراث بحسب شدة القرابة من المتوفى . اي بحسب الاقرب فالاقرب . ولذلك ،

---

(١) سنبرهن على ذلك في الفصول اللاحقة .

(٢) حسن سعيد الكرمي ، سبق ذكره ، ص ٧٦ وما بعدها .

(٣) سنبحث في أثر هذه التدابير على تطور الاسرة بنائيا ووظائفيا في فصل لاحق .

لما كــان الاولاد امتدادا لشخصية الوالد ، كانوا اقرب الوارثين اليه . وهكذا بنسبة هذا الامتداد تكون القرابة . ويكون توزيع الميراث على العموم .

قلنا ان القواعد والتشريعات التي أتى بها الاسلام هي التـــي أفرزت « الاسرة الاسلامية » الطابع . وتحـــدد بانهـــا الاصول القنمانية والشرعية التي حددت مضمون ووجهة الحقوق والواجبات المنصوص عنها بين افـــراد الاسرة الواحدة .

وسنتناول كل قضية ، نشرح فيهـــا بايجاز ، نظرة الاسلام ومفهومـــه بصـددها . فالتطورات التي عرفتها الاسرة العربية على مر التاريخ ، لا يمكن فهمها الا على ضوء المفهوم الاسلامي لمختلف وجوه ونشاطات وعلاقات عناصر الاسرة .

## المفهوم الاسلامي للزواج : دوافعه

الباعث على الزواج ، كما يحدده الاسلام ، هـــو تمكين المسلم من اقامة علاقات جنسية في اطار شرعي سليم . فالآية « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا ، لتسكنوا اليهـــا وجعـــل بينكـــم مودة » (١) باستعمالها عبارة لتسكنوا اليها ، تشير بوضوح الى الغايـــة الماديـــة المنشودة . وقد استتبعت بالتعبير عــــن المشاعر التي تفرزها العملية الجنسية غالبا وهـــي المودة والرحمة . ولسنا فيما نذهب اليـــه مـــن المغالين . فالقرآن الكريم لا يورد كلمة الزواج مرة واحدة بـــل يستعمل للتعبير عـــن هذا المعنى كلمتين بديلتين : النكاح والاستمتاع . ولا يخفى أن هاتين الكلمتين تعبران بوضـــوح اشد عـــن العمل الجنسي المادي نفسه او عن نتيجته . ان هذا الواقع القرآني يدعم ما نذهب اليـــه مـــن ان ممارسة الجنس هي البـــاعث الاول للـــزواج ، خاصة وان كل علاقة جنسية تتـــم خارجا عـــن اطاره ، ينظر اليهـــا الاسلام على انها علاقة غير شرعية ، علاقة زنا ، ويعاقب عليهـــا عقابا شديدا (٢) . وان كل مـــا ينتج عن علاقة كهذه لا يعترف بـــه لا شرعيا ولا اجتماعيا ، ولا يترتب له ايـــة حقوق . والباعث الثاني تظهره آية اخرى هي « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهـــا رجالا كثيرا ونساء » (٣) وهذا يعني الانجاب . ويتحدث عنـــه النبي فيقـــول : « تناكحوا وتكاثروا ، فاني مباه بكم الامم يوم القيامه » و« تزوجوا الودود الولود ، فاني مكاثر بكم الامم » (٤) . فامـــداد المجتمع بعناصر استمراره ، بنسل صالح قوي ، يعتبر الدافع الثاني .

---

(١) سورة الروم ، آية ٢١ .

(٢) الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ، سورة النور ، آية ٢ .

(٣) سورة النساء ، آية ١ .

(٤) الترغيب والترهيب ، ج٢ ، ص ٧ .

امـــا الدافع الثالث فهو ايجاد حياة مشتركة مستقرة بيـــن الزوجين ، وحثهما على تبادل المحبة والمودة والرحمة والتعاون . كما امرهمـــا بالمعاشرة الطيبة . فقال تعالى مخاطبا الازواج : « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيـــه خيرا كثيرا » (١) . في هـــذه الآيـــة توصية جازمة بالصبر على المعاشرة بالمعروف حتى مع الكراهية ، فقد يكره الانسان امرا يجعل الله فيه الخير العميم .

وحين يطلع المرء عـــلى عناصر المفهوم الاسلامي للزواج ، يظن للوهلة الاولى انه مفهوم مادي الطابع فالاسلام اقـــر بالدافع الجنسي ونظمه وأحاطه بعناية شديدة ، الى درجة يظن معها المطالع غـــير المتعمق ، بان الجنس هو غاية الزواج . ولكن حين يعود الى الظروف الاجتماعية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية ، قبيـــل الدعوة الاسلامية . لا سيما تلـــك المتعلقـــة بالزواج ، يدرك ان الاسلام ادخل تغـــيرا كبيرا ، وتعديلا مهما عـــلى دوافع الزواج وغاياته . فالمجتمع الجاهلي لم يكن يضع ضوابط ولا حدودا للنشاط الجنسي للفرد . فعدد الزوجات المسموح به غير محدود ، والطـــلاق العوبـــة بيد الرجل ، كما ان انواع الزيجات التي كانت معروفة هي ، بمجملها خـــير دليل على تفلت ذلك المجتمع .

لقد ادرك الرسول ان محاربة التقاليد والقواعد الحياتية الجاهليـــة وضربها بقسوة ، ضربـــة قاضية وبصورة فجائية لا يمكن ان يؤدي الى الغائها بل قد يحصل العكس فتتعمق وتتكرس . لذلـــك عمـــد الى محاربتها مـــن الداخل ، عن طريق ادخال افكار وعادات جديدة لتعـــدل او تغير او تنقض الافكار والصور السائدة . فلا يضرب مـــا هو متعارف عليه دفعة واحدة ولا يترك على حاله . بل يحصل التغيير كنتيجة لصراع العناصر المكونة للمضمون نفسه . على ضوء هذه القاعدة عالج الاسلام مفهوم الزواج . فأقـــر بان الجنس يشكل دافعا مهما له ، ولكنه أضاف اليه فكرتين فـــي الوقت نفسه . الاولى ، ان الانجاب ، في اطار الزواج ، يجب ان يكون هدف الجنس وليس تحصيل اللذة لذاتها . والثانية ، ان الغاية البعيدة للزواج يجـــب ان تكـــون تأمين الاستقرار والسعادة والمحبة . وهذه كلها قيم جديدة تشكل الباعـــث الاسلامي للزواج .

ورغـــم ان الاسلام اراد ان تكون لـــه مفاهيمه ، وتعاليمه ، وتدابيره الخاصة ، الا انه راعى عند وضعها وتطبيقها ، مـــا كان سائدا ومـــا كانـــت تقتضيه ظروف العصر . فأتت بحق ، دينامية ، متطورة ، حية .

فلئن اوجدت المفاهيم لمعالجة وحـــل بعض المشاكل وتسهيل دراستها ، فهي في ذلك ابنة للظروف التي اقتضت وضعها على هذه الصورة او تلك . لكن بعد ان قضى بعض رجال الدين بالاخذ بالنظرة الاسلامية كمـــا انتهت

---

(١) سورة النساء ، آية ١٩ .

اليه ، منذ عصور على يد السلف ، بحجة الاخلاص للدين والوفاء لتعاليمه . تكرست جمودية المفاهيم والنظرة الاسلامية لكثير من القضايا .

فكم نحن بحاجة اليوم ، الى اعادة قراءة لاعادة النظر بالمواقف والنظرات الاسلامية لبعض الظاهرات الحياتية والاجتماعية . على ضوء الظروف التاريخية التي اوجدتها ، منتهين الى استنباط المبادىء العامة التي تحكمها . وعلى هذا الاساس تصبح هذه المبادىء محكا يحتكم اليه . لطواعيتها للتطور ، فلا تبقى السابقة التاريخية نموذجا يوجب النسج على منواله ، وتحوير الواقع ليتوافق معها ، بل يجب ان تدرس القضايا ضمن واقعها وظروفها غير المحورة . على ضوء المبادىء العامة . فينفتح المجال امام التطور ونتائجه لتصبح جزءا من الواقع الجديد غير المستنكر . فلا يستمر التصدي للتطور وتحجيمه ضمن حدود مسموح بها . بل يطلق مجاله ويضبط بوسائل متقدمة تتوافق مع روح العصر وجوهر الدين .

**طبيعتـــه**

ويحدد عبد الرحمن الصابوني (١) الزواج بانـه « عقد بين رجل وامراة تحل له شرعا ، غايته انشاء رابطة للحياة المشتركة والنسل . ويجعل لكل من الزوجين حقوقا وواجبات مقابلة » .

والزواج في الاسلام عقد رضائي لا اكراه فيه ، وهو مدني لا يخضع لطقوس واجراءات دينية من قبل رجال الدين ، بل يتم بأي مكان وامام افراد او جماعات على ان يستوفي شروط صحته من ايجاب وقبول .

الزواج اذن عقد رضائي مدني ، ليس له اية صفة من القداسة او المظهر الديني . وباعتباره عقدا يجب ان ينعقد على اساس من الارادة الحرة والرضا التام لكل من الزوجين الراشدين . الا ان الشارع جعل لولي الفتاة حق فسخ الزواج (٢) اذا كان له عليه اعتراض . واذا اختلف الولي مع الفتاة رفع الامر للقاضي (٣) . ومع ذلك يجب ان تستأذن الفتاة في امر زواجها . لكن هذه الاستشارة تأخذ في الممارسة طابع الشكليات لانها قيدت بحديث نبوي آخر : « ايما امراة انكحت نفسها بغير اذن وليها فنكاحها باطل » . فرغم رشدها ، تبقى الكلمة الفصل في موضوع زواجها وعقده للولي .

وهناك محرمات تطال بعض النساء فلا يحل الزواج بهن . وقد يكون هذا التحريم مؤبدا بسبب القرابة او المصاهرة او الرضاع او مؤقتا كالمعتدة .

وقد اشترط الفقهاء الكفاءة في الزواج وهي المساواة في شروط

---

**(١) د. صابوني ، نظام الاسرة وحل مشكلاتها في ضوء الاسلام ، دار الفكر ، ص ٦٤ .**

**(٢) د. صابوني ، سبق ذكره ، ص ٤٢ ، وهو راي فقهاء المذهب الحنفي .**

**(٣) نفس المصدر ، ص ٤٢ .**

اجتماعية لتساعد على التقارب والاستقرار بين الزوجين ، واوجبوا كفاءة الرجل للمراة . وقد توسعوا في تعداد عناصر الكفاءة كالمال والنسب والحرفة، ومنهم من اقتصر على التدين . وذهب آخرون الى عدم اشتراط الكفاءة وقالوا ان المسلمين جميعا اكفاء للمسلمات لقوله تعالى : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

وعناصر الكفاءة هي في نهاية التحليل ، شروط اجتماعية فهي تخضع للتغيير والتبديل حسب العرف المتبع في كل عصر وبلد . ونشير الى ان الكفاءة تبقى سلاحا بيد الولي ان شاء طلب فسخ العقد من القاضي بسبب عدم الكفاءة وان شاء رضي فالعقد صحيح (١) .

**الحقوق والواجبات المترتبة عنه**

اما الحقوق والواجبات التي تترتب على الزواج فعديدة .

يترتب على الزوج ان يسمي مهرا للزوجة . فقد قال تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » (٢) . وهو عبارة عن مبلغ من المال أو عقار أو أي سلعة اخرى ، يكون من حق الزوجة ، يسلم الزوج قسما منه او جميعه للزوجة قبل الدخول وهو ما يسمى المهر المعجل ، أو يؤخره لاحد الأجلين : الطلاق او الوفاة ويسمى حينئذ المهر المؤجل . وبالمقابل فان المراة تلتزم بان تسلم نفسها لزوجها ، فيصبح حلالها وهي حل له . كما جاء في القرآن : « نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم » (٣) . فالاستمتاع بالمراة حق للرجل شريطة ان يكون قد ادى ما التزم به كمهر . وتستطيع الزوجة التي لم يصلها المهر ان تمتنع عن زوجها ، ولا تدعه يطأها دون ان يرى القاضي في ذلك نشوزا ، ان هذا الامر هو الذي يجعلنا نرى ان حق المراة يقتضي المهر ويقابله واجبها بامتاع الرجل ، كما ان حق الرجل بالاستمتاع بزوجته يقابله واجبه بدفع مهرها .

كما ان الزواج يلزم الرجل بنفقة زوجته لقوله تعالى : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس الا وسعها » (٤) « ولينفق نفسا الا وسعها » (٥) والنفقة انواع تضم المأكل والمسكن والملبس .

وبالمقابل فان الزوجة تلتزم باطاعة زوجها ، اي تقبل بسلطته عليها وذلك لقوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم

---

(١) نفس المصدر ، ص ٧١ .
(٢) سورة النساء ، آية ٤ .
(٣) سورة البقرة ، آية ٢٢٣ .
(٤) سورة البقرة ، آية ٢٣٣ .
(٥) سورة الطلاق ، آية ٦٥ .

على بعض وبما أنفقوا من اموالهم » (١) . فشرط النفقة الاساسي هو عدم النشوز والنشوز عدم الاطاعة . فاذا خرجت المراة على طاعة زوجها سقط عنه واجب تأمين نفقتها . فللرجل على زوجته حق الاحتباس ، اي البقاء في المنزل فلا تغادره الا باذنه . واذا غادرته اعتبرت خارجة عن طاعة الزوج وعن النظام العام للاسرة ولا تلزم لها النفقة .

قوام الاسرة في الاسلام سلطة ومسؤولية . وقد منحهما للرجل مبررا ذلك بطبيعة عمله . فهو المسؤول عن تأمين حياة الاسرة وعليه يقع عبء التبعات المالية . ولانه يرى ان « للرجال عليهن درجة » (٢) أو « وليس الذكر كالانثى » (٣) .

اذا فبموجب عقد للزواج يتم رضا متبادل بان تسلم المراة جسدها لزوجها مقابل المهر ، وارادتها مقابل النفقة . فالواجبات المطلوبة من الزوج هي واجبات مادية . بينما تلزم الزوجة بواجبات معنوية ، شخصية الى جانب الواجبات المادية الاخرى .

وباعتباره الزواج عقدا ، اوجب الاسلام الاشهاد عند الزواج فقال عليه السلام : « لا نكاح الا بشهود » . كما ندب اشهاده لانه احتفال ببناء اسرة جديدة . كما اعترف وصان حرية الاشتراط فيه . وبصورة عامة فان آثار عقد الزواج في الشريعة الاسلامية هي من عمل الشارع ولكن للعاقد ان يشترط على الا يخالف مقتضى العقد والقاعدة في ذلك : « المؤمنون عند شروطهم الا شرطا احل حراما وحرم حلالا » . واعتبر الرسول : « ان حق الشروط ان توفوا به ما استحللتم به الفروج » (٤) فللزوجة مثلا ان تشترط حيازتها على العصمة وهي امكانية حل الزواج بالطلاق . او ان يكون طلاقها بيدها اذا تزوج زوجها من غيرها ..

وتبقى الاشارة الى امكانية تعدد الزوجات . فالاسلام كان واضحا بالنسبة لسماحه للزوج بالتزوج من اكثر من واحدة بنفس الوقت . فقد جاء في القرآن « وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم ذلك أدنى الا تعولوا » (٥) .

وقد لخص د. صابوني (٦) مجمل هذه الحقوق المتبادلة والواجبات كما يلي :

---

(١) سورة النساء ، آية ٣٤ .
(٢) سورة البقرة ، آية ٢٢٨ .
(٣) سورة آل عمران ، آية ٣٦ .
(٤) مصطفى الزرقاء ، المدخل الفقهي ، ج١ ، ص ٥٢٨ .
(٥) سورة النساء ، آية ٣ .
(٦) سبق ذكره ، ص ٥١ .

حقوق المرأة على زوجها هي : المهر ، النفقة الزوجية الكاملة من طعام وكسوة وتمريض واسكان . العدل والمعاملة بالمعروف وعدم الاضرار بها . كما ان للزوجة الحرية الكاملة في التصرف بأموالها دون رقابة زوجها اذ لا ولاية للزوج على مال زوجته . كما انها تحتفظ باسمها واسم عائلتها .

اما حقوق الزوج على زوجته فهي حقوق غير مالية لان الزوج هو المكلف الوحيد بالانفاق والاعالة وحقوقه على زوجته ، تتعلق بحسن المعاملة والاشراف على تربية الاطفال ورعايتهم ، والقيام باعمال البيت . والطاعة : الزوجة مكلفة بطاعة زوجها فيما امرها الله به ان تطيعه فيه . والتأديب : حق النصح وتوجيه الارشاد الى زوجته لانها ام اولاده ، يتأثرون بسلوكها . فغاية الزوج من هذا هو تقويم اعوجاج زوجته ان انحرفت عن النظم والقواعد التي وضعها الشارع للاسرة المسلمة . تبعا لقوله تعالى : « واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن . واهجروهن في المضاجع واضربوهن ، فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » (١) .

كما تثبت حقوق مشتركة لكل من الزوجين بموجب عقد الزواج وهي :

حق المتعة الزوجية وحسن المعاشرة . حرمة المصاهرة ، والتوارث بين الزوجين اذا توفى احدهما .

## المفهوم الاسلامي لانحلال الزواج

على ضوء المفهوم الاسلامي للزواج ، لنبحث في موضوع حل رابطة الزوجية كما وضعته الشريعة . راينا ان الزوج قد شرع لاغراض معينة ومقاصد . فاذا حدث ان حال دون تحقيقها سبب ما ، حيل بين الزواج وبين هدفه من الرغبة بالتناسل والتوالد . لذلك اجاز الاسلام الطلاق لكنه نظمه وقيده . وجعله على اربعة انواع :

### انواعه

١ ــ الطلاق بالارادة المنفردة . سواء كانت ارادة الزوج او ارادة الزوجة التي فوض اليها الزوج امر طلاقها بيدها . او اشترطت ان تكون عصمتها بيدها في عقد الزواج .

٢ ــ حل الزوجية بالاتفاق المتبادل . او ما يسمى بالمخالعة والابراء وبموجبه يخلع الرجل زوجته من ذمته وعصمة نكاحه مقابل ان تبرئه الزوجة من كامل حقوقها او من بعضها التي لها بذمة الزوج . فقد تعيد له المهر او بعضه مقابل موافقته على انهاء الزوجية بينهما .

---

(١) سورة النساء ، آية ٣٤ .

٣ – التفريق بحكم القاضي وبعد تدخله . وغالبا ما يكون هذا التفريق بعد ان يتثبت من حال الشقاق والنزاع واستفحاله . بحيث يصبح استمرار الزواج امرا مستحيلا ، او لحصول الضرر لاحدهما بسبب من مرض الآخر مرضا لا شفاء منه او لغيابه المستمر .
٤ – بطلان الزواج بحكم الشرع وهو التفريق التلقائي بحكم الشرع كما لو ظهر رضاع أو تحريم بين الزوجين أو ارتد أحدهما عن الاسلام .

## حيازة حق الطلاق وحدوده

الطلاق اصلا بيد الزوج لقوله تعالى : « واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف » (١) ولكن هذا الحق ليس مطلقا ، بل مقيدا ببعض التدابير الشكلية وببعض الحدود لا يمكن للزوج تجاوزها . وهذه القيود هي قيود اللفظ الصريح (٢) والقصد الواضح والعدد (٣) والاشهاد (٤) والوقت المناسب (٥) .

وعندما يلفظ الزوج الطلاق يصبح ملزما بدفع كامل حقوق الزوجة من مهر ونفقة ، ولا يكون ملزما بتبرير طلاقه بل باثبات ايقاعه فقط . اما في حالة التفريق بواسطة القاضي فيجب ان يبرر المستدعي طلبه ويقدم البراهين والحجج التي تظهر حال الشقاق بينه وبين زوجته . فاذا لم يستطع القاضي اصلاح ذات البين عمد الى تحويلهما الى الحكمين لدرس القضية . وعلى ضوء تقريرهما يحدد القاضي مسؤولية كل من الزوجين في تفاقم النزاع وبالتالي يحكم بالتفريق محملا كل زوج واجبا تجب تأديته للفريق الآخر متناسبا مع نسبة مسؤوليته .

## انواعه

والطلاق اما بائن او رجعي . البائن يفسخ الزواج بصورة مباشرة ولا عودة عنه اطلاقا ، في الحالات التالية : اذا تم قبل الدخول ، اذا كان نتيجة للخلع والابراء ، اذا كان ثالث طلاق رجعي ، انقلب الى طلاق بائن .

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٣١ .

(٢) لا يقع الطلاق الا بلفظ أنت طالق ، وهو ما اذن الشارع باستعماله ، جواهر الكلام ، ج ٥ ، ص ٢٨٣ .

(٣) الطلاق مرتان ، فامساك بمعروف او تسريح باحسان ، سورة البقرة ، آية ٢٢٩ .

(٤) فاذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف واشهدوا ذوي عدل منكم واقيموا الشهادة لله .

(٥) « فطلقوهن لعدتهن » ان الطلاق يجب ان يكون في طهر لا جماع فيه لانه الوقت الذي تبدأ فيه المطلقة عدتها ، ومن طلق في الحيض فقد خالف ما شرع الله له .

أما اذا حصل الدخول بعد عقد الزواج ، فالطلاق لا يمكن ان يكون الا رجعيا، يمكنه العودة عنه ومعاودة الحياة الزوجية ، قبل انقضاء فترة ثلاثة قروء هي عدة الزوجة . دون ان يكون بحاجة الى عقد ومهر جديدين . فاذا انقضت دون ان يعود الزوج عن الطلاق اصبح طلاقه بائنا ، لا يصح معه العودة الا بعقد ومهر جديدين .

وضع الاسلام للحقوق والواجبات المتبادلة بين الابناء والاباء ، احكاما قضائية تحمل في طياتها حق النسب والميراث والزامية النفقة .

## حق النسب

ان اهم حق للاولاد على ابيهم هو ثبوت نسبهم منه . ويثبت النسب بعدة طرق : الزواج . والاقرار والبينة . ففي الزواج ثبوت للنسب اذا ولد في الفترة المحددة . والاقرار تصحيح لوضع سابق لا من زنا ، بل ربما كان من زواج قد كتم عن الآخرين ، ثم اراد الاعتراف بولده بعد نكرانه . ولا يجوز في الاسلام ان ينسب ولد لغير ابيه ، وهذا يعد بمثابة قطع للطريق على التبني حفاظا على مصالح الاسرة ، وحدودها وبنيتها . اما البينة فهي الشهادة العدل من جانب امرأة مسلمة او طبيب بنسب ولد . ويعتبر النسب بالبينة أقوى من النسب بالاقرار (١) .

اما **النفقة** فقد اوجبها الشارع على الابوين وجعلها على انواع منها الرضاع (٢) والحصانة ، ويراد بالحضانة تربية الصغير والاهتمام بجميع شؤونه ممن له الحق في ذلك . وقد راعى الشارع ما هو الاصلح والانفع في رعاية مصالحه ، فجعل امر العناية به في المرحلة الاولى من طفولته الى الام لانها ارفق واشفق الناس وارحمهم به . الا ان المولود له هو الذي يقدم المال اللازم للقيام بكل ذلك . وعلى كل حال فللأب حق الولاية على اولاده في النفس وفي المال ما داموا دون سن البلوغ والرشد . والولاية على النفس تتعلق بولاية التزويج والتربية والرعاية . والولاية على المال تختص بالشؤون الحالية حيث يشرف الاب على اموال اولاده الصغار يديرها بما فيه مصلحتهم .

---

(١) لمزيد من التفصيل والمقارنات انظر كتاب « نظام الاسرة وحل مشكلاتها في ضوء الاسلام » للدكتور عبد الرحمن الصابوني — والاحوال الشخصية ، محمد ابو زهرة . دار الفكر العربي ١٩٥٧ .

(٢) ستقتصر دراستنا لقضايا الارث على عرض للراجح من مذهب أبي حنيفة لان معظم الشعوب الاسلامية استقرت على الاخذ منه ، ولضيق المجال في هذه الدراسة لتناول الاختلافات الواسعة المتعلقة بهذه القضايا الموجودة بين المذاهب والطوائف الاسلامية كافة ، فاقتضى التنويه .

## الميراث (١)

نجد مشروعية الميراث ومقاديره في الآيات القرآنية التالية :

قال تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو أكثر نصيبا مفروضا » (١)

« يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين . فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف ، ولابويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد . فان لم يكن لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم ، من بعد وصية توصون بها او دين ، وان كان رجل يورث كلالة او امرأة وله اخ او اخت ، فلكل واحد منهما السدس : فان كانوا اكثر من ذلك ، فهم شركاء في الثلث ، من بعد وصية يوصي بها او دين غير مضار ، وصية من الله ، والله عليه حكيم » .

« يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ، ان امرؤ هلك ليس له ولد ، وله اخت فلها نصف ما ترك . وهو يرثها ان لم يكن لها ولد . فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك . وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين . يبين الله لكم ان تضلوا والله بكل شيء عليم » .

« والذين آمنوا من بعد ، وهاجروا معكم فاولئك منكم ، واولو الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله ، ان الله بكل شيء عليم » .

اوجز الصابوني (٢) **المبادىء العامة لنظام الميراث** التي يمكن استخلاصها من الآيات الواردة اعلاه بما يلي :

١ ـ لم يطلق الاسلام الحرية للرجل ليتصرف بماله كيف شاء . بل سمح له بالتصرف ضمن حدود ثلث امواله من بعد وصية لغير وارث واما الباقي فهو ملك واجب للورثة .

٢ ـ ان الميراث اجباري في الاسلام بالنسبة الى الوارث والموروث ، فلا يملك الموروث ان يمنع احد ورثته من الميراث . فالوارث يملك نصيبه جبرا من غير اختيار منه ولا حكم قاض . واذا كان الميراث اجباريا فليس معنى ذلك ان الوارث يتحمل ديون الموروث ، فالدين مضمون في حدود التركة فقط .

٣ ـ والقرآن جعل الميراث في دائرة الاسرة لا يتعداها ، فلا بد من نسب صحيح او زوجية صحيحة ، وفي دائرة الاسرة يفضل الاسلام السهام الاقرب ، فالاقرب الى المتوفى . فالاولاد اقرب الى الميت من والده ، لان امتداد شخصيته بوجودهم اكثر من امتدادها بوجود الاب . وهكذا بالنسبة الى باقي درجات القرابة .

---

(١) « والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة . وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس الا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده . وعلى الوارث مثل ذلك » .

(٢) د. عبد الرحمن الصابوني ، سبق ذكره ، ص ٢١٩ وما بعدها .

٤ ـ تفرد الاسلام بتنظيم وتحديد دقيقين للسهام المقدرة والثابتة اي الفروض وهي الربع والثمن والسدس والنصف .

٥ ـ ان توزيع الارث بالسهام المقدرة يؤدي الى تفتيت الثروة وتوزيعها وفي ذلك تقليص لتأثير الملكية الكبيرة والثروة مهما كانت واسعة وكبيرة .

٦ ـ جعل القرآن للولد الصغير نصيبا من ميراث ابيه يساوي نصيب الكبير فلا يفرق الاسلام بين الحمل في بطن الام وبين الولد الكبير في العائلة الكبيرة ولا يميز الاسلام بين البكر وغيره من الاولاد .

٧ ـ اعطى للمراة نصيبا من الميراث . فالام والزوجة والبنت وبنت الابن والاخت وامثالهن لهن نصيب معين من مال الميت .

٨ ـ اعتبر الصلة الزوجية كصلة القرابة يترتب عليها نصيب للزوجة من الميراث .

٩ ـ جعل القرآن استمرار الاسرة ، خاصة عن طريق الذكور ، اساس التفاضل في الميراث .

١٠ ـ حدد نصيب البنت بنصف نصيب الولد الذكر . وهذا الموقف ناتج عن موقف الاسلام من المراة وعن صورتها فيه والدور الذي يدعوها للعبه . فقد جعل نفقتها دائما على عاتق الرجل ، ابا وزوجا واخا ، فوجد ان لا حاجة بها الى المال بعد ذلك .

والاستحقاق (١) في الميراث درجات لان الورثة ليسوا على درجة واحدة من حيث استحقاقهم الارث . لهذا يقدم بعضهم على بعض حسب الترتيب التالي :

١ ـ اصحاب الفروض : وهم الاشخاص الذين لهم سهام مقررة وثابتة في القرآن او السنة او الاجماع وهم اربعة رجال وثماني نساء . اما الرجال فهم : الزوج ، الاب ، الجد ، الاخ لام . والنساء : فهن الزوجة ، الام ، الجدة ، البنت ، بنت الابن ، الاخت الشقيقة ، الاخت لاب ، الاخت لام . وفروضهم المقدرة تتراوح بين ١ـ٨ ، ١ـ٦ ، ١ـ٤ ، ١ـ٣ ، ١ـ٢ ، ٢ـ٣ .

٢ ـ العصبات النسبية : وهم اقرباء الميت من الذكور ، من غير ذوي الفروض ، الذين لا يدلون في قرابتهم للميت بأنثى . وهم على ثلاثة مستويات :

ا ـ جهة البنوة : وهم فروع الوارث الذكور : كالابن ، لابن الابن .
ب ـ جهة الابوة : وهم الاصل الوارث كالاب والجد .
ج ـ جهة الاخوة وهم فروع ابي الميت : الاخوة وابناؤهم .
د ـ جهة العمومة وهم فروع جد الميت : الاعمام وابناؤهم .

والعصبات يؤخر نصيبهم عن اصحاب الفروض . وعلى هذا يأخذ اصحاب الفرائض اسهمهم المقدرة فان بقي شيء من التركة فلاقرب رجل

(١) على ضوء المذهب الحنفي .

من الميت من العصبات . هذا اذا لم يكن صاحب الفرض محجوبا باحد العصبات .

فأصحاب الفروض المقدمون على العصبات هم غير المحجوبين بهم ، كالفرع المذكر فانه يحجب جميع الاخوة والاخوات .

والحجب هو منع شخص معين قام به سبب من اسباب الارث من كل الارث او من بعضه لوجود شخص آخر .

٣ ـ ذوو الارحام وهم اقارب الميت الذين ليسوا ذوي فروض ولا عصبة . ويكونون الاقارب الاناث ، كالخالة والعمة ، او الذكور الذين تتوسط بينهم وبين الميت انثى ، كابن البنت واب الام .

٤ ـ بالنسبة للوصية فهي تتنفذ بحدوث ثلث التركة (١) قبل توزيع الميراث وبعد وفاء الديون . اما اذا زادت الوصية على الثلث فانها لا تنفذ الا باجازة الورثة . وذلك تطبيقا لقوله تعالى : للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون و « ليخشى الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم . فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا » .

## قواعد التوريث

١ ـ لا يرث احد افراد فئة متاخرة ما دام هناك افراد من الفئة التي تسبقها . فلا يرث الآباء مع وجود الابناء التعصيب ، ولا الاخوة مع وجود الآباء .

٢ ـ وعليه ، يكون الترتيب في توزيع التركة ما يلي ايفاء الديون ، تنفيذ الوصية ، توريث فئة العصبات ثم افراد فئة ذوي الفروض ممن لم يحجبهم عاصب ، ثم ذوو الارحام ثم الرد على ذوي الفروض والزوجين ، واذا لم يتوفر اي من هذه الحالات يرد المال لبيت مال المسلمين اي الخزينة العامة لانفاقه في مصالحهم العامة .

٣ ـ اذا اتحدت جهة القرابة وكان العاصبون من فئة واحدة كالابناء او الآباء ، فلا يرث الادنى مع وجود الاقرب ، ولا يرث الجد مع وجود الاب .

٤ ـ اذا اتحدت جهة القرابة ودرجتها ، ولكن اختلفت في القوة ، قدم الاقوى قرابة على غيره . فمن كان قريبا لابوين ، قدم على من كان قريبا لاب واحد . كالاخ الشقيق فانه يقدم على الاخ لاب لقوة قرابته .

٥ ـ اذا اتحدت الجهة والدرجة والقوة ، وكانوا في التعصيب سواء ،

---

**(١) حدد الرسول مقدار الوصية فقال : « الثلث ، والثلث كثير . انك ان تترك ورثتك اغنياء ، خير من ان تدعهم عالة يتكففون الناس » والوصية لا تجوز لوارث الا اذا اجازها بقية الورثة .**

استحقوا جميعا الميراث بالتساوي .

٦ ــ كل انثى من ذوات الفروض وجدت مع ذكر درجتها ، فانها تصبح عاصبة به بدورها ، كالبنت مع الابن ، والاخت الشقيقة مع الاخ الشقيق . وهذا يسمى العصبة بالغير . وهي لا تكون الا لمن فرضهن النصف والثلثان . فالانثى التي لا فرض لها ، لا تكون عصبة مع اخيها ، فلا ترث العمة مع العم ، ولا بنت العم مع ابن العم لانهن لسن من ذوي الفروض .

ترسم هذه المبادىء حدود الاسرة بوضوح . فالذكور عمادها . ويظهر الالحاح الاسلامي على ان تضم الاسر ذكورا حين يعتبر ان الفرع الانثوي ، ولو كثر وتعدد ، لا يحجب الاخوة والاخوات . في حين يعتبر الفرع الذكر ، ولو كان فردا واحدا ، عاصبا يحجب الاقرباء . وهذا ما يفسر استمرار تفضيل ولادة الذكور على الاناث ، خاصة اذا كان الابوان ثريين . فهو يحفظ ملكية الاسرة من التوزيع في غير فروع الابوين . فبالذكور تتوسع الاسرة او تضيق ، افقيا بوجود الاخوة وعموديا بوجود الاعمام وابنائهم . والميراث هو الخيط المادي الذي يربط واحدهم بالآخر ، ويشعرهم بضرورة حفظ التواصل والتزاور ولو شكليا ، كما ان قاعدة تقديم الاقرب على الادنى ، ووجود فئات العاصبين ، منع الاسرة من ان تصبح قبيلة جديدة ، فضفاضة. ويسجل في كل حال ، من خلال كيفية توزع حصص الارث ، ميل واضح وقوي لتعزيزها بالذكور مهما كانت درجة تسلسلهم فيها .

## ملاحظات على التنظيم الاسلامي للاسرة

تلك كانت العناصر التي انتقاها الاسلام واصطفاها وكون منها الاسرة التي تجسد مفاهيمه المختلفة ، فحدد مجالها ، ورسم علاقاتها ، ووضع حدودها وضمن حمايتها والحفاظ عليها وفقا لما نصت عليه الآيات القرآنية والاحاديث النبوية . وتجدر الاشارة في هذا المجال ان التنظيم الاسلامي للاسرة كان تنظيما تقدميا بمعنى انه كرس العادات والاعراف التي عرفت في الجاهلية والتي كان لها الطابع الايجابي ، المتطور والمتقدم ، كقواعد مبدئية والزامية للعلاقات في اطار الاسرة ، مضيفا اليها ما رآه مناسبا .

- فقد كرس طبيعة العلاقة التي كانت سائدة بين الرجل والمراة حيث كانت علاقة غير متكافئة . ويظهر ذلك من ان الاسلام جعل الرجل قيما على المراة في كل ادوار حياتها ، بنتا وشابة وزوجة واما . والزمها بطاعته . فقد قال الرسول ان حسن تبعل المراة لزوجها وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقته يعدل كل ما فرض على الرجال . فجلي ان مكانتها مكانة التابع للمتبوع (١) . ولكنه اوصى بالمراة خيرا ، وابلغ تعبير عن تلك المعادلة غير المتوازية بين الجنسين

---

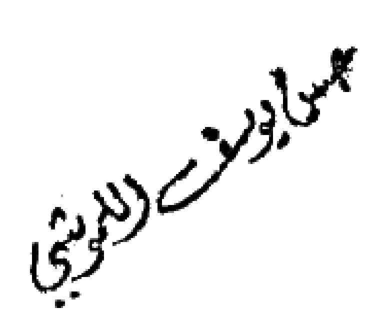
(١) محمد جميل بيهم « المراة في حضارة العرب » .

وهو ما جاء في الآية : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف . وللرجال عليهن درجة » .

- لحظ الاسلام حق المرأة بطلب الطلاق . بعد ان كانت غالبا ما تعاني من ظلم زوجها . ولجوئه في معظم الاحيان الى قمعها . ولكنه الزمها باثبات حالة النزاع والشقاق بينها وبين زوجها .
- كرس الاسلام المخالعة والابراء . وكان ذلك معروفا على نطاق واسع في الجاهلية . ولكنه ادخل عليه تعديلا مهما . حين منع المسلمين من تجاوز المهر المدفوع عند المخالعة . وقد كان سائدا أن يلجأ الزوج الى طلاق زوجته شريطة ان تفتدي نفسها بمال . غالبا ما كان اكثر بكثير من المهر الذي قدمه اليها .
- اقر الاسلام الطلاق . الذي كان معروفا في الجاهلية ؛ ولكنه قيده بقيود زمانية واجرائية فازال عن المرأة حيفا . وخفف من امكانية التلاعب بمصيرها الزوجي حيث وحين يريد الرجل .
- عرف في الجاهلية من أورث النساء . لكنه أمر لم يكن ظاهرة عامة بل كان عدم توريثها هو القاعدة . وحين جاء الاسلام اعطى المرأة حصة من الميراث تتناسب مع نظرته المبدئية للرجل والمرأة وللتبعات التي القاها على كل منهما .
- كان تعدد الزوجات نظاما جديدا معمولا به في الجاهلية ؛ ولم يكن يعرف الحدود . اقره الاسلام بعد ان قيده عدديا ، فجعله اربعا ؛ واجرائيا ببعض شروط الاقامة والنفقة ولكنه ابقى الباب مفتوحا للسراري ؛ والسبايا وما ملكت الايمان .

كان التنظيم الاسلامي للعلاقات الداخلية في الاسرة الشرط الموضوعي لتعزيز كيانها وتعزيزها . وتمايزها فسهل ذلك استقلالها عن القبيلة ، بعد ان اوجد فيها مركز ثقل ذاتي مستقل . توجب له الطاعة والاطاعة وهو الاب . فنشأت ؛ في مرحلة لاحقة اسر كانت بمثابة وحدات متماسكة شبه مستقلة ؛ مشدودة داخليا الى بعضها البعض بموجب مبدأ صلة الارحام ورعايتها والبر بذوي القربى . وخارجيا تتساند وتتعاون تجسيدا لما جاء من ان المؤمنين اخوة .

طور الاسلام التقاليد القبلية المتعلقة بالاسرة ونظمها ، بما اتخذه من تدابير وسنه من قواعد وتشريعات . فجاء بناؤه للاسرة خاضعا لعوامل البيئة . فلقد ادخل في صلب تكوينها بعد ان عدلها مبادىء كانت سائدة قبل انتشاره وكرس بعضها الآخر دون تعديل . فمنذ ان وضعت اسس تنظيم الاسرة الاسلامية اخذت شروط المحيط الاجتماعي والمعطيات التاريخية للجماعات البشرية التي ستضمها ، بعين الاعتبار . فكان تكريس افضل ما هو سائد في العلاقات الزوجية وفتح المجال كله للتطور حسب الظروف المستجدة ، بل ايجاد وخلق الظروف المؤاتية للتغيير في هذا المجال ، وهذه هي القاعدة التي اتبعها الرسول في تنظيمه للاسرة ، الى جانب القواعد الكبرى التي ادخلها مباشرة على كيانها .



## ٤ - واقع تطور القبيلة ونشأة الاسرة في ظل الاسلام

هل استوعب المسلمون الصورة التي رسمها الدين للاسرة ، وهل طبقوها كما اراد لها الاسلام ان تكون ؟ ام ان هناك عوامل وظروفا جعلتهم يفهمونها ويطبقونها على وجه يتلاءم مع تلك العوامل والظروف بما يتوافق مع التطور المستجد ؟

لنا في مسيرة التاريخ الاسلامي وجعبته الحافلة بالاحداث خير مصدر لتكوين وتجميع عناصر الاجابة على هذه الاسئلة . حيث ان تلك المسيرة ، تكشف تاريخ تطور الاسرة وصورها المختلفة وانماطها على مر الزمن ، كما انها تظهر وتوضح العوامل التي اثرت عليها .

والنتيجة التي توصلنا اليها في الفصل السابق تشير الى ان القبيلة في المجتمع الجاهلي تجسد التنظيم الاجتماعي للمجتمع وتؤلف وحدة مستقلة للتنظيم السياسي الاجتماعي والعسكري . والاسرة لم تكن تنفصل او تتميز عنها ، بل كانت هي والقبيلة كيانا واحدا عماده العصبية وقرابة الدم والعداء لكل ما هو خارج عن اطارها . وقلنا ان الاسلام سعى مع بداية دعوته لتقوية الاسرة وضرب الولاء القبلي وتحويله الى ولاء لله ولرسوله . فهل تكونت الاسرة وتميزت عن القبيلة لمجرد انتشار هذه المبادىء واعتناقها ، ام ان ذلك الواقع استمر . فمتى ولماذا وكيف تمت منشأة الاسرة واستقلالها عن القبيلة ؟

استطاع الرسول ان يحول ولاء افراد القبيلة الى الله والى رسوله فوحد بذلك بين المسلمين . فقد بدأ بنظام المؤاخاة ، وجعلها عامة لا فردية ، تستند الى اساس ديني لا الى الدم . على عكس الحال الذي كان سائدا في القبيلة ، من حيث ان المؤاخاة كانت فردية وعلى اساس الدم ، فآخى بين المهاجرين والانصار ووثق الروابط بينهم وانقذ المهاجرين من الضائقة

المالية (١) وبعد انتصار المسلمين في « بدر » ، وضع كتابا بينهم جعل منهم امة واحدة من دون الناس يربطهم الدين ، وتجمعهم العقيدة . واعترف بوجود الافخاذ والبطون كوحدات اجتماعية في الامة ، تدفع الفدية والدية على النحو الذي كان معروفا ، الا انها لم يبق لها كيان . فالمرجع الاعلى هــو الرسول رئيس الامة . وتضم الامة افرادا من قبائل مختلفة مما يتناقض مــع الاسس القبلية . والدستور الذي تسير عليه هو القرآن وسنة الرسول لا العرف ولا التقليد القبلي . والمسلم يثار لاخيه المسلم اي ان الامة ــ لا الاقرباء ــ هي المسؤولة عن كل حدث . فاستحالت بذلك فكرة الثأر الى عقوبة مدنيــة ، وجعل السلم والحرب مسؤولية مشتركة للامة لا مسائل فردية .

ورغم ان الرسول بسط نفوذه على كامل الجزيرة العربيــة فهــو لم ينشيء ادارة مركزية بل ترك القبائل كيانها التنظيمي ولكنه اوفد عنه ممثلين اليها لنشر مبادىء الدين وجباية الزكاة والعشور (٢) .

ورأينا ان الاسلام فرض الجهاد في سبيل الله ونشر دعوتــه على كل مسلم واعتبره واجبا فرديا . فتضافرت فكرة الجهاد الى جانب وحدة الامة بعد ان تم لابي بكر الصديق توحيد العرب بعد الردة في نطاق امة واحدة ، فأخرجتهم من مواطنهم الى آفاق جغرافية جديدة . فتوجهت الجيوش الى الشام اقتداء بما اراده الرسول . وجرت واقعــة اليرموك الشهيرة سنــة ( ١٣ هـ ) وكانت سببا في فتح الشام (٣) .

وحذا الخليفة عمر بن الخطاب حذو ابي بكر الصديــق في سياسة الفتوحات والجهاد لنشر الدين . فتم في عهده فتح الشام بأكملها ، والعراق واهم وقائعها واقعة « القادسية » ( سنة ١٤ هـ ) ، وفتح بيت المقدس صلحا ، والمدائن عاصمة الفرس ( سنة ١٦ هـ ) ، ثم اوغلت الجنود في فارس وفتحت الجزيرة وارمينيا ( ١٧ هـ ) ، ثم فتحت مصر على يد عمرو بن العاص ، ثم برقة (٤) واتبعت هذه السياسة في معظم عهود الخلفاء .

لقد كانت لفتح الامصار باسم الدين نتائج هامة على عدة اصعدة منها ان الدور العسكري والسياسي القبيلة قد تعزز في حياة المجتمع الجديد ، كما ان عصبية جديدة قد نمت هي عصبية العشيرة على حســاب عصبيــة القبيلة ، وكذلك فقد بدأ تفتت كيان القبيلة الاقتصادي والاجتماعــي ممــا استتبع نشأة الاسر واستقلاليتها النسبية .

وتطلب هذا الاتجاه تنظيمات كان لها اثرها في حياة العرب . فوضــع الخليفة عمر بن الخطاب اسس الديوان وهو سجل لاسماء المحاربــين ومقدار

---

(١) د. عبد العزيز الدوري ، سبق ذكره ، ص ٤١ .

(٢) د. الدوري ، سبق ذكره ، ص ٤٢ .

(٣) ج. زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ١ ، ص ٥٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٩ .

اعطياتهم وفقا لقاعدة وضعها بنفسه : مقدار العطاء يتحدد تبعـــا للنسب النبوي والسابقة في الاسلام ، بينما لم يميز ابو بكر ، عنـد تفريقه للغنائم والفيء ، بين اصحاب السابقة والنسب النبوي وبين غيرهم من المسلمين . كانت النتيجة ان توزع المسلمون في طبقات ، لكل فرد منها اعطية محددة . فكان راتب رجال الاسلام لا يزيد على خمسة آلاف درهم او نحو مئتي جنيه في السنة . واذا اعتبرنا مع زيدان (١) ان المسلمين كلهم جند كان المهاجرون والانصار ضباط ذلك الجند . اما سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهـم ، وهم الجند فكانت رواتبهم تتراوح بـين ٣٠٠ و ٥٠٠ درهم تبعـــا لنفس الاعتبارات ، الى جانب ما فرض لهم من الحنطة وما كان يدفـع لنسائهـم واولادهم .

والامر المهم هو ترتيب الجنود في الديوان لانه كان يعكس الواقـــع المعاش . يترتب الجند اولا تبعا للقبائل والاجناس ، حتى تميــز كل قبيلة عن غيرها ، وكل جنس عن غيره . فان كانت عربية تترتب القبائـل حسب درجة القربى من الرسول ، فيبدأ بالنسب العربي ثم بما يتفرع عنه ، فيقدم عدنان على قحطان لان النبوة فيهم . وعدنان تجمع مضر وربيعة فتقدم مضر على ربيعة لان النبوة فيهم ، ومضر تجمع قريشا وغير قريش ، فتقدم قريش لان النبوة فيهم وقريش تجمع بين هاشم وبين امية وغيرهم ، فيقـــدم بنو هاشم لان النبوة فيهم . كان بنو هاشم قمة الترتيب ثم تتفرع عنهم كافـة الانساب . اما اذا كانوا عجما فلا يجمعون على نسب بل بحسب الاجناس ، كالترك والهند ، او بحسب البلدان كالخراسانيين والمغاربة ...

والواقع التاريخي يفيد ان القبائل والعشائر هي التي كانـت تؤلـف فصائل الجيش وكتائبه (٢) ، فالقبائل كانت تهاجر بالاهل والولد الـى دور الهجرة ، وهي المعسكرات الكبرى التي كانت فيها تنظم الحرب وتوجه وكانت تناط بها الاعمال ، فالذين يتوجهون منها للقتال يسمون « مقاتلة » ومن يبقى في المعسكرات يطلق عليهم اسم « مهاجرة » . فالمهاجرة والمقاتـلة يتمتعـون بالحقوق كاملة ، اما الاعراب الذين يبقون فـي ديارهم أو مـع قطعانهـم ولا يشتركون بالجهاد ، فلم يكونوا يعتبرون مواطنين ، أي لـم يكن يصيبهم شيء من مال الفيء أو الغنيمة الا ان يجاهدوا مع المسلمين ، او كانوا من أصحـاب الحاجة ليدخلوا مع أهل الصدقات .

### العشائر تصبح وحدة التنظيم العسكري بدل القبيلة

وكان من نتيجة ذلك ان استمرت القبائل تحافـظ على كيانهـا بعـد ان

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٨١ .

(٢) يوليوس فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ترجمة د. محمد عبد الهادي ابو ريدة ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٤ .

انظر : دوري ، ص ٨٠ وجرجي زيدان ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

جعلت الوحدات القبلية والعشائر أساس التنظيم في تقسيمات الجيش المتوجه للفتوحات (١) . وبعد ان تكرس تسجيل العرب في الدواوين المحلية في الامصار على أساس النسب القبلي . استتبع هذا الواقع استمرار الظاهرات القديمة التي قوامها انتظام سكنى القبيلة في سكك ودروب على أساس العشائر والافخاذ ، واستمرار التقاليد والعادات القبلية بينهم في البداية وبقاء التأكيد على رابطة النسب قويا .

لقد انطوى هذا التنظيم في الواقع على رغبة الخليفة عمر بن الخطاب في ان يكون العرب أمة عسكرية مجاهدة ، لا تختلط بالاعاجم ، تعيش في المعسكرات على اطراف الحواضر ، ولكل فرد فيها أعطيات تجنبه عن تعاطي الاعمال وتجعله مستعدا لتلبية داعي الجهاد والهجرة . فعزز ذلك من كيان القبيلة بل أكثر من ذلك . فمن دخل الاسلام ـ أفرادا وجماعات ـ من الموالي كان يسعى الى الانتساب الى شخص أو الى قبيلة . كانوا يبغون من وراء ذلك ان يكون لهم محل في التنظيم القبلي القائم . وولاؤهم ليس ولاء عبد تحرر ، بل هو ولاء حليف بين طرفين غير متكافئين أدبيا . وهذا الحلف يحقق للطرفين بعض الميزات . فهو يحقق للموالي مكانا في المخطط الاجتماعي الذي يستند الى القبيلة وفيه صيانة اجتماعية لهم . كما يحقق للقبيلة تقوية مادية بفضل الحلفاء الموالي (٢) .

## تعزيز الدور السياسي للقبيلة

تلك التقوية كانت مطلوبة ، خاصة وان ما تلا الفتوحات من احداث ، أدى تدريجيا الى تأكيد أهمية القبيلة من الناحية السياسية ، وتكوين احلاف قبلية ، اخذت تتنافس على النفوذ والسلطان ، وتلعب دورا بعدئذ في اختيار الامراء والعمال على الامصار .

فالقبائل كانت تشكو من نفوذ قريش ، وترى انها دخلت الاسلام كما دخلت قريش . وجاهدت لاعلاء رايته . ولكن قريشا استأثرت بالخلافة وقادت وتزعمت . ومما زاد هذا التذمر حدة ، ان عامة القوات الفاتحة كانت من القبائل فاكد هذا الامر شعورها بانها مغبونة . ولعل أبرز ما يجسد هذا الشعور هو رد القبائل على ما أعلنه سعيد بن العاص في « الكوفة » حين قال: السواد ـ أي سهول العراق ـ بستان قريش فعلت الصيحة : اتجعل ما افاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستانا لك ولقومك ؟ (٣) . وقد عزز هذا الشعور بالغبن ما كان واقعا من ان أغلب الولاة كانوا من قريش فجمعوا الاموال الوفيرة ، واقطع بعضهم الخليفة عثمان الاراضي الصوافي التي

---

(١) جرجي زيدان ، سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٨٧ .

(٢) د. الدوري ، سبق ذكره ، ص ٨٢ .

(٣) المسعودي ، سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

تعد ملك رئيس الامة وليس ملك المسلمين ، كما يضاف الى ذلك كله شكوى القبائل من غير قريش ، من نظام الاعطيات المالي الذي فرضه عمر ، والذي بينا مقاديره ، فكان يزيد من مقدار التباين المادي بين قريش وغيرها . نردد مع د. الدوري خلاصة القول « ان الثورة على الخليفة عثمان كانت تمثل ثورة القبائل على قريش بالدرجة الاولى ، وهي انتصار التيار القبلي » (١) او بتعبير آخر ظهور دور سياسي مؤثر للقبائل في السلطة . فقد صارت الكلمة بعد نكبة الامويين بمقتل عثمان للانصار وللهاشميين ولرجال القبائل الذين وطئوا المدينة . وقد أحس الاخرون بنفوذهم السياسي لدرجة جعلهم يعتقدون انهم قادرون على حسم مسألة السلطة ، فقد هدد بعضهم عليا حين تلكأ في قبول التحكيم اذ قالوا « يا علي أجب القوم الى كتاب الله اذ دعيت والا قتلناك كما قتلنا عثمان » (٢) .

وحين اصطدم علي بمعاوية ، كان معاوية يمثل التيار القبلي حيث ثار على اساس قبلي ، وصور للشاميين ان عليا مالأ على قتل عثمان ، وقام مطالبا بدمه ودعا للثأر وحاول ان يسترضي ويكرم ، وبث الدعاية ، وكان زواجه من ميسون بنت بحدل الكلبي ( من كلب اليمانية ) سندا قبليا قويا له ، كما سار على سياسة قبلية يسترضي الرؤساء ويستعمل المكر والدهاء . وانتصار معاوية انما هو انتصار واضح للتيار القبلي ، وتعزيز للدور السياسي للقبائل. وتطورت الامور مع الامويين اللاحقين بنتيجة الاوضاع السياسية الجديدة وادت الى قيام نزاع بين عرب الشمال وعرب الجنوب أو بين قيس ويمن ، مع العلم ان المجموعات الداخلة تحت كل جهة لم تكن كلها تنتمي الى الشمال أو الى الجنوب . وربما يختفي النزاع بين قيس ويمن في الشمال تاركا وراءه نزاعا بين القبائل الشامية المتوطنة قبل الفتح واكثرها يمانية من كلب وقضاعة والقبائل التي دخلت اثر الفتوحات وقد ظهر هذا النزاع بشكل علني بعد معركة « مرج راهط » التي كانت قمة مناورات حول الخلافة ، فكان الضحاك بن قيس الفهري زعيم قيس ينظر جنوبا الى ابن الزبير ويؤيده، في حين ان اليمانية ولا سيما كلب وعلى رأسها حسان بن بحدل كانوا يؤيدون انسباءهم الامويين .
لقد بدأ التكتل القيسي اليماني في الشام ، ثم امتد بمرور الزمن بالتدرج الى أجزاء الامبراطورية حتى وصل خراسان شرقا والاندلس غربا .
وقد وقف رجال الدولة وولاتها موقف الحياد أول الامر بين هذه القبائل . ولكن الظروف ولا سيما ظروف عصر الحجاج والفترة التي تلته ، ادت الى ان يدخل الولاة أولا في تيار العصبية ، فأدى ذلك الى ان تتخذ التكتلات القبلية هيئة احزاب سياسية . هذه تؤيد هذا الوالي فتتمتع بالنفوذ والجاه ، وتلك تأخذ موقفا سلبيا فتقصى من هذا المجال . وتعقد الوضع وتأزم حتى لم يستطع الخلفاء المتأخرون تجنب هذا النزاع بل

---

(١) د. الدوري ، سبق ذكره ، ص ٥٧ .

(٢) نصر بن مزاحم ، صفين ، ج ١ ، ص ٥٦٠ ، شرح نهج البلاغة ٢ ج ١ ، ص ٥٨٦ .

انجرفوا فيه بعد سليمان بن عبد الملك . فهبطوا من مكانهم السامي واصبحوا وكأنهم رؤساء احزاب بدل ان يكونوا رؤساء دول (١) واستمروا ينظرون الى مصالح الامبراطورية من خلال المصالح الضيقة للقبائل التي تؤيدهم .

فكان ان استعانت الادارة الاموية برؤساء القبائل الذين كانوا يساندون الامير ليساعدوه في تسيير شؤون المصر ، ويكونوا مجلسا شبه رسمي يجتمعون في الاماسي ويتذاكرون في الشؤون العامة . فيعبرون بواسطة هذا المجلس عن وجهة القبائل من جهة ويساعدون الامير في ضبط القبائل من جهة اخرى (٢) .

ويذكر ان بعض الخلفاء كانوا ، نتيجة لهذه التكتلات القبلية السياسية، يعينون امراء الامصار من الاشراف العرب الذين لهم سند قبلي قوي .

## بروز العشيرة ككيان

كان لتنظيم الجيش الاسلامي على اساس العشائر والقبائل نتائج عديدة اخرى على صعيد القبيلة غير تعزيز دورها السياسي والعسكري اذ استوجبت الظروف أن تصبح العشيرة لا القبيلة ، الوحدة العسكرية الاولى وعلى رأسها عريف يتولى توزيع العطاء والمسؤوليات . وكان لتشابك الحياة اليومية العادية بالمهمات والمسؤوليات الملقاة على هذه الوحدات الاثر الاكبر في بروزها وتعزيزها وتكريسها ، ليس في المجال العسكري فحسب ، بل في المجال الحياتي الاجتماعي اليومي .

فبموجب التنظيمات والتدابير الاسلامية كانت أموال الغنائم توزع كأموال الفيء على المقاتلة . وكان هؤلاء يتلقونها عن طريق عريف عشيرتهم . وأصبح للعشيرة كيان يتجسد على الاصعدة : العسكري والمادي والحياتي .. فتحولت العصبية القبلية القديمة التي حاربها الاسلام ، وحث على استبدالها بالولاء للدين وللاسرة ، الى عصبية جديدة ، تنظر الى العشيرة وكأنها تنظيم انتقالي يسهل المرور من مرحلة القبيلة الى مرحلة الاسرة . ولعل اقتطاع الاراضي قد لعب دورا هاما في بروز العشيرة وعصبيتها. ويؤخذ مما كتبه الامام ابو يوسف في كتابه « الخراج » ، ان الارض التي تقع في ايدي المسلمين وليس لها مالك يطالب بها ، كالارض التي تكون لحاكم البلاد قبل فتحها ، او تكون لرجل قتل في الحرب أو نحوه ، هي من أراضي الصوافي ، اذ كان يجيز الخلفاء اقتطاعها لمن شاؤوا ، على ان يؤدي عشر مالها كخراج لبيت المال أو أكثر أو أقل . وكان الخلفاء يقتطعونها أما لعشائر ابلت بلاء حسنا اثناء فتح البلد ، واما يقتطعونها لبعض خاصتهم واهلهم . وفي كلا الحالين كانت الارض تنتقل الى العشيرة فتعزز وضعها ، وأصبحت ترتكز

---

(١) د. عبد العزيز الدوري ، سبق ذكره ، ص ٦٥ .

(٢) صالح احمد العلي، التنظيمات الاجتماعية فيالبصرة في القرن الاول الهجري، بغداد ١٩٥٣.

على قاعدة مادية . ومع استمرار حيازة العشيرة للارض ، وتوارثها زمنا طويلا ، اصبح الابناء ، في الواقع ، اصحابها ، بحق الارتفاق ، ما داموا يؤدون عنها المال .

ولقد وجد الاشراف العرب من رؤساء القبائل وبعض رجال العشائر ، ان الارض ثروة محترمة ومصدر مهم للربح ، فاتجهوا اليها يحولونها من اراض خراجية الى اراض عشرية نتيجة انتقال ملكيتها اليهم . وقد كان هذا الاتجاه قويا في نهاية القرن الاول للهجرة وما بعده ، وشمل احياء الارض الموات وتجفيف المستنقعات وحفر الترع . فاذا اضفنا هذا الاتجاه الى اقطاع الاراضي الصوافي ندرك ان الفتح الاسلامي قام بدور فعال في تدمير الاقطاع القديم ، ممهدا لظهور طبقة من الملاكين الجدد كانت بأغلبيتها من اشراف القبائل . هكذا تحول هؤلاء الى ارستقراطية مالكة للارض بعد ان فقدوا نفوذهم القبلي المحلي . فاتجهوا للسكن على الاراضي التي انتقلت ملكيتها اليهم ، وتعهدوها بالرعاية . وبذلك انتقل بعض المجتمع من حالة قبلية عسكرية الى دور زراعي تخف فيه القبلية والروح العسكرية وتظهر فيه الروح المدنية والملكيات الكبيرة (1) .

كان هذا التحول ايذانا ببروز وحدات اجتماعية جديدة لا تضيع بغيرها ولا تذوب فيها ، بل تستند الى ملكية ارض والى امكانية عيش مستقر ، مستقل من حصيلة الغلال . تلك الوحدات تألفت من ملاكي هذه الاراضي وعشائرهم .

## مركز القبيلة يهتز

نخر هذا الوضع بنية القبيلة ، ففتت قاعدتها على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي . اذ انه اوجد لافراد القبيلة قاعدة ثابتة ، وملكية أرض ، ومدخولا مستقرا فلم يعودوا بحاجة الى التنقل او الى الاعتماد عليها لتأمين معيشتهم . الى جانب ان نظام الاعطيات وتوزيع مال الغنائم والفيء على المسلمين كافة قد قطع كل علاقة ارتباط بين الفرد والقبيلة ، جوهرها الانتفاع المادي ، لان الانتساب الى الدين الجديد ، ومنحه الولاء ، والجهاد في سبيله ، كان يؤمن له ما يكفل استمراره وثوريته .

كما ان التجارة ازدهرت في هذا العهد وزاد عدد العاملين بها من افراد القبائل ، فاتسعت رقعة الذين تمكنوا من الاستقلال اقتصاديا عن القبيلة .

أما على الصعيد الاجتماعي فلقد تلقت القبيلة ضربة قوية . فالدين الاسلامي حمل الى المؤمنين ، الى جانب مبادىء هدايتهم الدينية ، مبادىء تنظيمية لحياتهم اليومية ، تبدأ بنظرته الى الفرد رجلا أو امرأة، والى العلاقات التي يجب ان تسود بينهما ، اي الى تنظيم الزواج والقضايا الكثيرة التي تتفرع

---

(1) د. الدوري ، سبق ذكره ، ص ٨٧ .

عنها والتي تحدثنا عنها باسهاب في بداية هذا الفصل .

والواقع ، ان التطورات التي حدثت على الصعيد العسكري والسياسي والاقتصادي ، بما فيها الفتوحات الواسعة والارباح التي نجمت عنها ، غنائم وفيء ، والتي أصابت كافة افراد القبائل ، بدوية وحضرية ، انعكس أثرها على الصعيد الاجتماعي . فلقد وجد المسلمون في الدين الجديد ، طريقهم الى المجد والثروة والغنى ، الى جانب انه أمدهم بعقيدة طمأنتهم وبعثت الرضا في نفوسهم . فنظروا الى الجانب الاجتماعي من تعاليمه وتنظيماته على ان فيها من الفعالية ما يضاهي فعالية المبادىء التي افتتحوا باسمها امبراطوريات العالم فعملوا على تطبيقها في حياتهم الخاصة . وكان ذلك التطبيق يجري في الحدود التي تتوافق مع التطورات الجديدة .

## التدابير الاسلامية الاجتماعية وأثرها على وضع المرأة

لم تتخذ تلك التطورات مضمونا واحدا ولا اشكالا تعبيرية واحدة في كل مناطق دولة الاسلام ، وبالتالي فان تاثيراتها كانت تتفاوت من منطقة الى اخرى .

ففي الجزيرة العربية، مهد الدعوة الاسلامية ، حصلت انتفاضة اجتماعية في القبائل ، جعلتها تتجاوز مستوى العادات المألوفة ، خاصة فيما يتعلق بالنساء . فقد أصلح الاسلام من أحوال المراة الشخصية ودفعها ذلك الى المشاركة في الامور السياسية والمساهمة في المعارك الداخلية والخارجية ، والاهتمام بالامور الدينية . فعرفت بعض نساء عصر النبي ممن كن « تهاجر واحدتهن اذا هاجر الرجل ، وتحارب اذا حارب ، وتبذل اذا بذل ، وتحضر معه مجالس الرسول ، وتدخل المساجد لمشاهدة حلقات العلم والوعظ والصلاة جماعة . وفيما اختلف عليه المسلمون كانت تراس الاحزاب السياسية وتخوض المعارك ، وتلقي الخطب المثيرة ، وتنشد الاشعار الحماسية . ثم هي أحيانا لا تتقيد بأهواء الرجل ، بل تعتمد على رأيها ، وتمشي أحيانا في صفوف أخرى غير صفوف رجلها » (١) .

وذكرنا ان الاسلام اعطى للمرأة حقوقا لم تكن تعرفها في الجاهلية ، وأصلح من أحوالها الشخصية اذ جعل للزواج أحكاما وللطلاق وتعدد الزوجات قيودا ، بعد أن كانت على جانب كبير من الفوضى ، الا انه ، في الواقع ، لم يمنحها المساواة الكاملة بالرجل ، ولم يرفع عنها وصايته ، بل

---

(١) محمد جميل بيهم ، المرأة في حضارة العرب . دار النشر الجامعيين ، ص ٩٨-٩٩ ، ومن النساء الشهيرات في الاسلام السيدة خديجة بنت خويلد زوجة الرسول، عائشة ام المؤمنين، وفاطمة الزهراء بنت الرسول ، واسماء بنت سلمة التميمية وبثينة ابنة يعار الانصارية ، والخنساء ، والزرقاء ابنة عدي الهمذانية ، وعائشة بنت طلحة ( صاحبة الندوة الادبية ) ، وأسماء بنت يزيد وغيرهن كثيرات .

أوصاها بالتزام طاعته .

لقد كانت هذه الاحكام بمثابة نافذة ، عبر منها الرجال بعد عصر النبوة . فالحقوا بالمرأة نكسة انتهت بان عادت المرأة تنساق وراء الافكار العامة السائدة . لقد كانت تصورها بأنها قاصر ، وانها خلقت لتكون متعة للرجل وخادمة له . والحقيقة ان نفوذ الرسول على العرب كان شديدا لدرجة أن ارادته صارت هي الارادة العامة . فنقلهم فجأة من طور الى طور ، وطوى تقاليد الامة التي تقررت على مدى العصور دفعة واحدة . فاذا بأولئك الرجال، الذين كانوا الى الامس القريب يعتبرون المرأة مخلوقة للمتعة ، ينقلبون الى اعتبارها رفيقة لهم ، يعاملونها بالرحمة والمودة . بيد ان الطفرة محالة وان « اشد اخلاق الامم رسوخا عندها ، هو التراث الفكري الذي ورثته عن آبائها» (١) . فما ان توفي النبي حتى عاد العرب يتلمسون طبائعهم ومشاعرهم الاولى ، ويبحثون في تعاليم الدين ومبادئه واحكامه عما يمكنهم من تحقيق اهوائهم فوجدوا السبيل الى ذلك في تعدد الزوجات والتسري ، والطلاق ، والحجاب والطاعة . فقد استغل المسلمون احكام الاسلام في هذه القضايا الاجتماعية ليستمتعوا بزينة الدنيا التي بدأت تنصب عليهم، نتيجة الفتوحات. وكان في طليعة سراتهم الذين هم قدوة الامة من امثال الحسن بن علي ، والمغيرة بن شعبة .

وأدت الفتوحات الى أوخم النتائج في قضية المرأة لانها جعلت جزيرة العرب مغمورة بالسبايا ، مملوءة بالخيرات والاموال «ففي حين كان عمر يريد ان يكون العطاء زيادة يضيفه المسلمون على رؤوس اموالهم فاذا بهم يستغلونه في الترفيه عن انفسهم ، ولا سيما في عهد عثمان ، حيث اكثروا من تبديل الزوجات ، وابتنوا القصور ، وملأوها بالسراري . فاذا المدينة ، حيث المسجد الحرام ، تصبح سوقا من اكبر أسواق الجواري ومدرسة لتخريجهن ، وقاعدة لجماعة المغنين والمغنيات ، ومثلها مكة !! » (٢) .

وفي ظل هذا الواقع ، فقد الرجل ثقته بالمرأة ، واستعاض عنها بالحذر منها ، فأخذ يشدد عليها الحجاب ، ويمنعها من الاختلاط حتى ولو كان جائزا من قبل ، كالصلاة جماعة في المسجد ، أو منع الطواف المختلط حول الكعبة كما فعل سليمان بن عبد الملك . وكانوا كلما ازدادوا امعانا في اللهو والبذخ والترف يزدادون حذرا من المرأة وتضييقا عليها .

وبالمقابل ، فقدت المرأة الاطمئنان لمصيرها ، وانصرفت الى تدعيم وجودها بين رفيقاتها في بيت الرجل وذلك للاستيلاء على قلبه والاستئثار برضاه بأية وسيلة . وهي في الواقع ، لا تكون مخلصة له ، في مثل هذه الاوضاع والظروف الا بمقدار .

---

(١) محمد جميل بيهم ، سبق ذكره ، ص ١٠٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٨ .

## د – القبيلة تتفتت : اشكال الاسر الجديدة

كانت التطورات التي ذكرناها بمثابة الظروف المادية التي مهدت لالغاء الدور الاقتصادي للقبيلة ، وللتخفيف من تأثيرها الاجتماعي ، ولتعزيز دورها العسكري ، ولضرب استقلاليتها السياسية والاستعاضة عنها بدور سياسي نسبي . وبتعبير آخر لم تعد القبيلة وحدة للتنظيم السياسي والاقتصادي لحياة الجماعة ، بل اصبحت أداة عسكرية وسندا سياسيا .

ولعبت التدابير الاسلامية والتنظيمية والاقتصادية والاجتماعية ، دورا مهما مكن القبيلة من ان تفرز وحدة اجتماعية أضيق منها نطاقا ، واشد تماسكا ، حيث اصبح يرتكز عليها التنظيم الاجتماعي للمجتمع الجديد وتشكل الاطار الاصغر للحياة فيه ، الا وهي الأسرة الاسلامية .

وبتعبير تحليلي موجز نقول : في مرحلة اولى شكلت المبادىء الدينية ، والتدابير الاقتصادية والتنظيمات الاجتماعية الاسلامية ظرفا موضوعيا ، ( وارضية مؤاتية ) لحصول تطور نوعي وتغير بنيوي في أوضاع القبيلة العربية. وفي مرحلة ثانية ، ادى التطور المادي المتفاوت درجة ومستوى وعمقا ، لمختلف مناطق العالم الاسلامي ، الى بروز ثلاثة اتجاهات للتغيرات ، عبر كل منها عن درجة من درجات التطور والتغير المشار اليها وكان لتلك الاتجاهات تأثير على بنية القبيلة وجسد بالتالي شكلا من أشكال التنظيم الاجتماعي الجديد ، أي الاسرة الاسلامية .

### الشكل الاول : أو الاسرة – العشيرة

هو الشكل الذي انتهى اليه نوعان من القبائل :

النوع الاول : هو القبائل أو بقايا القبائل أو العشائر التي لم تهاجر من الجزيرة ، ولا اشتركت بالاعمال الحربية والفتوحات لسبب من الاسباب . ولم يصب هذه الجماعات شيء من أموال الفيء ، للاسباب التي أوردناها ،

ولا حصل تطور مادي قلب الاعمال التي تتعاطاها . فاستمرت تعتاش بالرعي وحافظت على نمط معيشتها . فلم يطرا بالتالي اي تطور جذري على حياتها .

ولما كانت القبائل قد فقدت كيانها السياسي في ظل الاسلام . وتحول ولاء افرادها الى ابائهم ومناصرتهم الى ذوي قرباهم . تحولت الى مجموعة عشائر . تجمع فروع الاب واقرباءه في اطار الحدود التي رسمها نظام الارث الاسلامي . فانتعشت العشيرة . واصبح لهـا كيانها الاقتصادي الذي اخذ يتعزز بفضل تداول ثروتها وابقائها محصورة في الحدود التي وضعها النظام المذكور . كما ان الولاء الذي كان يمنح الى جد اعلى غير ملموس . اضحى الان يمنح الى اقرب افراد القبيلة الى الفرد : هو والده . واصبح واجبا دينيا مرتبطا بمفهوم البر والتقوى .

ولقد اتاح هذا المفهوم لافراد القبيلة استمرار تلقـي التساند القديـم المبنـي عـلى اساس روابط الدم . لكنـه اضفى على هذا التساند الان . طابـع التعاون بين المؤمنين . والعمـل الصالح . الـذي يعتبر الاقرباء اولى الناس بتلقيه .

فمع استمرار القاعدة المادية القديمه للقبيلة . مـن نمط العمل . الى ضيق مصدر المعيشة . ومع الابقاء على ضرورة التعاون بين افراد الجماعه . والالحاح عـلى ايجاد دور جديد للاب ، وقيم اجتماعية جديدة تدعو وترغب باقامة علاقات وطيده داخل اطار الاسرة . بدأت القبيلة تتفرع الـى عشائر ، هي بمثابة اسر واسعة ممتدة . حسب المفهوم الاسلامي للاسرة . لكن بقي الطابع الغالب عليها هو الطابع القبلي . من النظرة الى الانساب والى المصالح القريبة والبعيدة للقبيلة ، والى علاقاتها بغيرها من القبائل . ومـن حيث العادات التي لم يلغها الاسلام ولم يشجعها كالثار وتعدد الزوجات والطـلاق المتكرر . والعصبية القبلية وغيرها .

اما النوع الثاني من القبائل التي انتهت الى ان تكون مجموعة من الاسر ـ العشائر المستقلة نسبيا . فهي القبائل التي هاجرت طلبا للجهاد في سبيل الله . فقد حرص الخليفة عمر بن الخطاب عـلى عـدم السماح للقبائـل والجيوش العربية بالانتشار ومن ثمة التفرق والاحتكاك بالسكان . فقـد كان يدرك ان على العرب حماية الدولة الاسلامية وانه بانسياحهم فـي الارض يفتقدون تلك القدرة . لذلك امر قادتهم عنـد توجيهم للفتوحات . اذا بنـوا بلدا فـي دار الفتح الا يبنوه في مكان يحول بينه وبين المدينة ماء . خوفا على الرابطة العربية من ان يزداد ترابط اطرافها فتتمزق . وان لا يقيموا في المدن المفتوحة . ولا يشتغلوا بالزراعة . اما في منعه الزراعة فقد اعتمد على الحديث القائل : « السكة ( المحراث ) ما دخلت دار قوم الا دخله الـذل » (١) ، ولان الاشتغال بالزرع يشغل عن الحرب ، وهو يريد ان يبقيهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة . فابتنى قادة الجند ، في صدر الاسلام ، مدنا هي اشبه بالحصون والمعسكرات كالبصرة والكوفة والفسطاط ، ينزل فيها جنـد

(١) ابن خلدون ، العبر والمبتدأ والخبر ، ج ١ ، ص ١١٩ .

العرب نزول الحامية او حيث الاحتلال (١) . وقد تهاجر القبيلة بكاملها ، بشيبها وشبابها ، بنسائها وصغارها الى ديار الفتح ، فينزلون في المعسكرات نفسها مع الجنود ، في سكك ودروب معينة حسب التقسيمات الداخلية للقبيلة .

هكذا كان واقع حال اكثرية القبائل التي نزلت بالديار المفتوحة ، ما عدا الشام فقد اختلط الجند فيها بالسكان ، خاصة بالقبائل العربية التي كانت قد هاجرت اليها قبل الاسلام . وكانت سياسة عمر تقضي بان تقوم القبائل من غير قريش بنشر الدين بالفتح ، أما القرشيون فحصرهم في المدينة ومنعهم من الخروج ، لان المدينة هي مركز الاسلام وهم اساسه ومنشؤه ، على انه لم يستطع وقف تيار الفتح فلم ير بدا من الاذن في الانسياح (٢) . أما عثمان فقد أطلق العنان لقريش فانتشرت في البلدان المفتوحة .

أصاب هذه القبائل مال الفيء والغنائم ، وأصبحت بعض العشائر أو الافراد فيها ، من أصحاب أراضي الصوافي . لكن لم يتح لهم فرصة الاستفادة مما آل اليهم من ثروات نتيجة تواصل اعمال الفتح . فلم تغير تلك الثروات ، في المرحلة الاولى من اوضاعهم خاصة وان معيشتهم مؤمنة بالفتح الجماعي للامصار ومال الفيء ، وهكذا بقي التنظيم الداخلي للقبيلة كما هو ، بل تعزز لان تقسيمات الجيش استندت اليه .

كانت هذه القبائل مؤهلة الى ان يصيب التفتت بنيتها ، بصورة سريعة ، لان أفرادها اغتنوا واثروا بسبب ما وصلهم من أعطيات وما غنموه من أموال ، او ما أقطعهم الامراء أو العمال أو الخليفة من اراض أو منحهم اياها لقاء تأدية العشر . فما ان انتهت مرحلة الفتوحات حتى بدات القبائل تستقر ، ولم يأخذ الاستقرار هذه المرة شكل السكنى القبلي المتلاصق ، بل تم حسب موقع الارض التي اصابها الفرد . فاصبحت نواة لعشيرة جديدة . وهكذا ضرب تجمع القبيلة ، وكذلك وحدتها السكنية ، بعد أن كانت تلقت ضربة قاسية اثر انهيارها كوحدة اقتصادية تلتف حولها الجماعة . وانت المبادىء والتدابير الاسلامية التي اشرنا اليها لتعزز هذا الاتجاه ، ولتساهم في تفتيت البنية الاجتماعية ، التركيبية والتنظيمية للقبيلة .

والاسرة التي عرفت خلال الفتح ، وفي العهد الاموي ، بقيت اسرة — عشيرة ، لا تختلف صفاتها ومزاياها عن تلك التي تحدثنا عنها في النوع الاول . لكن تحولها سيكون سريعا وحاسما ومتناسبا مع تقدم توزيع الثورة وترسخ ملكيتها بين الناس من جهة ، ومع تحول نمط معيشتهم من الاعتماد كليا على الاعطيات والغنائم ومال الفيء الى الاهتمام بعمل معين ، كالاعمال الزراعية او الحرفية او الكتابية من جهة اخرى . حصل هذا التحول تدريجيا الى ان أصبح ظاهرا للعيان في نهاية العهد الاموي واوائل العباسي . فانتقلت معه

---

(١) جرجي زيدان ، سبق ذكره ، ص ٤٩ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٤١ .

الاسرة الى شكل جديد هو الاسرة الواسعة .

كانت الاسرة ــ العشيرة محافظة . وطبقت تعاليم الدين ومبادئه . وجهدت في البحث عن احكامه في كافة المجالات . ومن ضمنها كانت القضايا المتعلقة بالاسرة ، من زواج . وعلاقة زوجية . وطلاق ، وتعدد زوجات وارث وغيرها .

ولقد حافظ المسلمون في الاسرة ــ العشيرة على مداول حرفية التعاليم . وليس على روحيتها وجوهرها . فبالنسبة للزواج اخذوا بظاهر الآية التي وردت في سورة النساء : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » . دون التقيد بما ورد في آخرها من شبه المنع : « فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة » . واضح ان المسلمين فهموا الغاية المادية من الزواج وتمسكوا بها ، وذهبت عنه ضرورة احلال وتحقيق « المودة والرحمة » اي السعادة ، بكل معانيها بين الزوجين . واخذ المسلمون ، وحتى صغار الجند . والمقاتلة ، يجمعون بين الاثنتين والثلاث والاربع عدا السراري اللواتي لم يحدد الدين عددهن . وكان بعضهم . خاصة من الامراء وعلية القوم لا يقتنع بعدد الزوجات الذي حدده الدين . فلجأ هذا البعض الى الطلاق مجالا للاستزادة ولرشف المزيد من الحلاوة المادية للزواج . وكان تعدد الزوجات ظاهرة اجتماعية ادت الى حدوثها كثرة السبايا اللواتي غمرن شبه الجزيرة العربية . بسبب الفتح . فقد وزعت النساء المسبيات على الجميع كباقي الغنائم ، وذكر ان موسى بن نصير بعد ان عاد من الاندلس كان معه ثلاثون الف بكر من بنات شرفاء القوط واعيانهم (١) وقس على ذلك غنائم قتيبة وافريقيا وبلاد الترك وغيرها . ويقول المسعودي أن المسلمين وحتى فقراءهم ، وعامة الجند كانوا يستكثرون من العبيد والمماليك وبلغ عددهم عند بعضهم عشرة وعند بعضهم مائة وعند آخرين الفا ، وكانوا يصطفون ، من ضمن هؤلاء . اللواتي يتخذون منهن سراري ومحظيات (٢) . وليس ابلغ دلالة عن ضرورة تعدد الزوجات كفكرة عامة شائعة بين الناس في ذلك العهد ، من قول المغيرة بن شعبة . وهو من علية القوم وقدوتهم « صاحب المراة الواحدة ان حاضت حاض معها . وان مرضت مرض . وصاحب الاثنتين بين حجرتين ايتهما ادركته احرقته . وصاحب الثلاث في رستاق كل ليلة في قرية ، وصاحب الاربع عروس في كل ليلة » (٣) .

وحين تتعدد الزوجات ، يصبح هم الزوجة ان تستولي على قلب زوجها ، وتستأثر بحبه ورضاه . فكانت تعمد الى الحيلة واذا اعياها الامر كان اخلاصها له يتحدد بمقدار وفعالية مراقبة الزوج . وهكذا اصبحت العلاقة الزوجية علاقة غير عفوية ، اعني انها تقوم على رسم الخطط والاحابيل

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٧٢ .

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٣) حامد حشيشو ، اخبار ذات السوار ، ص ٥٣ .

وليس على العواطف والميول الفردية .
فقد الزوجان ثقة احدهما بالآخر . اذ كان الزوج الغارق في زواجاته العديدة ، يخاف من ان تلجا زوجته الى الانتقام منه بطريقة ما . وكانت فكرة خيانتها له تستولي على شغاف قلبه ، ولكنه كان في نفس الوقت يحاربها ولا يريد ان يتصور حدوثها . فعمد الى اغلاق كل السبل امام الزوجة اذ لجأ الى التشديد على منعها من مخالطة الرجال من غير محارمها . وفرض عليها الحجاب والاتزار واستخدام خصيان من العبيد لخدمتها (١) . غير ان الروايات وحوادث التاريخ اظهرت ان النساء لم يعدمن وسيلة للانتقام من الرجل رغم كل الحواجز والمعيقات .

لقد وجد المسلمون تبريرا للواقع الدوني الذي حجزوا المرأة ضمنه في نصوص القرآن وآياته فقويت حجتهم وعززوها في نهاية صدر الاسلام خاصة ، بما ادعوه من خوف منها وعليها من سوء المصير ، بعد ان دبت بواكير الفساد في الصفوف . نتيجة لما توفر بين ايديهم من المال والسبايا . لقد خافوا منها ان تشارك الرجال فيما وصلوا اليه من احوال وعادات وتسر فتخون . وعليها من أن تقع فريسة ، فرفعوا الثقة منها وعادوا الى حصر وظيفتها في البيت . وتجاوزوا في معاملتهم لها معاملة النبي (٢) .
ولم تختلف العلاقات داخل الاسرة ـ العشيرة عن تلك التي كانت معروفة وتطرقنا اليها في القبيلة . ان لجهة منزلة الزوجة بين عشيرة الزوج او لجهة علاقته معها واعتبارها ملحقا بالعشيرة ، وليست اساسا لعشيرة جديدة . وما احدثته تعاليم الاسلام . هو ان المسلم اصبح يشعر انه امتداد لوالديه وليس للعشيرة وبالتالي عليه ارضاؤهما على كل صعيد قبل ارضاء اي شخص آخر ، حتى ولو كان هذا الصعيد ، هو العلاقة الزوجية . وكان الشخص الآخر هو الزوجة . من هنا فالاسرة ـ العشيرة . ليست تعديلا طرا على تركيب القبيلة وبنيتها وحجمها فقط بل هي الى جانب ذلك مشاعر وعلاقات ابقت للاصول ، اي الابوين . التقدير والسلطة والراي ، والموقع المميز في كل شيء . ويلعب الاب هذا الدور بالنسبة لكل فروعه مهما هبطوا ويخسره بعد موته . وهذا ما يميز الاسرة ـ العشيرة ، عن القبيلة ، لان الولاء في الاخيرة هو للجد الاعلى الذي قد يكون خياليا ولكنه يتجسد بالقبيلة، ومن هنا يتوجب الولاء لها ككيان .

### الشكل الثاني او الاسرة الواسعة الممتدة

ما ان استقرت الامور بعد انتهاء موجة الفتوحات الاولى ، خاصة تلك التي عرفت على ايام الخليفة عمر ، حتى بدأ غنى الارض يغري القبائل

---

(١) محمد جميل بيهم ، المرأة في حضارة العرب ، ص ١٠٥ .
(٢) محمد جميل بيهم ، سبق ذكره ، ص ١١٣ .

والعشائر والافراد . وكان قسم منها قد انتقلت ملكيته الى الجنود الفاتحين او الى قادتهم عن طريق الاقتطاع من اراضي الصوافي ، أو عن طريق الانتفاع من جزء منها وتأدية ما عليها من الخراج ، او الاعشار الى بيت المال .

وانقسمت القبائل العربية التي توجهت الى الشام الى قسمين : القرشيون وبقية القبائل المناصرة . واستلم القرشيون زمام الامور الادارية والسياسية ، وكان اولهم معاوية . اما حلفاؤهم فقد استلموا الامور العسكرية . وقد حافظ الجميع على نقاء انسابهم ، فلم يمتزجوا بالسكان المحليين لترفع العرب عن الاختلاط بالاجناس الاخرى . فقد كانوا ينظرون نظرة دونية الى الموالي . ولكن هذه النظرة لم تمنع اقامتهم بينهم .

لقد حققت لابناء القبائل الاعطيات ففرضت لهم ، لقاء تأهبهم للقيام بكافة الاعمال العسكرية . غير ان العمل العسكري لم يكن وظيفة ، بل يدعى اليه عند الحاجة ، لذلك اتجه هؤلاء الى بدء حياة عملية يومية فأصبح من بينهم تجار ، وحرفيون ، وعمل بعضهم بالارض التي آلت اليه ، ودخلوا بعلاقات تفاعل مع السكان المحليين . فكان لهم فضل تعريبهم ، ونشر الاسلام واللغة العربية بينهم .

وكان يرافق هذا التفاعل عمليتان : الاولى باتجاه تدعيم استقرار الظروف المعيشية ومصادر الرزق عن طريقين : العمل والارتباط بالارض من جهة وتثبيت او توسيع رقعة الاراضي المشمولة بالملكية الخاصة للافراد او الجماعات الضيقة من جهة اخرى . اما العملية الثانية فكانت تتم لتقدم العملية الاولى ، وتتلخص بتثبيت وتطبيق نقل الملكيات عن طريق تنفيذ نظام التوارث الاسلامي . ولما كانت العملية الثانية تتم في اطار مرسوم هو دائرة القرابة الانتسابية الضيقة التي تشمل الابوين والابناء وزوجاتهم وجميع ابنائهم وفروعهم ، وصعودا الى أصول الاب وفروعهم ، فان التنظيم الاجتماعي السابق ، وهو القبيلة وهي اوسع كثيرا ، لم يعد يتلاءم مع استقرار المعيشة وتثبيت الملكية الفردية ونقلها . فكان لا بد من نشاء او ايجاد تنظيم جديد يلبي الحاجات الاجتماعية الجديدة ولا يتناقض مع المبادىء الدينية التي دعا اليها الاسلام . كانت تلبية هذه الضرورة الاجتماعية سهلة وعملية . فلقد التقت الظروف المؤاتية ، التي نتجت عن التطورات التاريخية الطارئة على معيشة الجماعة ، مع مبادىء واحكام الدين المتعلقة بحياة الجماعة نفسها . فتنظيم التملك وضبط استعماله واستثماره قد عزز الاستقرار والارتباط بمكان ثابت وضمن للفرد حق التملك . كما ان الاحكام المتعلقة بالميراث الذي جعله الاسلام في نطاق محدد ودائري لا يتعداه ، وكذلك تقسيم حصص الميراث بحسب شدة القرابة من المتوفى ، رسخت وجود التنظيم الاجتماعي البديل ، الذي ورث القبيلة . ويصح ان نطلق عليه تسمية الاسرة الواسعة الممتدة . فهي واسعة لانها تشمل عدة اجيال من الاقرباء ، الذين تشملهم حقوق التوارث بحكم الدين ، وممتدة

لانها تضم الاصول من الاقرباء وفروعهم مهما أمتدت ، صعودا او هبوطا ، طالما كانوا احياء . واصبحت الاسرة مستقلة ، تشعر بانهـا تشكل وحـدة اجتماعية قائمة بذاتها ، لها زمام وحدود حاصرة لكيانها ، وتركيب خـاص ترتبت عنه حقوق وواجبات الزامية تحدثنا عنها سابقا . ولقـد كان لهـذه الاسر من وحدة الشعب . ووحدة الملكية التي سيؤول قسم منهـا الى كل فرد فيها ، اكبر دافع يدعو افرادها الى توثيق عرى الروابط فيما بينهم . وكانوا بذلك يحققون امرين دفعة واحدة . تلبية الواجب الديني بالتواصل بين ذوي القربى . والابقاء على وحدة الملكية والسعي الى تنميتها وتوسيعها لتكون قاعدة مادية تسمح بالحصول على التقدير الاجتماعي الجديد الممنوح لارستقراطيي الارض .

ومهما يكن من امر فان الانتساب الى قبيلة لم يسقط . ولم يصبح بعد امرا ثانويا ، لان الصراع على السلطة والنفوذ . طوال هذه الحقبة التاريخية . كان يأخذ شكل صراع بين القبائل . الامر الذي مكنها من الاستمرار للعب هذا الدور السياسي . وحين اتخذ الصراع طابعا مذهبيا وتجـاوز بالتالي مظهره السياسي . استطاعت القبائل ان تتلاءم مع الواقع الجديد ، وتحولت بأجمعها الى احزاب . فأصبحت القبيلة عبارة عـن حـزب يمالىء السلطة فيقاسمها المصالح ، او يعارضها فيحارب ويقمع . ونستنتج أن هذه الاسر الواسعة الممتدة لم تكن تستطيع الاستقلال التام ، والابتعاد عن القبيلة الام لارتباط مصالحها السياسية وامنها بها . فرغـم ان الاسر المشـار اليهـا تستطيع ان تؤمن احتياجاتها الاقتصادية المعيشية كافـة بشكل مستقل ، الا انها كانت تعجز على المستوى السياسي ، من ان تستقل دون ان تعـرض وجودها ومصالحها للخطر . والقبيلة من هذا المنطلق . لم تعد كيانـا ماديا ووحدة بشرية ، بقدر ما اصبحت اطارا سياسيا ورباطا معنويا ، يستتبعان احيانا بعض الواجبات .

وكانت مواطن الاسرة الواسعة ممتدة في اريـاف العالم الاسلامي ، وحتى في مدنـه ، في الاوساط غـير الحاكمة . وفيهـا اخذ يظهر اثـر التعاليم الاسلامية على حياة الاسرة ، وخاصـة في مجـال امور الاحـوال الشخصية فأصبحت حقيقة مادية واقعة ، ومؤسسة لها كيانهـا الشرعـي الاجتماعي . واصبحت امورهـا ونشاطاتها كافة خاضعة للاحكام التنظيمية للدين . حتى اضحت الاسرة الاسلامية عبارة عن كتلة متشعبة مـن الحقوق والواجبات ، محددة شرعيا بدقة ومفروضة على افرادها ، الى درجة طغى فيها الطابع المؤسسي على علاقات افرادها بعضهم مع بعض ، على الطابـع الانساني والوجداني . فاستحال كل شيء فيها خاضعا للشرع وليس مـن مجال او هامش لبروز الميول الفردية او الرغبات الخاصة .

## انعكاس التنظيم الاسلامي على اوضاع الاسرة الواسعة

### الـزواج

اصبح الزواج امرا يحض عليه الدين وواجبا على كل مسلم غايته الانجاب وقيام المودة والرحمة والطاعة بين اطرافه . احاطه الاسلام بكثير من عنايته التشريعية . فأوجب أن تكون هناك خطبة ثم عقد يحوي على مجموعة شروط منها الشروط العامة كالمهر وكيفية دفعه وما ينتج عنه من التزامات وشروط خاصة كتلك التي يمكن لاحد العاقدين ان يشترطها على الآخر كحيازة العصمة او السكن او غيره .

وفي ظل ظروف الفصل بين الجنسين اصبحت الخطبة ، التي فرضت اساسا للتعارف مجرد اجراء شكلي ، لا يسمح للخطيبين برؤية بعضهما ، وان تم ذلك فليس اكثر من مجرد الرؤية السريعة كقول الرسول : « اذا خطب احدكم المرأة ، فان استطاع ان ينظر الى ما يدعوه الى نكاحها فليفعل » (١) . وفي حديث آخر ان المغيرة خطب امرأة فسأله الرسول : « هل نظرت اليها ، قال : لا ، فقال له الرسول انظر اليها فانه احرى ان يؤدم بينكما » (٢) .

وكان من نتيجة ذلك ان اصبح اختيار الزوجة من مهمات نساء الاسرة ، بعد ان كان من مهمات مجلس القبيلة ، وتلتزم نساء الاسرة عادة بجميع تقاليدها عند الاختيار ، من حيث كفاءة اهل الخطيبة لاهل العريس ، نسبا وثروة وجاها ودينا وتعبدا ، ويعرض اختيار نساء الاسرة على والد الشاب فيزكي الاختيار او يلغيه فيبلغ بعدئذ الى الشاب الذي يأخذ علما بذلك . لم يكن هناك اذا فرصة للفرد في اختيار قرينه . بل كثيرا ما حدث العكس ، اي استمر الزواج امرا مفروضا ، وملزما ، بين ابناء العمومة . فما ان تلد ابنة في اطار الاسرة حتى يقرأوا فاتحتها على ابن عم لها وهي بعد لا تتجاوز عدة سنوات وربما عدة أشهر او ايام . وقد بقيت الافضلية في الزواج لابناء العم حتى عهد قريب .

وتجدر الاشارة بهذا الصدد ، ان المسلمين الغوا عادة تحريم تزويج المحبين بعضهم من بعض والنظر الى الحب باعتباره تعديا على شرف اهل الفتاة (٣) ، ولكنهم لم يشجعوا مثل هذه الزيجات ونادرة هي الحالات التي اقاموا فيها الاعتبار لعواطف الفرد او اتجاهاته النفسية .

---

(١) رواه ابو داود ، عن نظرة الاسلام الى الاسرة في مجتمع متطور ، الشيخ عبد الحميد السائح ، ص ١٧٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٢ ، ص ٨ .

## الاختيار للزواج

لقد تحرر الزواج من سلطة القبيلة بعد ان انتهت القبيلة كوحـــدة للتنظيم الاجتماعي للجماعة ، وانتقل الى الاهل والقريبات بعد ان اصبحت الاسرة الواسعة الممتدة وحدة التنظيم الجديد ، فكان طبيعيا ان تمتلك حق عقد الزيجات . فلم يخرج حق الاختيار للزواج عـن نطـاق وحدة التنظيم الاجتماعي القائمة . لقد بينا ان الزواج هو اداة يمكن استعمالها اجتماعيـا لغايات تتجاوز سعادة الفرد الى تأمين مصلحة الجماعة . فحين كانت القبيلة شكل التعبير عن الجماعة كان امر الزواج بيدها . وبعد أن انتقل الى الاسرة الواسعة الممتدة انتقل امر البت فيه واختيار اطرافه اليها .

وفي مطلق الاحوال ، فان العرب المسلمين لم يشجعوا بل ابطل بعض امرائهم زواج العرب بالموالي . فقد ارادوا بقاء الجنس العربي والنسب صافيا كي لا يشاركهم الموالي بالحكم عن طريق ابنائهم المهجنين . وغني عـن الذكر رفضهم الموافقة على زواج العربيات من موال فقـد كان العرب ايام الدولة الاموية يترفعون عن سائر الامم من الموالي ويسمونهم الحمراء . فكان القرين يجد نفسه رشيدا على غير العربي ، ويرى انه خلق للسيادة وذلك للخدمة(1) .

## السكن الزوجي

وفي اطار اسرة الاب ومسكنها ، كانت تنشأ وتقيم الاسرة الجديـــدة المكونة من الابن وزوجته وينضم اليها ابناؤهما لاحقا . ويجب الا يفسر هـذا الواقع على اساس التبكير في الزواج ، فسن الزوج لا تؤهله للسكن المستقل . الحقيقة ان الابناء ، أكانوا صغارا او كبارا ، كانوا مرتبطين اقتصاديا بأسرهم حتى الذين مارسوا حرفا معينة لم يمارسوها مستقلين بل في كنف العائلة . هكذا نشأت وازدهرت مهن عائلية ، بل ارتبطت بعض الحرف بأسر بعينها وقد نظر المسلمون الى التعاون الاسري حتى في ميدان العمل ، على انه واجب ديني ، ووجدوا في ازدهاره بركة من الله وفضلا ، فتجنبوا قسمة الثروة او تجزئتها بين الاب واولاده . وحافظوا على وحدة الثروة في بعض الاحيان ، حتى بعد وفاته . وقد انعكس واقع وحدة الثروة وعدم الاستقلال الاقتصادي هذا في ميدان السكن فتجلى في وحدة السكن في منزل مشترك . ويحتفظ الوالد بالسلطة ويمارسها على ابنائه وزوجاتهم ، وكانت خلفية هذا السلوك مزدوجة . فهي معنوية بحكم اوامر الدين وحضه ، ومادية انتظارا لحصـة الابن من الميراث ، وبالتالي فان عدم اطاعة الوالد تحمل في طياتها تهديدين : الهيا مؤجلا ، بانتظار يوم الحساب ، وماديا معجلا ، بانتظار الحصة من ارث

(1) جرجي زيدان سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٧٠-٧١ .

الوالد (١) . ولا يستقل الابناء بسكنهم وحياتهم الا بعد موت الوالد وتقسيم تركته . لتبدأ دورة الحياة اسرة منشأ جديدة .

**اما العلاقات داخل هذه الاسرة :** فكانت متشابكة . نظرا لكثرة عدد افرادها . فواجبات الابن الزوج تجاه والديه تنتقل حكما الى زوجته وتصبح ملزمة تجاههما بالاطاعة والبر والاحترام .. ولا يرتب هذا الامر حقوقا لهما عليهما ، فغالبا ما كانت الام توغر صدر ابنها ضد زوجته لرغبتها في الاستئثار به واهتمامه . من هنا نشأت قضية العلاقة المتوترة بين الحماة والكنة وتعقدت بحكم ظروف السكن المشترك والاحتكاك اليومي .

وكان يعزز الروابط الوثيقة بين افراد الاسرة الواسعة الممتدة ، متزوجين وعزابا ، الى جانب سكنهم المشترك كونهم يعملون ويعتاشون جميعا في نطاق حرفة واحدة ، او في خدمة الارض واستثمارها ، او من ريع ملكية او من فروض العطاء الرسمي .

## المهور

وشكلت المهور ومقاديرها منذ صدر الاسلام مشكلة . فمع ازدياد الثروة الاجتماعية ونموها كان مقدار المهر يرتفع لدى الاغنياء والامراء واصحاب الانساب ، فحاولت بقية الفئات والطبقات ان تجاريهم في فرض مهور تفوق قدرة طبقاتهم ، فنشأت قضية تأخير الزواج بالنسبة للرجال والعنس بالنسبة للنساء . فرغم ان الاسلام قد نظر الى المهر باعتباره رمزا لتبادل المنافع فان ظروف الحياة الاقتصادية حولته الى عائق .

## تعدد الزوجات

ظاهرة اجتماعية كما ذكرنا سابقا . لكنه تقيد في كنف الاسرة الواسعة الممتدة بقيود مكانية . لقد كان بوسع الاب ، رأس الاسرة المذكورة ، ان يتزوج زواجا ثانيا ، لانه يقيم في بيته ، وهو صاحب الامر والنهي والسلطة فيه اما الابناء المتزوجون فكانوا يحجمون عن تعدد زوجاتهم طالما هم يعيشون مع والدهم واخوتهم ، لكن بعد توزيع تركة الوالد ، غالبا ما كانوا ينتقلون بسكنهم ويتزوجون مرة ثانية ، خاصة في المناطق والبلاد الزراعية ، سعيا وراء الايدي العاملة الكثيرة لتنمية الغلال .

---

(١) صحيح ان الوالد لا يستطيع ان يحرم ابنه من الميراث المفروض له . ولكن عرف في التاريخ الاسلامي تقاليد وحيل افتاها رجال الدين والقانون. منها لجوء الوالد الى نقل ثروته او قسم منها ، المنقول أو غير المنقول ، الى الجهة التي يريدها عن طريق بيع صوري لا يستطيع احد دحضه ، او يتصرف بها في حياته على الوجه الذي يبغيه ، وبشكل يحرم منه من أراد ، عن طريق الهبة أو البيع أو غيرهما. كان ذلك كله تهديدا لحصة الابن من الميراث، وسلاحا بيد الوالد لضمان طاعة الابن ، وخاصة في موضوع اختيار الفتاة التي ستكون زوجة له .

## الطـــلاق

وعرف الطلاق على نطاق واسع ، ومارسه الفقراء اكثر مـن الاغنياء . فقد كان بوسع الزوج الغني ان يضيف زوجة جديدة الى حريمه ، بينما لم يكن الزوج الفقير يستطيع تحمل اعباء فم اضافي ، فيعمد الى طلاق زوجته القديمة ، او الى مكارهتها ، ليدفعها الى ابرائه ، فيسهل عليه الزواج ، فيما بعد ، من زوجة جديدة ، دون ان يكلفه ذلك مالا كثيرا .

## الاسرة الارستقراطية المركبة : ظروف نشأتها

كان التدبير الذي وضعه « عمر بن الخطاب » ، والذي اقتضى بان توزع الاعطيات على المسلمين تبعا لرابط النسب وقربه او بعـده عـــن الرسول والسابقة في الاسلام ، اول خطوة ساهمت في خلق فئات اجتماعية جديدة وتكوين بيوتات اسلامية ، لها ميزاتها ومكاسبها وامتيازاتهـا ، كالمهاجرين والانصار وأهل بدر واهل القادسية . وكذلك اصحاب النسب الهاشمي ، والقرشي ، والاشراف من العلويين او العباسيين وابناء الانصار والمهاجرين. واللائحة التالية (١) تظهر الفروق بين الاعطيات المفروضة لهـم ولغيرهم ، وهي ليست سوى الفروق بين المداخيل السنوية للناس باعتبـار ان تلـك الاعطيات كانت مصدر رزقهم الوحيد .

| | درهم |
|---|---|
| لكل من ازواج النبي | ١٢٠٠٠ |
| العباس عم النبي | ١٢٠٠٠ |
| لكل من المهاجرين والانصار الذين شهدوا واقعة بدر الكبرى | ٥٠٠٠ |
| لكل من الحسن والحسين | ٥٠٠٠ |
| لكل من المهاجرين والانصار الذين لم يشهدوا بدرا | ٤٠٠٠ |
| عبد الله بن عمر بن الخطاب | ٣٠٠٠ |
| كل من ابناء المهاجرين والانصار | ٢٠٠٠ |
| كل واحد من اهل مكة | ٨٠٠ |
| كل واحد من سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم | ٣٠٠ — ٥٠٠ |
| لكل من نساء المهاجرين والانصار | ٢٠٠ — ٦٠٠ |

لقد كانت قيمة تلك الاعطيات تزداد كلما اتى خليفة جديد ويضاف الى اللائحة اشراف جدد ممن فرض لهم الخليفة الرواتب . وغالبا ما يكونون من اهله او من خاصته . فاذا لاحظ همة احدهم في طلب الخلافة اثقل يديـه بالهدايا وقطع لسانه بالعطاء ــ تلك كانت سياسة الامويين والعباسيين مـن

---

(١) جرجي زيدان ، سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٨٠ .

بعدهم ـ كما كان هؤلاء ينالون من النعم والهدايا حسب ما يتراءى للخليفة في امرهم .

فأصبح الهاشميون من اهل السعة والرخاء ، يتمتعون بشرف الملك ولا يحملون أوزاره او اعباء تبعاته . فأنغمس اكثرهم في الترف ومالوا الى حياة الدعة فبنوا القصور ، وزينوا الحدائق ، استكثروا مـــن الجواري وجمعوا اليهم القيان والمغنين وقربوا الشعراء والادباء (١) .

ولم يكن يختلف الامر كثيرا مع بقية الاشراف من غير الهاشميين ، الذين كان شرفهم يرجع الى اتصال حبل قرباهم بالنسب النبوي او بقريش فكثرت اعطياتهم ورواتبهم .

ومع الزمن اجتمع لبعضهم مال كثير وثروات طائلة بمختلف الطرق : من الاعطيات والهدايا ، او الهبات ، او ثمن الاراضي او التجارة او غـــيره . وهكذا فمحمد بن سليمان بلغت امواله خمسين مليون درهم ونيفا غير الضياع والدور ، وكانت غلته ١٠٠ الف درهم في اليوم (٢) . امـــا ثروة خمة بنت عبد الرحمن الهاشمي فبلغت ما لا يسعه الديوان (٣) . وكان بعض المكيين التجار قد تمكنوا من تنمية الثروات التي حصلوا عليها عن طريق المجالات الفسيحة ، فهناك التجارة وتموين الجيوش وبيع الغنائم . كما اضيف اليهم بعض العمال والامراء الذين اثروا ظاهرا (٤) .

اخذ ابناء هذه الطبقة الارستقراطية النسب ، والمتكونة باكثريتها مـــن الاشراف يقدرون قيمة الارض ويسعون الى امتلاكها . خصوصا وان الخصب منها مصدرهم للربح وللثروة . فاتجهوا اليها يحولون الارض الخراجية الـــى اراض عشرية نتيجة انتقال ملكيتهم اليها من اصحابها غير العرب . وقوي هذا الاتجاه حتى شمل احيـــاء الاراضي الموات وتجفيف المستنقعات وحفـــر الترع . واتجه بعضهم للسكن على اراضيه والاهتمام بهـــا فظهرت الملكيات الكبيرة (٥) وتحولت تلك الارستقراطية القائمة عـــلى فكرة النسب الرفيع . الى ارستقراطية مالكة للارض وحضرية ، اي اصبحت تقوم على قاعدة مادية، فترسخ التباين الاجتماعي والاقتصادي بينها وبين بقية العرب .

وانعكس هذا التباين على انماط حياة هذه الطبقة ، وعـــلى الاشكال التي اتخذتها علاقاتها الاسرية والزوجية وبالتالي على الاسرة التـــي كانت تنتظمها ضمن اطارها الاجتماعي . ويصح ان نسميها الاسرة الارستقراطية المركبة .

---

(١) زيدان ، سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ٢٧ .
(٢) المسعودي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .
(٣) معجم الاتليدي ، اعلام الناس ، ص ١٥١ .
(٤) د. الدوري ، سبق ذكره ، ص ٨٠ .
(٥) د. الدوري ، سبق ذكره ، ص ٨٧ـ٨٨ .

## الاسرة الارستقراطية المركبة : حجما ونمط معيشة وخصائص

ينتمي رب هذه الاسرة الى الطبقة الارستقراطية التي وصفناها اعلاه ونضم بالاضافة اليه جميع زوجاته وابنائه وخدمه من الارقاء والعبيد وخاصة من السراري والقيان والفنانين . فقد كان كل هؤلاء يعيشون في قصره . فتساعت حدود الاسرة وتشابكت العلاقات فيها . وتعقدت .

كانت اعباء هذه « الاسرة » تصل احيانا الى حد الخيال . الا ان ثروة ربها كانت كافية لتغطيتها من مختلف مصادر دخله التي فصلناها . فحياتها الاقتصادية مرتبطة الى حد بعيد بخزينة الدولة . الا من استطاع من هؤلاء تامين دخل خاص من التجارة او من حصيلة الفلاح . فلقد كان كافيا ان يلجا الخليفة الى الغاء العطاء المفروض للارستقراطي حتى يهتز نمط معيشته وتتداعى « اسرته » .

وغالبا ما كان معيار تلك العلاقة واستمرار تدفق العطاء محكومين بالدعم السياسي ، والولاء اللذين يقدمهما هذا الارستقراطي او ذاك للخليفة . فالدور المنتظر من هذه الاسرة الارستقراطية هو دعم السلطة . ويتخذ هذا الدعم اهمية بحسب الخليفة لها حسابات دقيقة . فاجماع الارستقراطيين من الاشراف الذين يمتون بصلة الى آل بيت النبي على دعم الخليفة . يضفي على السلطة طابع الشرعية ، ويستوجب احترام العامة وتاييدهم لها . اسوة بالاشراف من اهل البيت .

كما يخفف عنها جزءا من الدسائس والمكائد والمؤامرات التي تهدف الى انتزاعها من بين ايدي الخليفة . ويؤمن هذا الدعم تغطية سياسية ايضا . ويشكل تكتلا في وجه المعارضة . كما يقدم تاييدا سكانيا لها . نظرا لان المرتبطين بهذا الارستقراطي من الفلاحين او الحاشية سيكون ولاؤهم كولاء سيدهم . فالعلاقات كانت اذن علاقات نفع متبادل بين السلطة وابناء هذه الطبقة ، مما مكن الجانبين من الاستمرار بقوة ، ووطد كل طرف دعائم الطرف الآخر .

اما على الصعيد الاجتماعي ، فيمكن القول ان هذه الاسر كانت عبارة عن مجتمعات صغيرة ، قائمة بحد ذاتها ، يضيق الجانب الشخصي فيها او يتسع طبقا لارادة وميول رب الاسرة . وقد غلبت عليها وسادت الظاهرتان التاليتان :

## التسري

هو اقتناء الجواري للتمتع بهن او استيلادهن . وكثيرا ما يعقب التسري التزوج . فاذا ولدت الجارية لاحدهم تزوجها ، رغم ان العرب كانوا يكرهون التزوج بالجواري ، لكن كانوا يتسرونهن للفراش وكانت تلد الجارية لاحدهم فيبيعها ، كما يبيع سائر الجواري ، فنهى عمر عن بيع

امهات الاولاد (١) . وكانت النتيجة ان تلك الاسر ضمت عددا كبيرا من الحظيات او الجواري . وقيل ان المغيرة بن شعبة احصن ٣٠٠ امرأة في الاسلام (٢) . كل دفعة منهن كانت تتألف من ٨٠٠ امرأة بينهن ٤ زوجات و ٧٦ من الجواري .

شكليا يعتبر الزواج الشرعي هو منشىء هذه الاسرة ؛ لان اسم الاب لا يحمله الا أبناؤه الشرعيون ، ولا يرثه غيرهم ، غير ان الواقع هو غير ذلك . فنمط حياة الاسرة الارستقراطية المركبة يجعل من الزوجة الشرعية مجرد واجهة او ام للاولاد ، او ضابطة للنسب واداة منظمة للارث . ففي صدر الاسلام كان الامام علي يقول : « ما الزواج الا للاولاد » وكذلك كان عمر . لكن ارباب هذه الاسر لم يعودوا يفكرون بالنسل ، بل كان همهم ، وقد توفر المال بين ايديهم ، ان يتذوقوا شتات الملذات ، وان يتمتعوا بنساء العالم بعد ان افضى اتساع الفتوحات الى غمر العرب بالجواري الحسان والسراري الفاتنات .

في مثل هذه الحياة كان السلاح الاشد فتكا هو الجمال . لهذا نرى النساء يعتنين بالتزين والتبرج عناية لا توصف وكذلك بالملابس والمجوهرات. ويحرصن على كسب بعولتهن دون غيرهن من المزاحمات كما نمت الغيرة في هذه الاجواء . في حين عرفت بعض الحالات المعاكسة تماما ، حين استسلمت المرأة للاعتقاد بانها مخلوقة لمتعة الرجل ، وقد عمدت بعض النساء الى اهداء ازواجهن الجواري دون مبالاة لكسب تقديرهم (٣) .

وغني عن البيان ما كان يرافق ظاهرة التسري من ظاهرات متممة كمجالس الغناء والانس والتأنق في الالبسة ، والبذخ في الطعام والاثاث والرياش والمجوهرات (٤) .

## احتباس النساء في المساكن

هناك ظاهرة سائدة في الاسر الارستقراطية المركبة . فقد تأمنت لها كافة لوازم الحياة وضروراتها وكمالياتها وكذلك الخدمة وبقية الاعمال . وجعل في القصر جناح للحريم هو اشبه بمجتمع نسائي كامل تتعاطى النساء الحياة في حدودها ومع موجوداته فقط .

ومنعت من الخروج حتى للمساجد ، والبست الازار ، وتعذر عليها مقابلة غير النساء حتى غدا عالمهن مختزلا الى النصف غير الفاعل ، ولا

---

(١) ابن الاثير ، سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٩ .
(٢) محمد جميل بيهم ، سبق ذكره ، ص ١٠٤ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٢٢ .
(٤) لمزيد من التفاصيل انظر :
جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ٥ .

المتطور . بل المقموع والجاهل الذي اسدلت عليه ستائر الظلام .
وكانت لهذا الاحتباس اوخم العواقب على كل صعيد . اذ تـردت الحالة الفكرية للمراة واصبحت اسيرة الافكار المتخلفة السائدة ، والتـي تصورها كمخلوق غير قابل للفعل بل للانفعال وتلقي التأثيرات . وانغمست في ممارسات خرافية علها تستعيد زوجها او تستأثر به دون ان تصل الى حد رفض الاذلال والزواج المتعدد اللذين يتسلطان عليها .
وغدت موطن العادات المستقبحة اجتماعيا ، وانتهت بأن الفت هـذه الحياة . واصبح همها منحصرا في تجديد رونق الحياة بالاشتراك بمكائـد نسائية ، او بمغامرة خيالية او ما اشبه .
وبديهي ان تختصر العلاقات بين الزوج والزوجة الى حدها الادنى ، او في المناسبات . فنمط الحياة في الاسرة الارستقراطية المركبة يكاد يجعل من الزوجة مجرد رقم عدد ضمن الحريم . اما لماذا وقـع عليهـا الاختيار ؟ فالسبب سياسي اجتماعي . واما لكونها من الجواري اللواتي ولـدن للزوج ولدا او لتقدير خاص . بمعنى ان التأثيرات الخارجيـة قلما يكـون لهـا تأثير على اتمام الزواج حتى في حالة مصاهرة احـد البيوتات المشهورة ، ففي هذه الحالة ينظر الارستقراطي الى مصلحته الشخصية ، وليس الـى مصلحة الجماعة التي ينتسب اليها ، فكل واحد مـن الاشراف ، له بحـد ذاته ، وبصورة مستقلة عن جماعته ، وزنه السياسي خاصة اذا كـان مـن قريش وبصورة حصرية أكثر اذا كان من بني هاشم . فالخلافـة والرئاسـة كانتا محصورتين بينهم ، واحد منهم مؤهل تبعا لاصالة نسبه ، ليشغل أرفـع المناصب في الدولة من هذه الزاوية ، فكانت مصاهرة أحدهم مجـال فخـر واعتزاز ، حتى ولو أصبحت الابنة مجرد ملحق بالحريم .
فعلاقات الزوج بالزوجة ، او علاقته بالاولاد ، هي علاقـات شكليـة ، مفرغة من كل محتوى وجداني ، لاضطراره لتوزيع وقتـه عـلى اهتمامـات واسعة واشخاص كثيرين . فالحجم الفضفاض للأسرة يقف حائلا دون نشوء علاقات نوعية متخصصة .
أما الطلاق فلم يكن شائعا في الاسرة الارستقراطية المركبة لعدة أسباب :
ان الموافقة على الزواج من الارستقراطي كانـت تعني ضمنا الموافقـة والقبول بنمط معيشته وخاصة بنوعية علاقاته النسائية . فالطـلاق لهـذا السبب لا يعود واردا .
ورب هذه الاسرة لا يلجأ الى الطلاق ، بل الى وضع الزوجة على الرف ، وعدم الاهتمام بها ، وابقائها ضمن الحريم ، ولا يشكل هذا الامر عقبة أمامـه في سبيل حياته الجنسية طالما هو قادر على حيازة ثلاث زوجات غيرها وعدد غير محدد من الجواري . نوعية ونمط المعيشة اليومية المترفة والجو السائـد في القصر تجعل الزوجة تتمسك بوضعها طالما هي صاحبة امتيازات . ولم يكن يغيب عن بالها ، ان زواجها من غير الارستقراطي ، لن يؤمـن لهـا قيمتهـا الضائعة ، لان النظرة الى المراة والى الزواج كانت نظرة اجتماعية دونية سائدة ومعترف بهـا .

## الخصائص التي عرفتها الاسرة على ضوء الاسلام

شرحنا كيف ان الاسلام اوجد الظروف المادية المؤاتية التي ضربت كيان القبيلة كتنظيم اجتماعي وسياسي مستقلين . وكيف تعززت وبرزت الاسرة . وقد ساعدت التدابير الاسلامية المتعلقة بالاسرة على تقويمها ، واتاحة فرصة الاستمرار لها ، بل اعطتها طابعا يوحي بانها من تكوين الاسلام نفسه . وانه هو سبب وجودها . والواقع أن الاسرة كاطار لحياة الجماعة ليست من وضع الاسلام أو تكوينه ، بل هي شكل من أشكال الحياة المشتركة ، هي تجمع اجتماعي ، تم التوصل اليه بعد تطور ظروف المعيشة والملكية الخاصة . والحقيقة ان الاسلام قد لعب دورا كبيرا ومؤثرا في تحريك تلك الظروف وتسريع وتيرة فاعليتها . أما أثر الاسلام على الاسرة فيتجسد في النظام الذي وضعه لها . فجعلها بموجبه مؤسسة اسلامية تخضع كافة مظاهرها ونشاطاتها لتدابيره واحكامه ولا يمكن تعديلها . فاستمرت الاسرة ، في ظل الاسلام ، تستمد قوة كيانها من كون التنظيمات المشار اليها الهية المصدر ، فتحصنت بهذا الواقع ، وقاومت تأثيرات الظروف الخارجية عليها . واكتسبت على مر الزمن الطابع المحافظ ، ويتجسد هذا الطابع في الخصائص التالية :

١ ــ لما كان رضا الوالدين او غضبهما يؤدي الى رضا الله او غضبه على الانسان ، فانهما اكتسبا بذلك سلطة معنوية ترسخت مع الزمن مع ترسخ المفاهيم الدينية ذاتها .

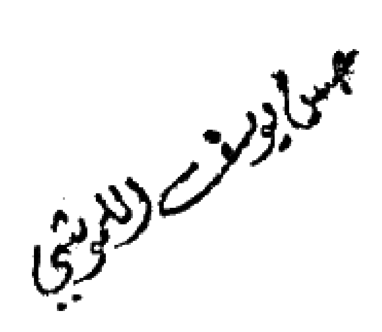
٢ ــ **الطاعة** : وهي عنوان كبير للاسرة في ظل الاسلام . فهي واجب الزوجة نحو زوجها ، وواجب الاولاد او الابناء تجاه والديهم .

٣ ــ **تفاوت التقدير للجنسين** : ليس الذكر كالانثى . بل ان الرجال قوامون على النساء ، ولهم عليهن درجة . وتجسد ذلك التفاوت في منح الذكر مثل حظ الانثيين من حصص الميراث .

٤ ــ السماح **بتعدد الزوجات** .

٥ ــ السماح **بالطلاق** .

٦ ــ اعتبار كافة العلاقات المتبادلة في اطار الاسرة ، **علاقات مؤسسية** ، مفروضة باسم الدين ، وبالتالي يمكن ان تكون موضوع شكوى شرعية ينظر فيها القاضي ، وتقام اذا تجاوز احد افراد الاسرة حدوده المرسومة .



## ٦ – علاقة شكل الاسرة بالوسط الاقتصادي الذي تنشأ فيه

الاسرة الاسلامية ظهرت على ثلاثة اشكال :
- الاسرة العشيرة .
- الاسرة الواسعة الممتدة .
- والاسرة الارستقراطية المركبة .

فهل كانت هذه الاشكال تنتشر في فئات اقتصادية ـ اجتماعية معينة ، او انها انتشرت في كل الفئات بالتساوي ؟ وبالتالي هل هناك علاقة بين الشكل الذي تأخذه الاسرة وبين الوسط الاقتصادي الاجتماعي الذي تنتمي اليه ؟

باديء ذي بدء نشير الى توضيح سريع هو ان التسمية تكاد تكشف عن طبيعة الوسط الذي تنشأ فيه الاسرة . فالاسرة الارستقراطية المركبة نشأت في اوساط الارستقراطية الاسلامية التي ذكرنا انها كانت تتألف من الاشراف ذوي الانساب الاصيلة الذين يمتون بصلة الى الرسول ، او ممن خدموا السلطة وارتفعوا الى مرتبة العمال والامراء او الاغنياء فامتلكوا الاراضي والثروات . وطبيعي ان الاسر المركبة الارستقراطية تختلف عن الاسر المركبة الريفية . اي المتشكلة عن تعدد الزوجات . فنمط معيشة وحياة وقيم كل منهما تختلف عما للاخرى حتى طبيعة العلاقات المتبادلة ضمنها مختلفة . في حين ان الوسط الارستقراطي يجعل من العلاقات الاسرية فضفاضة فارغة من المضمون ، فالوسط الريفي يرغم افراد الاسرة المركبة على توطيد علاقتهم ، لان رزقهم واستمرار حياتهم يتوقفان على مدى هذا التعاون وعمقه وشدته .

لهذه الاسباب نميز الاسرة المركبة التي نشأت في الريف عن الاسرة الارستقراطية المركبة . ففي تصنيفنا نجعل الاسرة الاولى احد اشكال الاسرة الواسعة الممتدة . والمقصود بالامتداد هو احد نوعين : الامتداد الافقي او العمودي . فالاسرة الواسعة الممتدة افقيا هي تلك التي توسعت عن طريق تعدد الزوجات ونموذجها الاسرة المركبة الريفية . اما الاسرة الواسعة الممتدة

عموديا فهي التي تضم عدة اجيال من الافـراد الذين ينتسبون الى اصـل واحـد .

وتغلب على الاسرة الواسعة الخصائص التالية :

على المستوى الاقتصادي تملكها لقطعة من الارض تمكنهـا مـن تأمين موارد عيشها وتجعل استقلاليتها قائمة على قاعدة مادية قويـة . وبمقـدار اتساع رقعة الارض كان حجم الاسرة يتسع . وكان ذلك الامر يتناسب مـع ضرورتين : الضرورة التقنية ، اي تأمين الايدي العاملة واللازمـة للاعتنـاء بالارض واستدرار محاصيلها . والضرورة السياسية وبموجبهـا كانت هـذه الاسرة تلعب دورا سياسيا معينا . فعامل حجم الاسرة كان له أكبر الاثر فـي التحالفات المعقودة .

والعلاقات بين اتساع رقعة الارض المملوكة وبين حجم الاسرة الواسعة الممتدة ، لا تعني علاقة حسابية يعبر عنها بالكثافة السكانيـة عـلى الارض . بل هي علاقة من نوع آخر . فكلما اتسعت تلك الرقعة كلمـا اتيحت الفرصة لاكبر عـدد من ابناء الاسرة الواسعـة الممتدة بأن يستقروا عليهـا بعـد ان يحصلوا على حصتهم من ارث أبيهم . فاذا فاض انتاج تلك الحصة عن حاجة الاسرة الناشئة ، بقيت تعيش مع الوارثين الاخر على الارض نفسها . وقـد يستمر استغلالها واستثمارها على نفس الطريقـة السابقة فتتوسـع الاسرة الاصلية وتصبح اسرة واسعة ممتدة عموديا . وتضم الاسرة الاخوة والاخوات وقد يكون الاعمام مع ابنائهم عليها ايضا .

واذا كانت حصص الوارثين صغيرة قليلة الانتاج ، هاجروا الـى المناطق الجديدة ، التي تشهد عمليات تملك جديدة للاراضي . فلقـد استمر العـالم الاسلامي يشهد حركات سكانية ، وتفتتا في بنيته البشرية ، طيلـة فتـرة الفتوحات واخضاع الامصار ، وبسط النفوذ على البلـدان المجـاورة لهم . والنتيجة ان كل عربي مسلم شكل نـواة لاسرة واسعة ممتدة ناشئـة فـي المنطقة او البلد الذي حل بـه . ولم تشهد هذه الفترة شكل الاسرة الزوجية المقتصرة على الزوج والزوجة والابناء القاصرين من الجنسين فقـط ، أو مـا يسميها بعض الدارسين (١) الاسرة المتعينة . ونعتقد ان التطور الذي لحـق ببنية الاسرة العربية انتقل في خـط تصاعدي ، ضاقت معـه الاسرة حجمـا وملكية . وكان ذلك التطور يتناسب ، بل يعكس عمليـة اخرى هي عمليـة التطور التاريخي التي كانت تجري في نفس الوقت على مستوى ملكية الاراضي وتكوين الثروات وتوارثهما . فلا يكفي ان يقيم الزوج مع زوجتـه وابنائـه في مسكن شبه مستقل ومبني على أرض يملكها احد والديهما ، حتى نقـول ان نمط هذه الاسرة هو نمط الاسرة الزوجيـة ، أو المتعينـة ، بـل تترافق خصائص اخرى مع ظاهرة السكن المستقل لتشكـل خصائـص بنيـة الاسرة الزوجية . ويمكن ان نلاحظ خلال التاريخ تعايش عدة انماط أو أشكال مـن

---

(١) انظر حسن سعيد الكرمي ، سبق ذكره ، ص ٤١ وما بعدها .

اشكال التنظيم الاجتماعي لحياة الجماعة . كأن نجد القبيلة . والاسرة الواسعة الممتدة معا . وفي مرحلة زمنية لاحقة الاسرة المتفرعة مع الاسرة المركبة الارستقراطية . ولكننا بالتأكيد لا نجد في مرحلة زمنية متاخرة الاسرة الزوجية مع القبيلة . لان التطور لم يكن قد بلغ مرحلة تكونت فيه أو عرفت الاسرة الزوجية .

والعلاقة بين أشكال الاسر ليست علاقة تناقضية . يلغي أحدهما الآخر . بل هي علاقة تطورية يلبي أحدهما المقتضيات والضرورات المستجدة والتي لم تكن مطروحة . لا وظائفيا . ولا بنيويا . على شكل الاسرة السابقة . وليس في هذا الواقع ما ينم عن تخلف بنية الاسرة القديمة او السابقة بشكل مطلق . بل لا يعود بامكانها ان تفي بمقتضيات وضرورات التقدم اللاحقة وتعجز عن ان تعكسها في تركيبها . لاجل ذلك ينظر الى تخلفها على انه تخلف نسبي يقتصر على عجزها وعدم تلاؤمها مع الفترة التاريخية اللاحقة لنشوئها وتكونها .

اما على الصعيد الثقافي (١) فتمتاز الاسرة الواسعة الممتدة بانها تحفظ بشكل واضح . كافة المؤثرات الثقافية والذهنية والعادات الفكرية التي كانت سائدة في فترة سابقة اي في القبيلة . أو العشيرة مع بعض التعديلات التي أدخلتها الظروف المادية المستجدة . فالتغير على الصعيد الثقافي لا يحصل بقفزات . وقد أوضحت وقائع التاريخ ان التغيرات الثقافية والفكرية السريعة التي تدخل على شعب من الشعوب . لا تلبث ان تزول بزوال الظروف التي أحدثتها . ليعود الشعب الى تقاليده السابقة . التي تكونت بفعل تطور تاريخي طويل . ويصح اطلاق لفظ « طفرة » على تلك التغيرات . الحاصلة عن طريق القفز .

وتجمع كافة وقائع فترة صدر الاسلام وحتى أواسط الحكم العباسي على ان الطابع الثقافي القبلي . كان يحكم افكار الناس . فيما يتعلق بالاسرة وبالعلاقات التي كانت تنشأ في أطارها . كما انه طبع معظم العلاقات الاجتماعية والسياسية (٢) .

بقيت الافكار القبلية المتعلقة بصورة المرأة . والاولاد . والتآصر . والثأر والزواج . والطلاق . وتعدد الزوجات . وغيرها . تلقى التجاوب التام من قبل الاسرة الواسعة الممتدة . ونرى ان حجم الاسرة الممتدة . والرغبة في المحافظة على مصالحها الجديدة . ومصالح افرادها من الذكور .

---

(١) نقصد بالثقافة هنا ، مجموعة الافكار والتقاليد والعادات التي تحتفظ لنفسها بقوة القهر والالزام أي التي تعتبر سائدة او بتعبير حديث « ايديولوجية تلك الفترة وذلك الشعب » .

(٢) يعتبر الدكتور عبد العزيز الدوري ان تاريخ الاسلام يتلخص بانه تاريخ الصراع بين التيارين القبلي والاسلامي في مختلف مراحل ذلك التاريخ ، مع تعديل طفيف في الاخراج وفي الاشكال التي تتجسد فيها قضايا الصراع . انظر « مقدمة في تاريخ صدر الاسلام » المطبعة الكاثوليكية ، بيروت .

استمرت كعوامل للابقاء على سيطرة الطابع الثقافي القبلي ونفوذه في أوساط الاسرة المذكورة .

ولا يغيب عن البال ان التاثير الواضح والعميق للاسلام على الصعيد الثقافي حصل في مجال المعتقدات ، والايمان ، فبرزت مجموعات الفقهيين والمشترعين والفلاسفة ، الا ان جهودهم لم تخلص الممارسات الاجتماعية اليومية للجماعات من الطابع القبلي المتمكن من اساليب حياتها ومعيشتها . فبقيت هذه المهمة تنتظر مرور الزمن لتقلص من هيمنة هذا الطابع وآثاره .

وتجسد مضمون الصعيد الثقافي ، ممارسات وعلاقات لها نفس الطابع على الصعيد الاجتماعي . والتعديل البارز كان ما ادخله الاسلام من تنظيمات على الواقع الاسري ، وقد سبق ان عرضناه بالتفصيل . ونعرض بايجاز لأهم مميزات الاسرة الواسعة الممتدة على الصعيد الاجتماعي : الاكثار من الاولاد ، وكثرة النسل اعتبرا خيرا عميما يمنحه الله للاسرة ، لانه أعتبرهم زينة الحياة الدنيا . وتعزز على ضوء هذه القيمة الاجتماعية امران : الاول ـ الانجاب كهدف أساسي للزواج ، والثاني ـ الزواج المتعدد كهدف للكثرة المشار اليها . واستتبع هذا الواقع ، ترسيخ الافكار المتخلفة عن المراة التي ترسم الزوجة كاداة لهذا الانجاب ، وتقديرها تبعا لعدد الابناء الذين انجبتهم ، واحتقارها وجواز تطليقها اذا كانت عاقرا أو انجبت عددا محددا من الاولاد ، او اللجوء الى الزواج مرة ثانية وثالثة ورابعة لتحقيق الكثرة .

وترسخت هذه الوقائع لتوافقها وملاءمتها مع نتائج عملية التملك الاجتماعي للثروة . فلقد اقتضت الملكية الجديدة للاراضي توفير الايدي العاملة الكثيرة لتامين العناية اللازمة للارض ، لاعمارها والحصول على الانتاج الوفير . فتلاقت حاجة الارض لكثرة العاملين عليها ، مع الافكار الدينية الراسخة التي تدعو المؤمنين الى الاكثار من الابناء ، وتشجعهم على الانجاب وتعتبر كثرتهم نعمة من الله ورضوانا . وكانت النتيجة ان كبر حجم الاسرة فاصبحت واسعة . ومع مرور الوقت تكرس امران : الحفاظ على وحدة الارض ، خاصة اذا كانت منتجة وذلك عن طريق لجوء مالكها ، رب الاسرة الواسعة ومنشئها الى تحويل ما تسمح به حدود الوصية ، أي ثلث ملكيته ، الى وقف عائلي موحد ، وعن طريق الوقف العائلي تكرس الامر الثاني ، وحدة سكن فروع الاب ، وهم الاخوة وابناؤهم ، فاصبحت الاسرة الواسعة ممتدة لانها ضمت ثلاثة أجيال ، احد الوالدين ، جيل الابناء ـ الآباء وجيل الاولاد .

وكان الريف ميدان انتشار الاسر الواسعة الممتدة ( افقيا او عموديا ) . اما في المدن فقد انتشرت الاسرة الواسعة الممتدة عموديا في اوساط العامة من أصحاب الصناعات اليدوية الخفيفة والحرفيين كالحدادين والحياكين والنجارين والصيادين والطحانين وبعض الباعة . لقد كان من طبيعة الحرفة نفسها ان تستخدم أيدي عاملة ، من مختلف الاجيال ، كالاطفال

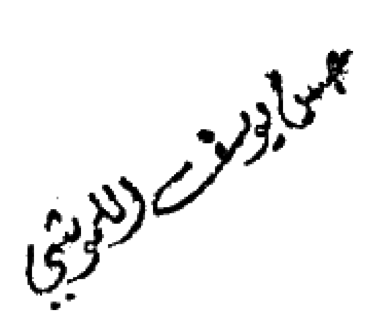
الذين كانوا يقومون بالخدمة الاولية وتحضير وسائل العمل ومواده ، والشباب وهم المتدرجون في تعلم الصنعة على ايدي الرجال المتقدمين . كان جميع هؤلاء ، ينتمون في الغالب الى أسرة واسعة ممتدة واحدة . فدرجت منذ ذلك الحين بعض الاسر على التكني باسم المهنة . كآل الحداد ، و آل النجار ، وآل الطحان . لقد كانت الاسرة الواسعة الممتدة عموديا ، الشكل التنظيمي ، الاكثر ملاءمة لظروف العمل المهني الحرفي . لانها كانت تؤمن له وظيفيا اتمام كافة مراحل العمل من ضمن تشكيلة الاسرة نفسها ، فهي من جهة تستخدم كافة افرادها وتشغلهم فينتجون ، ومن جهة ثانيه تسمح بتقسيم العمل الى مراحل . فينفذ على وجه من الدقة والاتقان ويؤدي الى التخفيف من كلفة الانتاج والى تجويد النوعية .

اما عن علاقةالاسرة ــ العشيرة بوسط اقتصادي ــ اجتماعي معين تنشا فيه ، فهو لا يحتاج الى كبير عناء للكشف عنه . لقد وجدنا انها نشأت عن القبيلة في الصحراء ، او على اطراف المدن ، حيث ظروف الحياة صعبة ، والحصول على ما يؤمن استمرار العيش اكثر صعوبة .

ولعل هذا الواقع هو الذي جعل هذا الشكل من اشكال الاسرة محافظا على التقاليد القبلية العشائرية وعلى مفاهيمها ، الا ما كان منها مناقضا لتعاليم الدين . فالاصل اذن هو علاقة الاسرة ــ العشيرة بالوسط الفقير ونشوؤها عنه . ولكن بعد ان انتقل قسم كبير من القبائل الى اطراف البلدان والمدن ، واستمر يحافظ على تقوقعه وانفراده وتجمعه رغم التطورات التي اصابت ظروف حياتها الجديدة ، وتمكنها من الثروة ، فان الاسرة العشيرة استمرت ليس كشكل من اشكال التجمع الاجتماعي وانما كمؤشر عن طبيعة ومضمون نمط المعيشة اللتين تمارسهما اسرة من الاسر .

# الفصل الثالث

## الأسرة العربية من تفكك السلطة العباسية
## الى بداية القرن العشرين



## اتساع الفترة وسماتها

ظهرت في هذه الحقبة الامارات والسلطنات التي كانت فروعا للدولة العباسية والتي بسطت سلطتها على الاراضي العربية او على جزء منها، كالدولة الطولونية ( ٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ ) والاخشيدية ( ٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ ) وهما امارتان تركيتان سنيتان . كما تضم دولة آل بويه التي قامت في اواسط القرن الرابع للهجرة في « العراق » ( ٣٢٠ ـ ٤٤٧ هـ ) وعاصرتها الدولة الفاطمية في « مصر » ( ٢٩٧ ـ ٥٦٧ هـ ) وكانتا شيعيتين . وتضم أيضا السلاجقة الذين عادوا فجمعوا الدولة في مملكة واحدة ، حكموها من سنة ( ٤٢٩ ) حتى دخول المغول بغداد سنة ( ٦٥٦ = ١٢٥٧ م ) ، تحت رعاية الخليفة العباسي . وفي عهدهم نشأت الدولة البويهية في « دمشق » ( ٤٩٧ ـ ٥٤٩ هـ ) والدولة الزنكية في الجزيرة والشام ( ٥٤١ ـ ٦٤٨ هـ ) .

كما تضم هذه الحقبة دولة الايوبيين التي قامت على انقاض الدولة الفاطمية واستمرت من ( ٥٦٤ ـ ٦٤٨ هـ ) . ومؤسسها هزم الصليبيين واخرجهم من بيت المقدس سنة ( ٥٨٣ هـ ) بعد ان استمر وجودهم وامتدت حربهم قرابة مئتي سنة في الشرق ...

وتضم الدولة العثمانية التي اعادت جمع شتات الدولة الاسلامية وجمع الخلافة والسلطة في آن معا من القرن الثامن الهجري والثالث عشر الميلادي وحتى اوائل القرن العشرين .

لقد جعلنا كل هذه الدول ضمن طور واحد لكون الاسرة العربية رزحت في ظل عهودها جميعا تحت وطأة ظروف متشابهة وتكاد تكون واحدة من حيث تأثيرها وانعكاساتها على وضع الاسر .

وتتلخص سمات هذا الطور بما يلي :

ـ الاضطراب السياسي العميق الجذور بما يخلفه من اضطراب في حبل الامن .

ـ تعاقب سريع للدول ، نشأة وانهيارا ، بحيث تقضي كل دولة أيامها

وهي تبحث عن الوسائل التي تدعم وجودها ، ولكنها لا تلبث أن تنهار تحت ضربات مؤسس دولة جديدة .

- بلبلة شديدة على صعيد الملكيات العقارية ، حيث رافقت تعاقب الدول وزوالها عمليات نقل واغتصاب الملكيات الاراضي من أصحابها السابقين الى أصحاب لاحقين .

- هزة عميقة ضربت جذور المجتمع نتيجة لتلاحق الغزوات والحروب في فترات زمنية قصيرة ، ويكفي ان نشير الى ان قيام كل دولة كان بالحرب أو استتبع حربا . فما كانت البلاد تضع خاتمة لحرب حتى تبدأ حربا جديدة . وزاد الامر صعوبة الخراب المدمر الذي لحق بالبلاد أيام الهجمات المغولية والحروب الصليبية .
- التناحر الداخلي الدائم بين فئات السكان وأحزابهم ، بين الشيعة والسنة (١) ، وما رافقه من تعميق للحقد والكراهية وسوء العلاقات بينهما ، وما انعكس منه على معظم مظاهر الحياة في تلك الدول .
- المجاعات والامراض (٢) التي لحقت بالسكان حسب موجات متتالية ضعضعتهم كالحروب .

- عدم اهتمام معظم تلك الدول بما يتعـدى الجانب العسكري لتأييـد وجودها أو الحفاظ عليه أو بسط السيطرة على رقعـة أوسع مـن البلدان . واهمال الجوانب الفكرية والثقافية والاجتماعية بل القضاء على مظاهرها بصورة ارادية ، وتعزيز دور الدين في حياة الجماعات.
- بروز وتنامي الدعـوات والمدارس الصوفيـة والحركـات الدينيـة وانتشارها في أوساط العامة لتكوّن وحدها الجـو الثقافي العـام للمجتمع .

- بدء وتعميم قاعدة المقاطعة بالنسبة للضرائب . فقـد أصبـح الامراء المستقلون يتفقون مع الخليفة على مبلغ من المال يؤدونه له كـل سنة مقابل استقلالهم بأمور البلد المقتطع مع تأدية الخطبة له والاعتراف بسلطانه . وابتدأ العمل بهذه القاعدة من ايام الرشيد (٣) حين قاطع ابراهيم بن الاغلب على مبلغ سنوي من المال نظير استبداده بأمـور

---

(١) جرجي زيدان ، التمدن ... ، ج ٤ ص ٢٤٤ — كانت المنافسة بين السنة والشيعة تتكرر ، ولا تمضي سنة دون وقوع قتال بين الفريقين .

(٢) ابن العبري ، مختصر الدول : « اشتدت المجاعة الى حد ان أكل الناس بعضهم بعضا في بعض السنين ، وبيع قرص الخبز بولد في بعض الاديان ، وأكلوا الكلاب » ، ص ٢٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٦٨ .

— كما يتحدث ابن الاثير عن مجاعة سنة ٦٢٢ هـ ويروي الاخبار عن تلك المجاعات .

(٣) د. حسين مؤنس ، في حاشية : تاريخ التمدن الاسلامي ، لجرجي زيدان ، ج ٤ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

افريقيا . واتسع العمل بها مع الزمن ، وأصبح شاملا أيام العثمانيين ويلزّم بمزايدة علنية (١) .

ـ الحذر والتحفظ والخوف والقلق (٢) .

ـ ركود طرأ على حركة المجتمع . ابطأ ان لم نقل ألغى تلك الحركة .

وما يهمنا معرفته ودراسته هو الوضع الاسري لفئات الناس الذين عاشوا خلال هذه الحقبة المديدة من التاريخ . كيف كانت بنية الاسرة التي عرفت في ذلك الزمن ، وهل عرفت نمطا واحدا من تراكيب الاسر وما هي الظاهرات التي برزت ضمن تلك التراكيب .



---

(١) محمد جميل بيهم ، المرأة في حضارة العرب ، ص ٢٩١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ .

## ١ - الوضع العام في الريف

### وضع الارض ومنطلق الدراسة

برأينا ، ان دراسة اية مؤسسة اجتماعية تنتظم فيها حياة الجماعة لا بد وان تنطلق من قاعدة مادية فتأخذ بعين الاعتبار العلاقات التي نتجت عنها او انها تبودلت بسببها ، وفي موضوعنا ، تطور الاسرة في المجتمع العربي ، تتجسد تلك القاعدة بالارض . فيقتضي دراسة وضعها القانوني الذي انتهت اليه واشكال الملكيات التي تتوزعها . والقضية الثانية الجديرة بالدراسة هي شبكة العلاقات التي تمحورت حول الارض خلال تلك الحقبة . وهي على نوعين :

- العلاقات التي نسجها المزارعون بالتشارك لاستثمارها ، من جهة .
- والعلاقات التي تبادلوها مع اصحابها أو مع المسيطرين عليها ، من جهة أخرى . وأخيرا الوسائل التي استخدمها المزارعون في تعاملهم مع الارض .

وحين توضح كافة هذه القضايا ، يصبح السبيل ممهدا لدراسة الاسرة كتنظيم اجتماعي ، لان من شأن هذا التوضيح ان يساعد على ربط الظاهرات بمسبباتها ، ويسهل بالتالي ، تمييز النتائج التي أفرزتها وضعية الارض القانونية عن غيرها من مظاهر الحياة في الأسرة . فنتمكن عندئذ من تحديد صلة ما بين الوضع البنيوي للاسرة وبين طبيعة ملكية الارض ونوعية استثمارها ، وعلى ضوئها يصبح من المستطاع كشف العلاقات المتبادلة بين جماعة الفلاحين وبين جماعة القيمين على الارض ، وعلاقة كل ذلك بمؤسسة الاسرة .

رغم الأثر المخرب الذي خلفته مجموعة من العوامل والاحداث على الوضع والحياة الزراعيين ، منذ القرن العاشر الميلادي ، تلك العوامل المتمثلة بضعف الدولة العباسية وتفككها ، وهجمات الصليبيين التي استمرت قرابة مايتي سنة ، ثم حلول النكبات الطبيعية حتى اكتساحات المغول للبلاد العربية

في القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد ، رغم كل هذا بقيت الارض مصدرا رئيسيا لمعيشة القسم الاكبر من سكان هذه المنطقة ، فارتبطوا بهـا ، وتحملوا في سبيلها الكثير من الويلات والظلم .

وتعززت تلك الآثار السيئة على الوضع الزراعي بتضافر اهمال الدول والحكام الذين تعاقبوا على الامساك بمقاليد الامور . هكذا عم التخلف وانتشر، ومالت أحوال الزراعة والعناية بالارض واستثمارها الى التدهور والانحطاط . فكان ذلك عنوانا مشتركا رفعه الصليبيون والمماليك ومن بعدهم العثمانيون في بلادنـا .

صحيح ان الوضع الزراعي لم يكن جيدا ولا مزدهرا حين فتح العثمانيون بلادنا ، وانهم تلقوا البقاع العربية من المماليك سيئة الحال وكانت قد مرت بفترة انحطاط طويلة (١) ، الا ان الصحيح ايضا ان العثمانيين ، الذين تولوا حكمها قرابة قرون لم يأتوا بجديد على صعيد وقف التدهور الزراعي ، ولا عملوا على انتهاج سياسة بناءة في هذا الحقل . فلم يغيروا في طريقة توزيع الارض على السكان ، أو في منح الاقطاعات ، أو في فرض الضرائب الزراعية سواء على المحاصيل والغلال او على المزارعين العاملين عليها ، بل سنوا من القوانين وثبتوا القواعد المتخلفة والاصول التي كانت متبعة مما ادى الى تعميق الهوة بين المسيطرين على الارض وبين الفلاحين ، وتكريس الاستغلال والظلم والتسلط .

كانت نظرة الحكام الى الارض على انها مصدر مال بيت المال او الخزينة، فوضعوا عليها الضرائب والرسوم والزموا العاملين عليها من المزارعين على تأدية ذلك المال عنها . وحتى تتم تأديته على الوجه الاكمل ، سلطت الدولة فئة من اهل السلطان ، ليراقبوا عمل المزارعين ، وليجبروهم على دفع الضرائب المتوجبة على الارض . وقد اتخذ هؤلاء تسميات شتى فمنهم المقطعون السباهيون ، والمتولون الجباة ، والملتزمون . وكان من ضمن مهمتهم اجبار الفلاحين على متابعة العمل الزراعي ، ومنعهم من الهجرة أو ترك الارض ، وحتى تطبيق أو مراقبة تطبيق القوانين المتعلقة بالزراعة وبالمزارعين . وفي الواقع ترتبط هذه التسميات بالوضع القانوني الذي استقرت عليه الارض ، ويعترف العثمانيون وقبلهم المماليك بالانواع التالية للارض :

١ ـ الارض الملك : وتشمل أراضي المدن وضواحيها ، وقد تركت ملكيتها لاصحابها بعد الفتح ، على ان يدفعوا عنها ضريبة العشر .
٢ ـ الارض الاميرية : وهي تشمل بقية الاراضي الزراعية ، ورجح العثمانيون نظرية عمر بن عبد العزيز ازاءها ، فاعتبرت ملكا لجميع المسلمين ، واعطي حق التمتع بها لاصحابها الاوائل مقابل تأدية

---

(١) د. ليلى الصباغ ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٣ ، ص ٤٧ .

بعض الخدمات ودفع الضرائب عنها . أما الاراضي الزراعية التي لم يعرف اصحابها فقد آلت الى الدولة ممثلة بالخليفة الذي اقطعها بدوره حسب ما كان يراه مناسبا . فاستقر جزء منها بين ايدي بعض القادة العسكريين ، وجزء آخر وزع على المقربين منه ، وبقي الجزء الاخير ارض وقف .

٣ ـ الارض الوقف : وتعني تلك الاراضي التي يخصص مدخولها كتمويل مشروع خيري او صحي او خلافه . ولا يمكن تغيير وجهة الانتفاع من ريعها أو استردادها ، بل تبقى مرصدة للجهة التي ارادها لها واقفها . وعرف من ارض الوقف ، الوقف الاهلي أو الذري ، وهو ما يهبه صاحب أرض لصالح عمل محدد شرط الا ينفذ هذا المشروع الا بعد زوال آخر فرع من ورثته (١) .

٤ ـ الارض المشاع : وهي الارض التي لا يملكها شخص محدد ، او لا يكون له حق خاص بالتعرف بها ، بل هي بتصرف سكان قرية بمجموعها ، وبخاصة المراعي والساحات العامة ، وأماكن الحصاد (٢) .

أما الارض الموات فهي من ممتلكات الدولة أو من الاراضي الاميرية ، وتصبح حكما من هذه الاراضي اذا استصلحت ويكسب من اصلحها حق التصرف بها .

### وضع الفلاحين القانوني

تتحدد وضعية الفلاح وحالته تبعا لنوعية الارض التي يسكنها والتي شرحنا انواعها الاربعة .. فهو اما ملاك لها ، كما في الحالة الاولى ، وهذه الفئة قليلة العدد ، وكان جل افرادها من الطبقة الحاكمة التركية ، واما مزارع فيها . وهؤلاء كانوا يشكلون الاكثرية . اما في الحالة الثانية ، اي الاراضي الاميرية ، فقد وزعت على الاقطاعيين او الملتزمين او المتولين . كما سلمت اراضي الوقف للمتولين ليجمعوا ضرائبها ، ويديروا فلاحيها . اما الملتزمون فقد اعطوا الارض الملك وارض السلطان لنفس الغاية . وعمل الفلاح الرئيسي هو دفع الضرائب المفروضة على الارض التي يعمل عليها مهما كان نوعها ، وله ( حق التصرف ) فيها اي حق الانتفاع منها .

المقطعون لم يكونوا سوى مشرفين على الارض وفلاحيها رغم انهم كانوا يدعون بأصحاب الارض ، اما « الملتزمون والمتولون » فكانوا يتمتعون بنفس الحقوق على الفلاحين في الاراضي التي تخضع لسيطرتهم ، ومع ذلك فوضعهم يختلف عن وضع المقطعين او اصحاب الارض في النقاط التالية :

(1) Weuleresse (J) , Paysans de Syrie et du Proche-Orient. p 93.
(2) Weuleresse. op. cit. p 94 .

١ ـ ان المقطعين السباهيين يورثون حق حيازة الاقطاعات لاولادهم . بينما لا يتمتع بحق الالتزام او التولي والاشراف على الارض ورثة الملتزمين والمتولين .
٢ ـ ان الاقطاعات كانت نوعا من الملكية الخاصة ، يمكن ان يعمل فيها المقطع بنفسه لو ان يعين وكيلا يعمل لحسابه ، بينما يعمل المتولي او الملتزم بنفسه ، ولمدة قد لا تطول .
٣ ـ ان ما يجمعه صاحب الاقطاعة مخصص لمعيشته ويستدل على ذلك من التسمية التركية لهذا النوع من الارض وهو « ديرليك » اي معيشته . ومع ذلك عليه ان يكون مستعدا، احيانا لتلبية الطلبات المالية للباشا ، او لوالي الناحية . اما ما يجمعه الملتزم من الضرائب فيأخذه مقابل المبلغ الذي قدمه للخزينة ضمانا لما سيجمعه ، في حين يعود ما يجمعه المتولي الى المؤسسة التي وقفت الارض لاجلها ، ولا يصيبه سوى سهم من ثمانية من مجموعها .

كان شرح الفروقات التي تميز وضع كل واحد من المسيطرين على الارض ضروريا ، لانه سيترتب عليها نتائج كثيرة متباينة ، خلال تبادل العلاقات بين الفلاحين ومستثمريهم .

## طبيعة العلاقات السائدة بين المنتفعين من الارض

لما كان كل من المقطعين والفلاحين العاملين على اراضي الملك او الوقف مرتبطا بالارض ، لتمتع الفئة الاولى من حيازة التمتع بالاقطاعة وتوريث هذا الحق الى ابنائها ، وتمتع الفئة الثانية بحق توريث « حق التصرف » اي الانتفاع بالارض . فان الاثنتين دخلتا في عملية تفاعل اعطت لعلاقاتهما سمة الاستمرار والصلابة والقوة والدوام ، لان ذلك يحقق مصلحة الطرفين من خلال تنظيم استغلال الارض وتدفق خيراتها .

اما علاقة المتولي بفلاحي ارض الوقف فهي محددة تنتهي بانتهاء تعيينه من قبل المؤسسة التي اوقفت الارض لاجلها ، لذلك كان همه الضغط الدائم على المزارعين لجمع اكبر كمية ممكنة من الضرائب والرسوم والغلال حتى يستمر انتدابه عليها . ويمكن قول الشيء نفسه بالنسبة للملتزم واضافة ، ان لهذا الاخير مصلحة واضحة في التسلط على الفلاحين وحتى نهبهم كي يسترجع المال الذي دفعه للخزينة مقدما . لقد كانت مصلحة الطرفين متناقضة ، فالمتولون والملتزمون يهدفون الى ارهاق الفلاحين والارض معا ، لاستحلابهم المال والمحاصيل ، اما المزارعون فكان همهم المحافظة ، ولو نسبيا على قوة الارض ليضمنوا معيشتهم للسنة التالية . فكانت العلاقات المتبادلة بين الطرفين آنية ، فاترة بل متوترة ينتظر كل منهما انتهاء الموسم لوضع حد لها .

ان طبيعة العلاقات المتبادلة بين الفلاح وبين المسيطر على الارض كانت تنعكس الى حد ما ، على علاقاته بأهل بيته واسرته ، فيحاول ان يجد فيها متنفسا لكل انفعالاته ، وردود فعله التي يكتمها عن مستثمره ، او يجد فيها مجالا للتعويض عن القهر والاستبداد اللذين يتعرض لهما .

وتقتضي متابعة رسم بقية جوانب العلاقات المتبادلة فيما بين المزارعين انفسهم من جهة ، وبينهم وبين المسيطرين على الارض من جهة ثانية ، ان نتناول الضرائب والرسوم الواجب تأديتها والحقوق التي كانت للفلاحين اذا استطعنا ان نسميها حقوقا .

## الضرائب والرسوم المفروضة

يمكن تصنيف الضرائب والرسوم التي يتوجب على الفلاحين دفعها في مجموعتين ، وقد استمرت في العهد العثماني ، كما كانت عليه في العهود السابقة :

١ ـ الضرائب المفروضة على الارض الزراعية وعلى الانتاج وعلى ما يربى فيها من مواش .
٢ ـ الضرائب المتوجبة على الفلاحين انفسهم كأشخاص .

لم تغير الدولة العثمانية شيئا من واقع الضرائب المفروضة سابقا ، كما انها لم تحاول تعديل الاسس في فرض الضرائب على المقاطعات ، وتوحيد النسبة المأخوذة منها ، بل ثبتت ما كان عليه الحال في كل مقاطعة وعملت على تدوينها (١) .

تسمى الضريبة المفروضة على الارض الزراعية بـ ( العشر او خراج المقاسمة ) وهي تؤخذ مالا أو عينا من كل اصناف المزروعات . عن الحبوب والغلال كما عن الاشجار المثمرة وتلك المزروعة خضارا . لكن يختلف المقدار تبعا لنوعية ري الارض او لنسبة تعرضها لاخطار الغزو والسرقة .

اما كيف يدفع العشر فيتلخص بأن يحمل الفلاحون انتاج الارض جميعه لصاحب الارض او المسيطر عليها ، فيدرسه ويوزعه . وينتقي منه ما يخصه لتأدية العشر . فاذا كان من المقطعين حوله الى مخازنه او نقله الى اقرب سوق ، بواسطة الفلاحين وباعه هناك بنفسه . واذا كان من المتولين او الملتزمين نقل ذلك القسم من المحصول الى مخزن القرية . ورغم ان العشر يعني جزءا واحدا من عشرة اجزاء يقسم اليها المحصول ، فان العشر اصبح يساوي عند بعض جامعي الضرائب والرسوم نصف الانتاج او اقل قليلا . وكان الملتزمون اكثر المتلاعبين بتقدير قيمة العشر .

وكانت الضريبة على المواشي تنقسم الى قسمين :

ـ ضريبة على الرؤوس وضريبة على المرعى . وهو مبلغ من المال

---

(١) د. ليلى الصباغ ، سبق ذكره ، ص ٥٣ .

يذهب الى خزينة الدولة على دفعتين في اول الموسم وفي آخره بينما تبقى ضريبة المرعى من حق صاحب الارض وهو الذي يعينها على الفلاح بحسب عدد الحيوانات التي ترعى .

ويضاف الى هذه الضرائب رسم يدفعه الفلاح لاستعمال الطواحين وآخر يسمى ضريبة المسقفات على بيته ، وتذهب هذه الضرائب الى صاحب الارض .

اما الضرائب الشخصية فكثيرة ومتنوعة . فغير المسلمين من الفلاحين يخضعون (١) للجزية ، ويدفعون (٢) رسما خاصا فرديا مفروضا على كل فلاح يتمتع « بحق تصرف بأرض » وتكون قيمته حسب مساحة الارض ونوعها ، اما اذا كان يعمل كأجير في تصرف غيره فيدفع رسما مقداره ( ٢٥ ) اقجة ، وهي كلها تجبى لصالح الخزينة . والى جانبها يدفع الفلاح عند زواجه « رسم زواج » لصاحب الارض تبلغ قيمته نصف ما يدفع الفلاح المسلم عند زواجه .

ويخضع الفلاح المسلم لكل هذه الضرائب عدا الجزية ( مع بعض التفاوتات ) ، اذ يدفع ١٢ اقجة اذا كان متزوجا و٦ اقج اذا كان عازبا . ما لم يكن مالكا لتصرف ما ، ويدفع رسم الزواج مضاعفا .

والى جانب تأدية هذه الضرائب والرسوم ينوء الفلاح بحمل مسؤوليات وواجبات كثيرة تجاه الارض : فهو يبذر كمية معينة من البذور في الوقت الملائم ويعتني بها حتى تنمو وتثمر . واذا ترك الارض دون زراعة لمدة عامين متتالين فانه كان يحرم من حقوق تصرفه ويجبر على دفع ضريبة تسمى « ضريبة الاهمال » ولا يستعيد تصرفه الا اذا دفع ضريبة الاهمال و «طابو» جديدا لصاحب الارض .

## حقوق الفلاح ازاء الارض

وحقوق الفلاح تختصر بحق « التصرف » بالارض مع ما يقتضيه من الاقامة والعمل عليها . فلم يكن بمقدور صاحب الارض استبدال الفلاح او طرده من ارضه الا لاسباب جوهرية جدا كاهمال الارض . حتى في هذه الحالة فهو لا يطرده بل يسجنه ويعذبه ويرغمه على العمل بالقوة (٣) .

---

(1) Gibb & Bowen, islamic society, Part 1, p 241.

(2) Poliak Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon 1250-1900 London , the patronage of Royal Asiatic Society, 1939 , p 64.

(3) Poliak, Feudalism in Egypt. Syria, Palestine and the Lebanon 1250 - 1900 London , the patronage of Royal Asiatic Society, 1939 p 64.

وكانت له الافضلية في الحصول على « حق تصرف » جديد في القرية التي يسكنها اذا دفع الطابو الخاص بها لمالكها . وكذلك تبقى له الافضلية الاولى في استعادة حق تصرف فقده اذا تمكن من دفع ضريبة الاهمال والطابو معا . ومن حقوقه ايضا توريث هذا الحق لاولاده الذكور فينقل اليهم دون دفع اية رسوم لصاحب الارض . كما انه يستطيع نقل حق تصرفه الى غيره عن طريق البيع اذا اجازه صاحب الارض ووافق على ذلك .

ويلاحظ اذن من كل ما ذكر ان حقوق الفلاح كانت شكلية يستطيع المسيطر على الارض ان يتلاعب بها بل يلغيها ساعة يشاء . اذ يمكنه ان يتذرع باهمال الفلاح ، مع معرفته بعجز الفلاح عن دفع ضريبة الاهمال والطابو الجديد فيطرده من الارض ، أو ان يرفض انتقال حق التصرف الى فلاح آخر متمسكا بالقديم ، كما كانت القوانين تمنع الاسر الفلاحية من ترك تصرفاتها والهجرة الى تصرفات اخرى لاي سبب من الاسباب . وارادت بذلك ربط الفلاح بالارض ومنعه من مغادرتها الا بموافقة صاحبها (١) واعطته حق اجبار الفلاحين على العودة الى املاكهم « التصرفية » السابقة حتى ولو بعد عشر سنين من مغادرتهم لها (٢) . ويبدو ان حق التصرف الذي منح للفلاح ليس سوى الحبل الذي ربطه بالارض كرها ، واجبره على العمل لتقديم محصولها او جزء منه لصاحبها تأمينا لمعيشة الطبقة الطفيلية من الفرسان الاقطاعيين ، ومن حاشية السلطان واقربائه (٣) .

ان ما ذكرناه عن علاقة صاحب الارض بالفلاح على الارض الملك وحقوقهما ، يصح عند الحديث عن الاراضي الاخرى الاميرية والوقف ، مع تعديل بسيط بحيث يلعب الملتزم دور صاحب الارض في الاراضي الاميرية ، والمتولي الدور نفسه في اراضي الوقف ، وتذهب الرسوم والضرائب الى الاول في كل حال وقسم منها الى الثاني والباقي الى المؤسسة التي يتبعها الوقف أو الى الخزينة .

ازاء هذه الواجبات المرهقة ، والرسوم والضرائب الباهظة ، والاغلال القوية ، والعلاقات القاسية كان الفلاحون يحاولون تأديتها ما امكن ، والتملص من بعضها ما امكن ايضا . وحاولوا تكييف انفسهم مع ذلك الوضع الصعب ، علهم يصمدون ويستمرون . فكيف تمكنوا من ذلك ؟

---

(1) Gibb & Bowen cp. cit. , part 1 , p 242.
(2) Poliak, op. cit. , p 64.

(٣) د. صباغ ، سبق ذكره ، ص ٥٦ .

## ٢ – نمط الحياة الزراعية : الاسرة وحدة العمل الزراعي

وجد الفلاحون العاملون على كل انواع الاراضي ان القيام بكل المهمات التي انيطت بهم ، وتأدية كافة الرسوم والضرائب يعجز عنها الفلاح اذا عمل منفردا ، وانه لا بد من مواجهتها بصورة جماعية بحيث توفر العناية بالارض فيكثر محصولها ويقل نسبيا العمل المفروض على الفرد .

اعتبر الفلاحون هذه المهام شأنا اسريا ، فتجندوا لها من كبيرهم الى صغيرهم ، من رجالهم الى نسائهم ، يعملون عليها ككتلة واحدة متراصة ، ينظمون العمل عليها . وينيطون كل نوع منه على القادر منهم عليه . فأوجد للنساء والاطفال عمل ، وكذلك قام الرجال بنصيب وافر منه . واصبحت الاسرة بمجملها تمثل وحدة العمل على الارض الزراعية . واقتضت طبيعة ذلك العمل توفير الايدي العاملة ، فسعى الفلاحون الى ان تكون لهم اسر واسعة كثيرة العدد ، وقد تم لهم ذلك عن طريقين : استيلاد الزوجات بشكل متكرر وتمجيد الخصوبة عند المراة ، وتطليق العاقر ، والزواج المبكر لذكور الاسرة اذ يؤدي ذلك الى تزويد اسرة المنشأ الفلاحية بايد عاملة جديدة هي ايدي الابناء من ذلك الزواج ، بالاضافة الى يد الزوجة الجديدة .

وقد وعت ، السلطات الحاكمة التركية والمسيطرون على الارض ، اهمية هذا العامل ، على استمرارية الحياة الزراعية واستقرارها ، فسنوا القوانين التي تنظم انتقال حق التصرف بالارض وحصروه ضمن نطاق الاسرة الواحدة ، بل شجعوا التوالد في الاسرة وبقاء افرادها متجمعين على ارض اقطاعة واحدة ، وربطوهم بشكل جماعي بتلك الارض ، على ان ينتقل التصرف مرة واحدة الى اولاد الفلاح المتوفى ، وعليهم ان يعملوا عليها بشكل جماعي ، ولا يسمح بأن يتصرف احدهم بقسمه . ويشترط لحصول الابناء وحتى الحفدة على ارثهم ان يكونوا مقيمين على الارض نفسها او في القرية عينها ، ولا يتوجب عليهم دفع طابو او رسوم جديدة ويعود حق الارث بعد

ذلك الى بنات المتوفي فاخوته الذكور فأبيه فامه (١) . ويبدو هذا التسلسل المنصوص عن اولوياته ، واضح الدلالة والمرامي اذ يهدف الى تكوين وتشجيع الاسر الفلاحية الواسعة ، الوافرة العدد .

وفي مطلق الاحوال سعت السلطات الحاكمة للتخفيف من التاثيرات السلبية للهجرات الفلاحية على الحياة الزراعية وعلى الفلال ، فوقفت ضد الهجرة اساسا ومنعتها من جهة ، واوجبت اعطاء حقوق التصرف الواقعة في قرية ما . لفلاحي تلك القرية بالافضلية من جهة اخرى . فتجاوزت بذلك امر البحث عن اسرة جديدة ، تنقل من اقطاعة مجاورة مع ما ستخلفه هجرتها من ذيول في مكان عملها السابق .

كان هذا التصرف يضمن استقرار ووحدة تشكيلين اجتماعيين في الوقت نفسه ، عن طريق وفرة العدد في الاسرة وتضامنها ودعم تداخل افرادها من جهة ، وتنظيم الحياة الزراعية بشكل يجعل من القرية نفسها وحدة متآلفة اكثر اتساعا من الوحدة الزراعية البسيطة الاولى التي هي الاسرة الفلاحية .

## الاسرة الواسعة المتفرعة

هذه السياسة على ارض الملك ادت الى تكوين اسرة فلاحية كبيرة . كثيرة الفروع والتشعبات . لا يؤثر نظام الارث الاسلامي الذي يوزع الملكية على تبعثرها . اذ كانت الجماعة الفلاحية بتقاربها وتصاهرها تعود فتجمع ما تفرق ، وتجعل الصلات بين افرادها اكثر التصاقا وتجانسا (٢) . كما ضاعفت الروابط العائلية القوية من مفاعيل التقاليد الاجتماعية ، وخففت من تاثير قوة القهر والتسلط التي كان يفرضها صاحب الارض ، فعاش الفرد ضمن الجماعة وكل ما حوله يقنعه ان النظام الاجتماعي الذي ينضوي تحت لوائه هو افضل النظم رغم القيود التي يرسف فيها (٣) . فعرفت الاسرة الفلاحية بنية صلبة ، قوية قادرة على الصمود حتى في اقسى الظروف لتكاتف افرادها وتوزع قوة الضغط عليها ، واتصفت بقدرتها على الاستمرار ، بل الامتداد والتفرع . وكانت نموذجا لما يمكن تسميته الاسرة الواسعة المتفرعة . وهي ليست سوى امتداد وتطور للاسرة الواسعة الممتدة التي تحدثنا عنها في الفصل السابق والتي انتشرت في العهد الاسلامي الاول على اثر تطور القبيلة وتفككها .

ومن العوامل التي ادت الى تصليب بنية الاسرة الواسعة المتفرعة اثنان : اكتفاؤها الذاتي ، ووضع رب الاسرة المميز . لقد كان باستطاعة

---

(١) د. صباغ ، سبق ذكره ، ص ٥١ .

(2) Gibb, op. cit. , p. 1, p 212 .

(3) Gibb, part 1, p 246 .

هذه الاسرة ان تؤمن معظم احتياجاتها بفضل وفرة عدد افرادها . فكلما كان الانتاج الزراعي يغطي حاجتها من المواد الغذائية ، فان ما تربيه من المواشي كاف لتزويدها ببعض اللحوم والحليب والالبان والسمون . وكانت نساء الاسرة تتولى عملية تحويلها وصنعها . كما كانت تقوم بغزل الصوف والقطن ودبغ الجلود في بعض الاحيان ولحاجات خاصة ، بالاضافة الى نسج البسط والخيام . وكان اقتصاد هذه الاسرة اقتصادا ذا كفاية ذاتية . حتى انه كان يمكن الفلاحين ان يعيشوا فيها دون استخدام نقد البتة : لانهم اعتمدوا على المقايضة والتبادل اسلوبا للتعامل مع الاسر الاخرى في القرية او الاسواق القريبة منها . كما امكن . خلال الحكم العثماني دفع الرسوم والضرائب المتوجبة عينا من المحصول (١) .

وما صح قوله عن الاسرة الواسعة المتفرعة من حيث اكتفاؤها الذاتي يصح قوله عن القرية التي تعيش فيها هذه الاسر ، اذ كانت وحدة متآلفة في حكمها لنفسها وفي كفايتها لذاتها : فعلى رأسها شيخ يحل مشاكلها ، كما لها صناعتها ( نجار . حداد ، صانع فخار ) التي تعجز الاسرة عن القيام بها ، وبائعوها وحراسها . ومسجدها . فنشأت الاسرة بذلك منقوقعة على ذاتها ، متماسكة داخليا . متجهة في تصرفاتها وسلوكها . حتى في زواج ذكورها ، نحو الداخل ، اذ كانت الفتاة المرشحة للزواج هي دائما بين الاقرباء ، اي من ضمن الاسرة نفسها . وهذا عامل عزز صلابة بنية الاسرة الواسعة المتفرعة وتماسكها وانفرادها .

اما وضع الاسرة فكان مميزا . حيث منح سلطة واسعة في القضايا الاجتماعية . فهو الذي يبث التقاليد ويرسخ العادات ويسهر على المحافظة عليها ، ويوزع الادوار الاجتماعية على افراد الاسرة . الا انه كان فردا عاديا بالنسبة للامور الاخرى . فهو يعمل ولا يكتفي بالاشراف ، ويتوزع مع غيره كافة المهمات . من رعاية وحراسة وزراعة وجني محصول .

ورغم ان النساء كان لهن دور ايجابي في الاسرة الواسعة المتفرعة ، حيث عملن جنبا الى جنب مع الرجل في الحقل . وقمن باعمال الرعاية والاحتطاب ، والعمل المنزلي وكذلك باعمال النسيج والحياكة . فانهن كن في مرتبة دون مرتبة الرجل . وكان ينظر اليهن نظرة دونية . حتى ان الرجل كان يحرص على عدم التحدث مطلقا عن نسائه او نساء اسرته ، واذا اضطر الى ذلك ذكرهن بلقب مثل عبدتك او امتك . وحذف اسماءهن على العموم (٢) . او استدرك كلامه بعد ذكرهن بقوله : اجلك الله (٣) كان لفظ

---

(١) د. صباغ ، سبق ذكره ، ص ٦٢ .

(٢) هنري غيز ، بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن ، باريس ١٨٤٦ .
تعريب ، مارون عبود ، منشورات دار المكشوف ، بيروت ١٩٤٩ ، ج ١ ، ص ٨٥ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٧١ .
— محمد جميل بيهم ، المرأة في حضارة العرب ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٣١٥ .

اسم المراة او ذكرها يخفض من قدر الرجل او من قيمته .

على ضوء هذه النظرة يمكن فهم ظاهرة تقبيل يد الزوج كل صباح وعند خروجه من المنزل ، من قبل زوجته . للتدليل على طاعتها وانقيادها له . كما يفهم رد فعلهم غير المرحب حيال ولادة الانثى او شعورهم عند فقدان زوجة . فقد روي عن الفلاحين انهم يشبهون فقدها بالالم الذي يشعر به الانسان عند اصطدام كوعه بشدة فيقولون : انه الم موجع ولكنه لا يلبث ان يزول سريعا (١) .

كما ان تعدد الزوجات كان شائعا في الارياف (٢) للحاجة الماسة لليد العاملة كما اسلفنا .

## وضعية الارض القانونية ونوعية العلاقات الاجتماعية

اوضحنا فيما سبق فروقا نوعية بين الوضعية القانونية للارض الملك والارض المقطعة وبين الوضع القانوني لباقي الارض الاميرية وارض الوقف . فهل يترتب على هذه الفروقات في الوضعيه ، فروقات في نوعية بنية الاسر الفلاحية التي اقامت عليها ؟ — اجل . وهذا توضيح لذلك .

ان المتولي او الملتزم لا يقوم بجمع الضرائب والرسوم بصورة دائمة ، وعمله هذا لا ينتقل بالارث الى ابنائه . بل يبقى فيه ما دام ينتدب لهذه الغاية. فكان همه الرئيسي اذن ان يغتنم الفرصة ويثري خلال فترة وجيزة من الزمن . لذلك اتسمت علاقاته بالفلاحين بالقسوة والشدة والارهاب والضغط كي يدفعوا ما يتوجب عليهم . وغالبا ما يدفعون مضاعفا . ورغم ان حق التصرف هو حق الفلاح على الارض يعترف به المتولي والملتزم . الا انهما لم يتورعا في حالات كثيرة . عن التذرع بحجج كثيرة . واهمها التشدد في الضغط على الفلاحين مما استتبع احيانا ، مقاومة عفوية . بعد الصبر الطويل على الظلم والاذى والهوان . او رفضا وتمنعا عن دفع الضريبة . كان يجد احدهما في ذلك سببا كافيا لتجريد حملة على تلك القرية . يحارب اهلها ، ويهاجم منازلهم . وينهب منقولاتهم ومواشيهم . فيهجر الفلاحون القرية خوفا فتقفر . عندئذ كان ياتي بفلاحين جدد يفلحونها على حسابه الخاص ، ولقاء اجر (٣) . فاية قيمة تلك . لحق من الحقوق ، في ظل متول او ملتزم ، يستطيع ان يغتصبه كيفما يشاء ، وحين يريد ؟ لقد كان هذا النوع من الارض تحت رحمة هؤلاء . فلم تعرف استغلالا مستقرا ولا استثمارا دائما بواسطة نفس الجماعة الفلاحية .

---

(١) هنري غيز ، سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٧١ .

(٢) د. صباغ ، سبق ذكره ، ص ١٥٣ .

(٣) هنري غيز ، سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١١٢–١١٣ .

## الأسرة العشيرية

كانت السمة الرئيسية لعلاقات الاستغلال على بقية الاراضي الاميرية واراضي المشاع المتبادلة بين المسيطرين عليها وبين الفلاحين هي عدم الاستمرار والاستقرار . فمن جهه يشعر الفلاحون انهم مهددون بالتهجير في اي وقت او بمضاعفة دفع الرسوم والضرائب ، ومن جهة اخرى يشعر الملتزمون والمتولون بان سيف الاستبداد مسلط عليهم . فلم تكن المصلحة واحدة باللنسبة للجميع . فحيث ترغب الفئة الاولى الاحتفاظ بشيء من قدرة الارض ، لاستغلالها في السنوات اللاحقة ، تأمينا لموارد العيش واستمراره ، كانت الفئة الثانية تستنزف الارض والفلاحين معا ، خوفا من ان ياتي يوم تضيع عليهم فيه بقية خيراتها . هذا الاستغلال لم يبق شيئا للفلاحين ، فكانوا يشعرون انهم ليسوا اجراء ، بل مجرد عبيد مرتبطين بالقوه . بالارض ، وان وضعهم على الارض يكاد لا يوفر لهم سوى ما يسد رمقهم ، فعملوا دون حافز سوى البقاء على قيد الحياه . او الفرار والهروب انى تيسر لهم ذلك . كانت جماعاتهم تفكر دائما بالهجرة والانتقال معللة النفس ، كاجدادهم البدو الرحل ، بوجود ظروف افضل للحياة في مكان آخر . وقد واجه الفلاحون الذين يعيشون على بقية الاراضي الاميرية واراضي الوقف واقعهم غير المستقر بعدة طرق :

١ ــ القيام باعباء العمل الزراعي بشكل جماعي ، اي اشتراك الاسرة باكملها فيه . والسعي للاكثار من الايدي العاملة فيها ، الى درجة كانت الاسرة فيها تضم عدة اجيال من الناس . كي تتمكن من توفير كافة الرسوم والضرائب المتوجبة على الارض وعلى الاشخاص انفسهم . كان تركيبها اقرب الى العشيرة القبلية منه الى الاسرة ، بسبب حجمها . واستمرار الرغبة في النزوح والتنقل ، ودوام التقاليد والافكار القبلية المتعلقة ، بمنزلة المراة ووضعها فيها ، والموقف المشترك من الشرف والثار وغيرهما . لكن يبقى ما يميز نمط الاسرة هذا عن العشيرة هو المرجح ، اذ ترتكز في حياتها على العمل الزراعي . وعلى احترام الوالد ومنحه السلطة وليس لشيخ العشيرة ، وعلى قبول الضيم والصبر عليه وعدم تعاطي الغزو مثلا .

٢ ــ اللجوء الى اقربائهم واهلهم الذين لا يملكون « حق تصرف » معين وطلب مساعدتهم والانضمام اليهم ، لخدمه الارض وللقيام بما تتطلبه من اعمال لقاء اجر ، او تقاسم الغلال او حتى الاشتراك معهم في حيازة « حق التصرف » الخاص بالارض التي يعملون عليها .

نتيجة لهذا التدبير كان تشكيل الاسرة يتسع ويمتد محافظا دائما على قاعدة مزدوجة قوامها قرابة الدم والعمل المشترك .

٣ ــ الهرب الجماعي للاسر من هذه القرى والاراضي . تذكر بعض الوثائق بان بعض القرى في ولايتي طرابلس ودمشق كانت تضم ( ٣٠٠٠ ) نسمة قبل العهد العثماني ، فاذا بها في اواسط هذا العهد قد تناقصت

واصبحت لا تتجاوز ثمانماية نسمة (١) .

٤ ــ الهروب الافرادي تجاه المدن . وقد اصبحت جماعاتهم من اتباع بعض الفرق الصوفية ، حيث احترفوا التنقل على اقدامهم من مكان الى آخر بالرايات والطبول جاذبين الناس بمظاهرهم وسلوكهم ، واستعطائهم وتسولهم ليعيشوا ، ولم تكن لهم مصالح دنيوية ولا يفكرون بالغد (٢) .

ويمكن ان نطلق على هذا النمط من البنيات الاسرية نمط الاسرة العشيرية ، فهي وان لم تكن عشيرة ، الا ان اسلوب حياتها واهتماماتها ونظراتها واعتقاداتها والحلول التي التجأت اليها تجعلنا ننسبها الى عشيرة ، فنقول : « اسرة عشيرية » . وهي في واقع الامر ليست سوى مرحلة جديدة من تطور الاسرة ــ العشيرة (٣) التي انتشرت في العهد الاسلامي الاول . وكانت هذه الاخيرة بدورها ، مرحلة متقدمة من تطور القبيلة العربية وتفككها، وبروز العشيرة كوحدة اولية لتنظيم الحياة الاجتماعية للجماعات .

---

(١) عن د. الصباغ ، سبق ذكره ، ص ٥٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٩٠ .

(٣) انظر : الاسرة ــ العشيرة في الفصل الثاني من هذا البحث .

## ٣ - ثبات تشكيلات الاسرة الفلاحية

ان الوضعية القانونية للارض والتـي اوجدتها ظروف تاريخية محددة وبعض الاجتهادات الدينية . افرزت تشكيلات اسرية تتوافق مـع تلـك الوضعية من جهة ، وتمنح الفرصة للجماعات لكي تؤمن معيشتها ورزقها . فقد وجدنا ان الارض الملك وبعض الارض الاميرية . اي تلك المقطعة اقطاعات دائمة . عاشت عليها اسر واسعة متفرعة تلاءمت شروط حياتها مع الظروف التي وفرتها لها طبيعة وضعية تلك الارض .

اما بقية الاراضي الاميرية واراضي الوقف ، بما تتصف بـه من تأرجح وعدم ثبات ، افرزت اسرا على شاكلتها ، مطبوعة على عدم الاستقرار ، وعدم الاستمرار ، وتراخي الصلات والعلاقات . فالصلة بين نوعية الارض وطبيعة الاسرة المتشكلة واضحة وظاهرة .

لقد تضافرت جميع العوامل لتكرس الحالة المتردية التي طبعت حيـاة الفلاح في المنطقة العربية ، خلال الحقبة التي ندرسها من التاريخ . وبقيت اوضاعه الاسرية تشكل جزءا بل انعكاسا لتلك الوضعية . حتى انه يخيل للباحث ان كل شيء راوح مكانه ، خلال فترة تسعة قرون من الزمن ، تخللها احيانا بعض التحسن كان لا يلبث ان ينكفىء ، وسارت احيانا اخرى مـن سيىء الى اسوا ، الى ان تعود ، مدفوعة بقوة التوازن والمحافظة ، الـى النقطة التي انطلقت منها .

في الواقع ، لعبت الدول التي توالت على حكم المنطقة العربية ، دورا هاما في تجميد الوضع العام في البلاد على ما هو عليه ، بل تثبيته على احواله المتخلفة القديمة متخذة من العوامل الدينية والاجتماعية ستارا (١) وحجـة لتبرير هذه السياسة .

وحين فتح العثمانيون هذه الديار اكدوا في مجمل قوانينهم ، وخاصة

---

(١) د. ليلى الصباغ ، سبق ذكره ، ص ٤٣ و٤٤ .

الزراعية منها ، على العادات التي كانت متبعة في عهد المماليك قبلهم . كانت نظرتهم تتلخص في ان ما جرى في الماضي ايام من سبقهم ، يجب ان يجري في عهدهم . الى درجة انهم نظروا في ملكية الارض الزراعية وغلالها، والفلاحين، والعلاقات التي كانت تربطهم باسيادهم من اصحاب الارض ، والعادات الزراعية ، والضرائب التي كانت تجبى ، فسجلوا كل ذلك وسهروا على المحافظة عليه ، دون اي تبديل ، حتى في مقادير الضرائب المفروضة ، وبلا اي التفات او اعتبار لما يمكن ان يحدثه تطور الاوضاع . ولم يسمحوا بأي تبديل في وضعية الارض القانونية ، او في العلاقات المترتبة على ذلك. فمنعوا تحويل الاراضي الزراعية الى اوقاف (١) ، لان ذلك ينتقص من واردات الخزينة ، وهو امر غير متوقع ولا يمكنهم حله على ضوء المعلومات المدونة عن الماضي من الحالات ، كما منعوا الفلاحين من تحويل الارض الزراعية الى ارض رعوية وبالعكس (٢) لان هذا الوضع يخلق خللا في ميزانية الخزينة يجب اعادة التوازن اليه . كما بقيت مقادير الضرائب والرسوم على ما هي عليه دون ان يقابلها ، ابقاء شبكة توزيع المياه والادوات المستخدمة فيالزراعة على نفس درجة الكفاءة . لقد هبطت محاصيل الفلاحين ، وبقيت الضرائب على حالها ، بل زادت في اغلب الاحيان ، وتراجع مستوى حياتهم . كانوا يدركون بانهم يعملون بقوة ، ولا يكادون يؤمنون معيشتهم . فلا يبقى من المحصول او الغلال ما يمكن اعتباره فائض انتاج ، ليشكل حافزا يدعوهم لمضاعفته ، ويخلق لهم ، بالتالي ، دافعا ، لتجديد وسائل عملهم ، او طرق عنايتهم بالارض . فاستمروا يحفظون خصوبة التربة بالطرق المألوفة ، اي بتركها لمدة سنتين دون زراعة ، او بتسميدها بالسماد الحيواني الذي يجمعونه في المزارع (٣) ، وتابعوا اعتمادهم على المحراث الخشبي الذي لا يشق سوى القشرة السطحية من الارض والتربة ، والمنجل والنورج ، وكان الفلاح يصنع كل هذه الادوات بنفسه ليستعملها . اما طرق الري فبقيت تستمد على الطبيعة في اكثر الاحيان اي « الري البعلي » ولم تفعل الدول ، وخاصة العثمانية ، شيئا في مجال ترميم شبكة للاقنية الموجودة للري ، او توسيعها او انشاء الجديد منها . وباختصار ساهمت الثوابت التالية على تجميد الوضع على حاله في الحياة الزراعية :

١ ـ ثبات الوضع القانوني للارض وعدم ادخال اي تعديل عليه .
٢ ـ تجميد وضع العاملين علىالاراضي الزراعية ومقاومةاي تطوير له.
٣ ـ ضيق المجال المتاح والمسموح به لنقل ملكية الاراضي وحقوق التصرف .
٤ ـ منع تغيير وجهة استعمال الارض ، وابقاؤها على الدوام اما

---

(١) الا بعد موافقة السلطان او ممثله ، نفس المصدر ، ص ٤٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٦ـ٥٧ .

للرعي او للزراعة .

٥ ــ تجميد مساحات واسعة من الارض بعد ضمها الى اراضي الوقف واهمال زراعتها ، بانتظار حلول ساعة التصرف بها .

٦ ــ تلزيم قسم من الاراضي الاميرية واراضي المشاع الى ملتزم جديد كل سنة بحيث قضي على استمرارية معالجتها وتحسين استثمارها وتطويره .

٧ ــ اتاحة دفع الرسوم والضرائب عينا من المحاصيل .

كل هذه العوامل كانت تشكل قالبا جامدا ، بل قمقما حجزت فيه الحياة الزراعية وتجمدت . كان فيه كل شيء يدعو لتكرار القديم دون اي تعديل ، لان كل شيء بقي على حاله . فلم يفسح له المجال ليقتني جزءا من فائض انتاجه ، ليعزز حوافزه للعمل والربح ولتكوين راس مال بسيط . ولا خلقت له ظروف موضوعية بديلة عن تلك التي عرفها اباؤه واجداده ، ان على صعيد وجهة استعمال الارض ، او على صعيد توزيع المياه ، او الطرق المستعملة لاستغلال الارض . استمر همه ان يعيش ويعيش فقط . وبقي نمط حياته لا يتبدل ولا يدخل على حياته جديد ليحركها . فكما وضع المجتمع في قالب وجمد ولم يسمح له الا بتكرار صوره ، كذلك جمد وضع الفلاح ومستوى حياته ، وتجمدت كذلك التشكيلات الاجتماعية التي ضمته ومن ضمنها مؤسسة الاسرة . فالظروف المتجمدة استمرت تفرز نفس التشكيلة الاسرية ، خلال كل تلك الحقبة . وبدورها ، تابعت الاسرة حياتها على نفس الوتيرة ، محافظة على التقاليد والقيم ذاتها . فلقد كان التعليم في المدن نادرا ، وكان الجهل فيها متفشيا ، حتى على مستوى الرجال الرسميين في الدولة (١) ، فكيف يكون وضع الفلاحين معه ؟

بحثنا حتى الآن في بنية الأسر التي تشكلت في الارياف والاراضي الزراعية وفي تراكيبها ، اي اقتصرت دراستنا على الاسر الفلاحية ، فهل نجد نفس البنيات الاسرية في المدن ، وما هو العامل او العوامل التي حتمت قيامها على هذه الشاكلة او تلك ؟

---

(١) محمد جميل بيهم ، سبق ذكره ، يسرد وقائع جلسة للمجلس العثماني، فيذكر بيانا صادراعنها جاء فيه استبعاد وجود سبيل في البحر لوصول آلمراكب الروسية الى بلادهم ( اي تركيا ) . ص ٣٠٠ وقد اكد نشر هذا الخبر في مجلة « دزننما » التركية ( م ١ ، ص ٢٥٥ ) .
—— Lavallé, Histoire de la Turquie, p. 211.

## ٤ – الوضع العام للعمل الاقتصادي في المدن

### النشاط الاقتصادي عامل محدد

في كل العهود والحقبات التاريخية كان تقسيم العمـــل الاجتماعي واضحا بين الريف والمدينة . فقد اهتم الريف بالعمل الزراعي ، بينمـــا شكل النشاط الاقتصادي ـ الحرفي والتجاري طبيعـة العمل الذي تعاطته المدن وضواحيها .

واهمية الاراضي في الارياف تنبع من كونها المصـــدر الوحيـــد للرزق والمعيشة . اما في المدن حيث يعتاش أهلها من مردود اعمال غـير زراعيــة فان الارض ، خاصة الصالحة للزراعة منها ، تتوقف عـن لعب دورهـــا الاساسي الذي تلعبه في الريف ، الا وهو منح التقدير الاجتماعي لاصحابها ، واعطاؤهم مركزا مميزا في الحياة الزراعية . في المدينة ، تمتلـك كل اسرة قطعة من الارض ، تقيم عليها منزلها فتتساوى بالتالي جميعـا مـــن حيث ملكيتها للارض . لكن ما يميز المدنيين عن بعضهم ، هـو نوعيـــة وطبيعـة الاعمال والنشاطات الاقتصادية التي يعملون بها ، وبتعبير آخـر ان التقدير الاجتماعي يمنح في المدن عادة للذين يجمعون ثروة من تعاطيهم مهنة معينة . وفي مرحلة لاحقة تنتقل نقطة ارتكاز التقدير من الشخص المعين الـى النشاط الاقتصادي الذي يمارسه . هكذا اصبحت بعض المهن مصدر تقدير كبـــير من جمهور الناس لانها كانت تدر اكبر كمية ممكنة من الارباح .

وعرفت المدن المنتشرة في منطقتنا العربية ، خلال الحقبة التي ندرسها نوعين من النشاطات الاقتصادية : الحرف الصناعية والتجارة . ولم يكونا منذ البدء نشاطين منفصلين ، اذ ابتداا كنشاط واحـــد يتلخص فـــي ان يقدم صانع يعمل لحسابه الخاص بضاعة سلعة معينـــة ويبيعهـا مباشرة الـــى المستهلك . او ان يلجأ المستهلك الى الصانع مباشرة يطلب منه سلعة معينة محددة الشروط . ومع الزمن اصبح التاجر او العميل هو الذي يقدم المادة الخاصة للصانع ليقوم بتصنيعها حسب الطلب . فالصانع في ذلك الزمن ،

وفي الحالتين ، لم يكن بحاجة لتكديس المواد الخام ، التي تدخل في صناعته، لان عمله يقتصر في معظم الاحوال على كميات محدودة بنـاء على توصيـات مسبقة (١) .

## التركيب الداخلي الوراثي للحرف الصناعية

ان الصناعة الحرفية القائمة آنئذ لم تكن تتطلب راسمالا كبيرا ، طالما ان الكمية محدودة او لان التاجر هو الذي يقدم المادة الخام ، بل كانت تتطلب اتقانا في العمل وسرعة فيه ، اي ايدي عاملة ماهرة ، على درجـة عالية مـن الكفاءة ، ومبلغا من المال ليدفع كأجور لهذه الايدي . غير ان العمـل الحرفي كان يعتبر سرا من الاسرار ، ولا ينتقل « سر المهنة » الى اي كان بل كـان ينتقل ابا عن جد ، ويتولى الاب تدريب ابنائه . والنتيجة ان معظم الحرف الصناعية حافظت على كونهـا وراثية ، بحيث احتكرتهـا بعض الاسر ، ثم تكرس هـذا الاحتكار عن طريق « الاصناف » او « الطوائف » او مـا يمكن تسميته بتعبيرنا الحديث « بالنقابات » .

هذا الواقع هو الذي يفسر لنا جانبا مـن حالات الانحدار والانحطاط التي كانت تصيب الصناعة اثر كل غزوة خارجية او فتح عسكـري للديار العربية . فقد روي « ان السلطان سليم الاول نقل امهر الصناع من القاهرة وحلب ودمشق الى استامبول ، اثناء فتحه لسورية ومصر ، تماما كما فعل سلفه تيمورلنك الذي نقل هذه الفئة من المواطنين الى سمرقند لتزدهي بهم عاصمة ملكه » (٢) . لقد سهل التركيب الداخلي الوراثي للحرف الصناعية امر القضاء عليها بسبب نقل او انتقال تلك الاسر حاملة اسرار المهن المشـار اليها ، الى عواصم الممالك وحواضرها ، اكراها او اختيارا بحثا عن التشجيع المادي وازدهار الاعمال .

وعماد كل حرفة صناعية صانع ماهر ، فاذا زال قبل ان ينقل اصولها وقواعدها الى ابنائه ، تزول معه السلعة التي كان يصنعها بانتظار ان يفرز مبدأ التجربة والخطأ صانعا جديدا ليتابع انتاج السلعة .

يقوم رب الحرفة بتعليم ابنائه ، أصولها وينقل اليهم سرها تدريجيا . ويجب الا يتبادر الى الاذهان ان جميع العاملين في الحرفة الصناعية الواحدة هم من اسرة واحدة او يرتبطون بروابط القرابة . فكـل عمل صناعي يشتمل على عدة مراحل هي المرحلة التحضيرية وتليها مرحلة تنفيذيـة ثـم تختمهـا مرحلة الجمع والانجاز . ويمكن القول ان المرحلتين الاولى والثالثة تجسدان سر المهنة ، لذلك تناطان عادة برب المهنـة وبأبنائـه ، تعليما وتنفيـذا ، أمـا المرحلة الوسطى اي تنفيذ ما فصل وتنظيمه وتحضيره للجمع ، فـلا سر فيـه البتة ، ويقوم على عمل عادي لا يتطلب مهارة بل تركيزا واهتمامـا ، لذلـك

---

(١) د. ليلى صباغ ، سبق ذكره ، ص ٦٨ .

(2) Encyclopédie de l'Islam, Art, Sélim 1 .

كان يعهد به الى الاجراء او المتمرنين . وهاتان الفئتان من العمال الحرفيين لا يكلفان شيئا يذكر ، اذ ان الاجور في تلك الاونة لم تكن مرتفعة بل كانت ذات مستوى منخفض بالنسبة لمستوى الحياة العام والاسعار (١) ، أما فئة المتمرنين فكان معظم افرادها لا يتقاضى اجرا ، بل يقدم عمله مجانا مقابل تدريبه على المهنة . وغالبا ما كان يمضي واحدهم فترة طويلة كمتمرن دون ان يتمكن من الاطلاع على سر الحرفة ، أو أن يصبح بامكانه انجاز سلعة . ورب العمل أو صاحب الحرفة يقصد ذلك ، خوفا من المضاربة ، وتأمينا لمستقبل ابنائه . غير انه يصادف احيانا ان ينتقل سر المهنة الحرفية الى متمرن لا يرتبط بصاحبها بروابط القرابة ، عن طريق رب العمل نفسه لسبب من الاسباب ، أو ان يكتشف بنفسه أصولها بالمراقبة الدقيقة .

## التدابير المعيقة لتطوير العمل الحرفي

حاول الصناع ان يحافظوا على أوضاعهم وان يحسنوها بشتى الوسائل، فاحتكروا لاسرهم بعض الحرف وصناعة بعض السلع ، وانشأوا تنظيمات مهنية اناطوا بها دور المراقب والمعيق لدخول الجماعات الجديدة في سلك الحرفة المعينة . وأوجدوا لهذه التنظيمات نظاما داخليا صارما يكاد يقف في وجه تطور المهنة وتحسين السلعة المنجزة ويجمد أوضاعهما على ما هما عليه .

والتقت أهواء الصناع مع اهواء السلطات التركية الحاكمة ، الراغبة على الدوام بابقاء كل شيء على حاله ، لتبقى هي على حالها فثبتت تدابير الصناع التي تضمن مآربها واضافت اليها قوانين وقواعد جديدة ، جعلت العاملين في كل تلك الحرف في قبضتها دفعة واحدة ، وشددت عليهم مراقبتها . فأرضتهم وضمنت تحقيق أهدافها البعيدة في آن معا ، وقضت على كل تحرك ممكن ، سياسي أو مهني أو ديني ، يفكر به أحدهم ضدها . فكيف تم لها ذلك ؟

لقد عرفت البلاد العربية فرق القرامطة والاسماعيلية ، وانماط حياتها منذ القرن التاسع الميلادي . فتأثر الحرفيون بها (٢) وكان لهم معها علاقات. وكان من نتائجها ان نظموا صفوفهم المهنية على شاكلة تلك الفرق . ثم نشأت تنظيمات الفتوات ممثلة بجماعات « الآخي » (٣) في الاناضول فعززت ذلك الاتجاه الذي كان يشق طريقه بين الحرفيين . وما ان تأسست الفرق الصوفية

---

(1) Bonné : State & Economics in the Middle East, p. 232.

(٢) علي الحسني ، تاريخ سورية الاقتصادي ، دمشق ١٣٤٢ هـ ، ص ٢١٥ .

(٣) تورد د. ليلى الصباغ ، الحاشية التالية عن طبيعة الآخي: جماعات من التجار والصناع نشأت في عهد السلاجقة في بلاد آسية الصغرى لتدعيم الحكم الاداري فيها . وكانت أشبه بجمهوريات صغيرة يسيطر رؤساؤها على المناطق المجاورة لهم لسلطتهم الدينية والاقتصادية معا . المرجع سبق ذكره ، ص ٧١ .

في الديار العربية ، حتى وجدت السبيل امامها ممهدا ، فانتشرت على نطاق واسع واصبح لها مريدون واتباع . وكان بينهم كثير من الحرفيين والصناع . فقوي التيار الى درجة انتهى فيها اكثر العاملين في بعض فروع حرفة معينة الى طريقة واحدة . فاقتبسوا عنها الكثير ، خاصة ما تعلق منها بعلاقاتهم المتبادلة . فتكرس وجود « الصنف » ( أي صنف السلعة ) أو « الطائفة » ( جماعة العاملين في حرفة معينة واحدة ) او ما نسميه اليوم « نقابة » . كل صنف يضم ثلاث فئات من العاملين هم: المعلمون والصناع والمبتدئون . واصبح على كل صانع ان ينخرط في جماعة حرفية ، وعلى كل مبتدىء أن يرتبط بمعلم ليعلمه سر المهنة وتقاليد الجماعة وليشهد له عندما يتقن عمله ويصبح مهيأ ليحترف الصنعة منفردا . تماما كما كان حال الفرق الصوفية وتنظيمها، خاصة ما تعلق منها بعلاقة المريد بشيخ الطريقة الذي عليه أن ينقل سره وان يعلمه تقاليد الفرقة .

كان التركيب الداخلي للجماعة الحرفية يتوافق مع تركيب الاسرة من جهة باعتبار ان معظم العاملين في الحرفة هم من الاقرباء ، ومع تقاليد الفرق الصوفية من جهة اخرى ، وهو على الشكل التالي :

لكل حرفة شيخ ينتخبه معلمو الصنعة او ( الكار ) من بين الذين اشتهروا بحسن الاخلاق ، وامتازوا بمعرفة اصول المهنة ، وان يكون مقربا من الناس والحكومة على السواء (١) . ويحيطون طريقة انتخابه وتسميته وتكريسه على يد شيخ المشايخ ، الذي هو بمثابة رئيس اتحاد النقابات ، بعد ان يسلمه ( العهد ) ويدخله على ( بساطه ) بكثير من المظاهر الاحتفالية الصوفية .

وللتأكيد على الطابع الاسري للحرف الصناعية ، كانت المشيخة في بعض الحرف تنتقل بالارث من الاب الى الابن شرط ان يوافق على ذلك معلمو الحرفة (٢) ، وتمتد فترتها مدى حياته .

وسلطته واسعة تطال كل افراد الصنف الى درجة يقاصص فيها المذنب بالطرد من الصنف او باقفال دكانه ، او بفرض جزاء نقدي ، أو بالتشهير به علنا أو بسلعته المصنوعة . ولشيخ الكار وحده الحق « بشد » المبتدئين : وهي حفلة يتحول فيها المبتدئون الماهرون الذين اتقنوا الصنعة الى « معلمين » ويعترف بدخولهم رسميا كصناع في الحرفة ، ويجري هذا باحتفال خاص بحضور أعضاء الصنف أو النقابة ومعلميها ، تجري فيه مراسيم شبيهة بتلك التي تنقل المبتدىء في طريقة صوفية الى رتبة درويش .

---

(١) معظم المعلومات التي ترد عن الحرفة والنقابات ماخوذة من المقالة العلمية التي قدمها الياس عبد الله وكان قنصلا لهولندا في دمشق ، الى مؤتمر المستشرقين المنعقد في مدينة لايدن سنة ١٨٨٣ . ونقلها عنه وترجمها محمد جودت في كتاب عنوانه : ذيل على فصل ( الاخية الفتيان التركية في كتاب الرحلة لابن بطوطة ) استانبول ، ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م.

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٠ .

وكان يساعد شيخ الحرفة شاويش هو عبارة عن موظف تناط به التدابير الاجرائية والتنفيذية بحق أفراد الصنف ؛ وهو أشبه ما يكون بالابن البكر في الاسرة الذي يراقب تنفيذ أوامر الوالد .

**القيود الرسمية على « الاصناف »**

ولكي تكتمل الصورة لا بد من متابعة رسمها واضافة الجانب المتعلق بالسلطات الحاكمة ، اي المماليك ومن بعدهم الاتراك ، اذ جمعت كل تلك الحرف تحت سلطة « شيخ المشايخ » وعينته تعيينا من بين المقربين لها . فكان رئيسا لاكثر من مئتي حرفة يتمتع بصلاحيات واسعة جدا ؛ يأمر وينهي ويقاصص ، ويفصل في كل مسألة . ويخضع له سائر مشايخ الاصناف وأفرادها ، وله صلاحية ضربهم بالعصا ، أو تكبيلهم بالقيود او القائهم في السجن عند الاقتضاء . وكان ينتدب عنه « نقباء » أي عيونا وجواسيس ليحضروا اجتماعات كل حرفة ويشكلوا صلة الوصل بينه وبين كافة مشايخ الحرف ، أي بين السلطة والصناع مجتمعين . وفوقهم جميعا نصبت السلطة قاضيا تركيا (١) اناطت به مهمة مراقبة اعمال الحرف وحساباتها وضمان عدم خروجها عن القواعد والاصول ، اي اكراهها لتبقى في حالة الهدوء التام . ولكي تضمن ولاء القاضي المستمر لها أعطته رشوة دائمة ، اذ سمحت له بتقاضي نسبة ( ٢٫٥ ٪ ) من قيمة ما يقضي به (٢) ، كما اعطته اجرا يتناوله من ضريبة خاصة مفروضة على جميع التجار (٣) . فكان هذا القاضي ينظر في الخلافات الناشبة بين الصناع انفسهم ، أو بينهم وبين المستهلكين ، أو بين الصناع والتجار ، ويناط أمر تنفيذ أحكامه بالمحتسب .

ويبدو ان الحكومات كانت تخاف من هذه النقابات وتخشى تحركاتها فيما لو انصرفت الى لعب دور سياسي . فضيقت من المراقبة الحكومية عليها ، وبررت كل تدابيرها بحجج حماية الصناع ومصلحتهم حينا ، وحماية المستهلك حينا آخر ، وهي في كل تصرفاتها انما تبغي تشديد قبضتها عليهم جميعا وابقاء الوضع الحرفي وجماعات العاملين في ميدانه مجمدا ، غير قادر على الحركة .

اقتضت تدابير السلطة ان لا يتجاوز عدد الحوانيت التي تمارس فيها الحرفة العدد المسموح به والمخصص للحرفة المذكورة . فكما ان المبتدىء لا ينتقل الى فئة المعلمين الا بعملية « شد » كذلك فان فتح حانوت لممارسة الحرفة كان يقضي الحصول على امتياز . والامتياز محدود يسمح فيه

---

(١) المرادي ، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، القاهرة ، ١٢٩١ ﻫ ( ١٨٧٣–١٨٧٤م ) ج ٣ ، ص ٨٩ .

(٢) د. ليلى الصباغ ، سبق ذكره ، ص ١٢٦ .

(3) Gibb & Bowen, op. cit. , part 1, p. 289.

للمالك ان يتابع عمله بمكان معين ، هو سوق المهنة . وهكذا تم حشر الصناع في أسواق خاصة بهم لتسهل مراقبتهم ، فظهرت الاسواق المتخصصة ، هذا سوق النجارين ، وذاك للنحاسين ، وذلك للخياطين وهكذا . واستتبع هـذا الامـر ، أن أصبح الامتياز سلعة احتكارية ، تبـاع أو تورث حسب العرض والطلب . اما بيع تلك السلع فخاضع للتسعير الرسمي فقـط ، وهو الزامي قضى على المنافسة الحرة مع ما تتركه من آثار ودوافع لتحسـين السلعـة وتربية الزبائن والمستهلكين . كما الزمـت « الاصناف » بعـدم ادخـال اي تعديلات أو تغيير في شكل السلعة المصنوعة . وحرمت عليهم صناعة سلعـة غير مصرح أو مسموح بها في نص الامتياز .

انعكست هذه القيود الرسمية الحكومية على الاصناف والنقابات ذاتها ، خاصة وان توجيهها كان بيد شيخ المشايخ فأضافت الـى تقاليدهـا ، التي ذكرنا شرحها ، قيودا الزمت بها المنضوين تحت لوائها ، فأوجبت ان تتكرر المصنوعات على نفس الشاكلة وان تتصف بنفس المواصفات ، فوضعت النقابة شروطا معينة يجب ان تتوافر حكما في تلك المصنوعات . كما انها وقفت ضد احداث أي تغيير في شكل البضاعة . وذهب شيخ النقابة الى التشهير ببعض الصناع الذين سولت لهم انفسهم ان يدخلوا شيئا من التحسين أو التعديـل على مصنوعات حرفتهم . « فكان شيخ الكار يحضرها ويقصها ويعلقهـا فـي السوق ليصير صاحبها عبرة لمن اعتبر » (١) .

وبنتائج كل هذه التقاليد والقيود ، المفروضة ذاتيا أو رسميـا ، ألغـت النقابات بايحاء من السلطة ، دور العقل الفردي الخـلاق ، وأحلـت محلـه تقاليد جامدة . وعرقلت الطموح الفردي بالغائها المنافسة وتحديدها اسعـار السلع بأكثر مما تستحق . فوجد كل صانع انه حصل على اكثر ما يريد دون بذل أي جهد اضافي ، وحدت بنفس الوقت من الاندفاعات الخاصة وجعلتها تدور ضمن سور الجماعة . اما الجماعة فقد حجزتهـا داخـل مـا يسـمى « بتقاليدها » المتوارثة ، التي جمد التطور بسببها كي تبقى صالحة للزمن . وأوقعتها كمجموعة وكأفراد في شباك الفرق الصوفية ، يملأون أوقات فراغهم عن طريقها ، بالهيام والبحث والذوبان والضياع في الاكوان العليـا وممارسة شعائر واحتفالات ومظاهر أبعد ما تكون عن مبادىء الفلسفة الصوفيةالحقيقية.

## التجارة وتنظيمات العاملين بها

وقبل أن نبحث عن الانعكاسات التي تركتها اوضاع العاملين في الصناعة الحرفية وتنظيماتهم المهنية عـلى حياتهم الخاصـة ، وعلى تجمعهـم الاسري ونمط حياتهم ، سنبحث اوضاع قسم آخر من مواطني المدن العربية ، الذين تعاطوا التجارة ، خلال نفس الحقبة التي ندرسها .

---

(١) محمد جودت ، نفس المصدر ، ص ٣٣١-٣٣٥ .

لعب الحج دورا هاما جدا في الحياة التجارية للمناطق العربية . فقد كانت قوافل الحجيج تقطع المسافات بين مراكز انطلاقها وبلاد الحجاز ، وتمر بمختلف المدن ذهابا وايابا . ولم يكن الحج رحلة دينية فقط يؤديها المؤمنون من الناس ، بل كانت كذلك رحلة تجارية يستفيد كثير من التجار عن طريقها لسببين : فالحماية مؤمنة ضد غزوات البدو وغاراتهم ، والضرائب والرسوم لا وجود لها . كان الحجاج يحملون معهم بضائع بلادهم الى جانب مؤنهم الغذائية، ليبيعوها في المدن التي يمرون بها ويشترون مقابلها عند عودتهم ، بضائع تلك المناطق . وكانوا معفيين من رسوم الصادر عند توجههم الى الديار المقدسة . ومن رسوم الوارد عند عودتهم منها (١) .

وارتبطت الحركة التجارية اذن في معظم المدن التي تمر بها قوافل الحجاج ، بحركة الحج وموسمه (٢) . وعجت اسواقها بحركة تجارية ضخمة اثناءه . فكان ذلك مناسبة لعمليات واسعة من البيع والشراء .

وكما كان الحرفيون ينضوون ، ابان حكم العثمانيين وقبلهم المماليك ، في نقابات او اصناف ، فان التجار كانوا يتجمعون بالمقابل ، في وحدات تنظيمية (٣) على نفس النمط تقريبا . فهناك مثلا بائعو السمك ، وتجار الملبوسات ، وتجار الطيور والبيض ، وتجار البن والتوابل . كان لتجار كل سلعة سوق خاصة ، يتجمعون فيها وتسمى باسمهم ، كما كان لكل سوق شيخها . ويفهم من ذلك خضوع التجار لمبدأ الحصول على امتياز لفتح دكان ومزاولة تجارة سلعة معينة في مكان محدد . كما يلاحظ ، ان ما سرى على الصناع ، يسري على التجار ، من ناحية اخضاعهم لسلسلة من المراقبين، تبدأ بشيخ السوق هذه المرة ، وتنتهي بالقاضي ، الذي يحصي عليهم انفاسهم ، ويتقاضى لقاء ذلك رسوما على المبيعات والمنقولات ، تذهب اليه شخصيا (٤) . ويذكر انه كان لتجار كل بلد رئيس يسمى في دمشق مثلا « المتقدم بين التجار » وكان يؤخذ من اكثرهم ثراء ، وله سلطة عليهم جميعا ، يحل الخصومات الناشبة بينهم وينظم امورهم داخليا ، وكان المحتسب يساعد القاضي على مراقبة تلك الجماعات ، ويجمع المتوجب عليهم من الضرائب (٥) . ولا نعرف ما اذا كانت نقابات التجار واصنافهم قد اقرت بمبدأ « الشد » ، او تأثرت بالفرق الصوفية ، او انه كانت عندها مظاهر احتفالية بديلة . بيد ان هناك بعض القرائن التي تشير الى انخراط

---

(١) عن د. ليلى الصباغ ، ص ٨٩ .

— Digéon : Kanoun-Namé p. 227.

(2) Sauvaget : Esquisse d'une histoire de la vie de Damas, in , Revue des Etudes Islamiques 1934, p. 469.

(٣) د. ليلى الصباغ ، سبق ذكره ، ص ١١١ .

(٤) د. ليلى الصباغ ، سبق ذكره ، ص ١٢٦ .

(5) Gibb & Bowen, op. cit. , part 1, p. 303

عدد كبير من التجار . في بعض الفرق الصوفية ، كالحريرية والسعدية والجباوية ، وتتخصص كل منها بنوع محدد من الكرامات كشفاء المرضى عن طريق شرب الماء الناجم عن نقع الحجاب فيه . او عدم التأذي ، او السيطرة على الجان .

وخضع التجار الى مصادرات تنفذ بحق بضائعهم من قبل السلطات الحاكمة ، بين الفينة والفينة . خاصة عند افتقار الخزينة الى الاموال . فكان اول من تقع عليهم عين السلطة هم التجار . فلقد كونت النواة المحلية للطبقه الغنية وكسبت . عن طريق ذلك . احترام الطبقة الحاكمة والحظوة لديها . وتم التحالف مع قسم من رجال الدين العلماء ، واستخدم نفوذ الاخيرين لدى العامة من الناس ليضغطوا على الحكومة في مناسبات معينة ليجني التجار من ورائها ارباحا عظيمة . وما ان انقضى ردح من الزمن حتى اشتد عود بعض الاسر التي تعاطت التجارة ، فشقت لنفسها قناة مباشرة الى السلطة ، وارتبطت بصلات المصاهرة والتزاوج ، مع الارستقراطية الحربية الحاكمة نفسها .

اما العمل التجاري نفسه فكان لا يتطلب كفاءة محددة ، بل يستوجب شبكة علاقات واسعة ومعروفة بأحوال السوق وتقلباتها ، وليس هناك اي اعداد آخر . واتاح هذا الواقع لرب الاسرة المدينية الذي يعمل بالتجارة ان يستخدم جميع ابنائه . بعضهم يتسوق وآخرون يساعدونه في اعمال البيع . ولم يكن من النادر ان يضم حانوت تجاري واحد رجالا ينتمون لعدة اجيال . يستلم فيه الجد الصندوق ويساعده ابناؤه في البيع والمساومات بينما يقوم الاحفاد ببعض الخدمات البسيطة ، من احضار الماء للزبائن ، الى تحضير للسلع وجلبها من اماكنها وتوضيبها وغيره . فيجتمع الجد وابناؤه واولاد الاعمام . وقد تزدهر تجارتهم الى حد يدفعهم الى فتح فروع جديدة لهم في مختلف المدن ، او يرسلوا بعضهم اليها كعملاء (١).

---

(١) د. ليلى الصباغ ، سبق ذكره ، ص ١١١ .

## ٥ – البنيات الاسرية المدينية

هكذا كانت اوضاع المدينيين المهنية والاقتصادية والتنظيمية . فكيف كانت اوضاعهم الشخصية والاسرية بالمقابل ؟

توخينا ، عند عرض التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالتنظيم الداخلي « للاصناف » او النقابات وبالتحديد عند عرض القيود والتقاليد التي تربط بها ، توضيح الاثر العميق الذي تركته تنظيمات الفرق الصوفية على التنظيمات المهنية عامة ، والحرفية خاصة . وليس من صعوبة على الاطلاق اظهار التشابه العميق ، على الصعيد البنيوي ، الحاصل بين بنية الفرقة الصوفية كوحدة ، وبين بنية النقابة كوحدة مهنية ايضا . بل ليحار الباحث عند الدراسة او القراءة للتفاصيل هل هو امام تنظيم لفرقة دراويش او امام نقابة يتعاطى افرادها العمل الحرفي ؟ ومن السهولة توضيح ذلك . لقد انخرط كثيرون من المدينيين في تلك الفرق ، واصبحوا من مريديها ، وتشربوا ثقافتها ، وتدرجوا في طبقاتها ، وانتهوا الى ان تبنوا نمط تركيبها فأقتبسوه وانتظموا في حياتهم الاقتصادية والعملية ، ضمن تنظيم مركب على شاكلته . اتى هذا التبني للشكل التنظيمي للفرقة الصوفية ، كتعبير عن وفائهم والتزامهم بمبادئها من جهة ، وعن عدم فصلهم بين امور الدين وامور الدنيا من جهة اخرى . لقد كيفوا الشكل الذي انتظموا فيه لتأدية العبادات والشعائر الصوفية ، ليكون صالحا كقالب لتأدية وانجاز مصالحهم الدنيوية . وبذلك وضعوا مزاولة النشاط الاقتصادي في نفس المنزلة مع « مزاولة » الشعائر والتعبد . او انهم قد جعلوا مظاهرهم الاحتفالية الصوفية بمصاف العمل المهني .

### الاسرة الواسعة المتفرعة المدينية

اما اوضاع المدينيين الشخصية والاسرية فلم تكن بعيدة عن التأثر

بمجمل اوضاعهم المهنية الاقتصادية والتعبدية الصوفية . فانعكست على بنية الاسرة وتجسدت فيها . فعرفت بالامتداد ، وبسلطة مركزية مركزة بيد الاب ، وبتماسكها الداخلي ، وبوحدتها البنائية ، وبمركزتها لقدرتيها الانتاجية والانفاقية ، وباستمراريتها . وليست هذه الصفات بمجملها سوى دلالات عما تركته التنظيمات في نفوس افرادها من آثار ، وانعكاسات. فكما ان الطريقة تمتد لتضم كل مريديها ، والنقابة تحوي كل صناع الحرفة، هكذا فالاسرة كانت تضم جميع فروع الاب مهما هبطوا . وكما كانت لشيخ الطريقة سلطته وهيبته ومكانته ، وكما كان كذلك لرئيس النقابة او شيخ الكار الصلاحيات والسلطة والنفوذ المترتبة عن اقدميته في الحرفة واتقانه لها ، ولحيازته رضا وقبول اوساط النقابة ، فان الاسرة لم تكن بمنأى عن هذه التأثيرات ، اذ جمع الزوج السلطة بين يديه بعد ان وجد في كفاءته المادية ، مضافا اليها حيازته لسر المهنة او معرفته بمصادر السلع وتسويقها، اسبابا كافية ليكون له من النفوذ والصلاحيات والسلطة بمقدار ما لشيخ الطريقةوشيخ الكار تجاه اتباعهما. وتستتبع وحدة السر ووحدة السلطةوحدة البنيان والتركيب والتماسك الشديد بين العناصر والاجزاء . اما الاستمرارية فهي مصير كل مؤسسةما دامت هي تتغذى بالاتباع والمريدين والعاملين والابناء.

كانت الاسرة . في واقع الامر ، كبيرة ، كثيرة الفروع والعدد ، وهي تتكون غالبا من الاب وزوجته واولاده العزاب والمتزوجين وزوجاتهم وابنائهم. ويقيمون عادة في نفس المنزل (١) . ويرجح ان تكون تسمية الاسرة « بيت » فلان الى هذا الواقع . وكان يصل عددهم احيانا الى خمسين شخصا او ما ينوف . كل ابن يقيم مع زوجته واولاده في غرفة (٢) . اما بقية الابناء العزاب فلهم غرفة واحدة وتفرد للبنات مهما كان عددهن غرفة مستقلة . هذا والاسرة احيانا تضم الجد والجدة ( اللذين على قيد الحياة ) والاخوات او العمات العوانس . فبنيتها اذا كثيرة اللبنات ، لذا وصفت بالامتداد . ويصح تسميتها بالاسرة الواسعة المتفرعة . نقول متفرعة ، لانها عرفت جميعا امتدادات وتشعبات عديدة ، حافظت خلالها على نفس الاسم ، ونفس البنية ، وكأن الامر تكرار لصورة اسرة المنشأ الاساسية . فمع الزمن كان يصل امتدادها الى درجة ، يصبح فيه امر بقائها متحدة واسعة ، متعذرا . ففرع منها يستقل ، فينفرد في سكناه . وغالبا ما حصل هذا الانفراد في منزل بناه له والده على مقربة من المنزل الاساسي . لتنشأ مع مرور الوقت احياء كاملة ، تسكنها اسر ترتبط ببعضها بروابط القرابة ، وتعود الى جد واحد .

وفي هذه الحقبة من الزمن حصل تطور طرأ على اسم الاسرة . فقد كان

(1) Daghestani. K. : La famille musulmane contemporaine en Syrie, Paris 1932, pp. 147-153.

(٢) د. ليلى الصباغ ، سبق ذكره ، ص ١٤٤–١٤٥ .

الابناء ينسبون الى آبائهم فقط . وانذاك اخذ اسم الاسرة يعرف غالبا بـ «ال» التعريف ، وينتهي بياء النسبة . وكانت تلك النسبة الى :

١ ــ مكان : فعرفت اسرة : الحمصي ــ الدمشقي ــ البيروتي ــ الطرابلسي ــ البغدادي .......

٢ ــ طريقة صوفية كاسرة : الحريري ــ النقشبندي ــ البواشي ــ الرفاعي ــ والسعدي .......

٣ ــ مهنة كاسرة : النجار ــ الحداد ــ البيطار ــ الصواف ، .......

٤ ــ صفة من الصفات كاسرة : الطيب ، المر . الحلو . الابيض .

وكتعبير عن قوة بنية هذه الاسرة وصلابتها ووحدتها تمركزت السلطة بيد كبيرها ، اي الاب. فيما يتعلق بالامور الاقتصادية والبت بالامور الاجتماعية واحيانا المنزلية ايضا . الا ان السلطة التنفيذية في المنزل بقيت بيد كبيرة الاسرة . كانت اما او جدة او عمة احيانا .

فالاب هو الذي ينفق على الاسرة . خاصة وان اولاده يعملون له في المتجر او المحترف . ويقدمون له عملهم وانتاجهم ، مقابل انفاقه عليهم مخصصا لكل منهم « خرجية جيب » للنفقة الخاصة ، وهم عزاب . وانفاقه على اولاده . اذا كان الابن متزوجا . فيمنحه عندئذ « شهرية » اي مصروفا لشهر .

ولان الاب محور كل هذه العمليات والنشاطات ، ونقطة القوة والارتكاز فيها ، فقد تمتع باحترام كبير من جميع افراد الاسرة . ومن زوجات ابنائه وكانت له هيبته الخاصة وسلطته (١) . وشاعت عادة تقبيل يده كل صباح دلالة على ما يكنه كل فرد من احترام وخضوع . وكان يمكنه ان يمسك خرجية الجيب عن الابن الذي يلاحظ عنده سلوكا او تصرفا لا يرضيه . وكثيرا ما سخر قدرته الاقتصادية للضغط كوسيلة ليعيد ابناءه الى « جادة الصواب » اي الى التقيد بالتقاليد والمحافظة عليها ، كيف لا وكل شيء يلزمه او يقنعه بضرورتها ؟

أما كبيرة النساء في البيت فكانت توزع العمل على النساء ، بحيث تخصص كل زوجة ابن أو أخت بعمل يوم أو اسبوع بشكل دوري ، أو عمل معين بشكل دائم كالطبخ أو المسح او الكنس الى جانب التزام كل زوجة بتنظيف غرفتها والقيام بما تتطلبه من خدمات .

كان التماسك الداخلي سمة اساسية من سمات الاسرة الواسعة المتفرقة . ويبرز رضى كل فرد للقيام بما أوكل اليه من مهمات أو أعمال ، او اندفاعه في سبيل الآخرين من ابنائها كتعبير عن الرابط القوي الذي يوحد بينهم ويجعل تماسكهم الداخلي حقيقة ملموسة . وفي نفس الوقت كان ينتفي التذمر أو التأفف أو التهرب ، فكل واحد كان يشعر انه عنصر ضروري لحياة الاسرة وانتظامها واستمرارها .

---

(١) د. ليلى الصباغ ، سبق ذكره ، ص ١٤٥ .

أما المظهر الآخر لصلابة هذه الاسرة ، العامل على تدعيم وحدتها وتماسكها ، فهو مركزتها لقدرتها الانتاجية والانفاقية وجعلها بيد ربها . انه هو الذي يجمع اثمان ما يصنعون من سلع ، أو ما يبيعونه من اغراض . فصندوق المدخول بين يديه . وهو المرجع الاول والاخير لكل العمليات المالية المتعلقة بالحرفة أو المتجر . ينقده جميع ابنائه مباشرة ثمن ما يبيعونه ، وليس في الامر سوء ظن او ائتمان ، ولكنه تدبير رضائي لجمع المال ، ليكون مستعدا في كل وقت ، للقيام بعمليات الشراء النقدي للمواد الخام ، أو للسلع التجارية .

ومن ناحية ثانية ، كان الاب يقوم بمشتريات البيت وتأمين لوازمه من مواد غذائية ، وأدوات ، وآنية وكل ما يستعمل فيه . كما كان يقوم بتجهيز غرفة زواج وشراء ما يلزمها واعدادها لتكون عشا زوجيا كلما صار أحد ابنائه في سن مؤهلة .

كل هذه الجوانب والمظاهر كانت تتكامل وتتدعم ، الى حد دفعتها قوتها الذاتية الى الاستمرار . واستمرارها يتأمن عن طريق ما يجعل الاب املاكه وقفا ذريا لفروعه ، يؤول الى خزينة الاوقاف او الى تنفيذ بناء مسجد أو زاوية أو غيرهما ، عندما تنقرض فروعه . وقد شاع هذا النوع من الاوقاف بحيث هدد تجميد مساحات شاسعة من الاراضي وقسما من الاملاك والمشاريع. كان هذا الاسلوب يضمن وحدة الاسرة حتى بعد موت منشئها ، ويضمن المستقبل المادي لفروعه ، عن طريق ريعها . فالاوقاف الذرية ، لا تباع ، أو تقسم ، ولا تسترد ولا تورث ، بل يعود نتاجها أو مالها الى الوارثين حسب قواعد الارث المنصوص عنها .

ولذلك كانت فروع هذه الاسرة تجد نفسها مضطرة للتضامن ، والتعاون . ولعل ابرز تعبير عن هذه النزعة ( عند هذه الاسر والاسر الاسلامية عموما ) ، هو ظاهرة الالتصاق الاسري ، في الحياة ، كما في الممات .

ففي الحياة يضم أفراد الاسرة جميعهم منزل واحد ، أو منازل متلاصقة. وفي الممات يضم رفاتهم قبر واحد ، أو قبور متلاصقة . وفي كلا الحالتين مظهر من مظاهر التضامن والوحدة .

## نشوء الطبقة البرجوازية وتكونها من تجار المدن

خلال هذه الحقبة ، في اثناء الحكم العثماني ، تكونت طبقة اجتماعية مميزة تألفت من المقطعين وجماعة الملتزمين الدائمين وبعض المتولين في الريف، ومن بعض الاسر التي اغتنت بسبب تعاطيها التجارة في المدن وكانت على علاقة طيبة بالاتراك . لقد ادى استثمار الفئة الاولى للاراضي الزراعية في الريف وتراكم مواردها عبر السنين الى تكوين نواة رأس مال نقدي لديها ، وكذلك الحال مع المدينيين ، الذين استطاعوا بفترة وجيزة ان يمتلكوا ثروات نقدية واسعة . فلقد عرفت البلاد العربية حركة تجارية خارجية مزدهرة ، بسبب

ضعف الصناعة الحرفية المحلية وضآلة انتاجها من جهة ، وعدم وجود ضرائب عالية على السلع والبضائع الاجنبية المستوردة ، مما شجع الدول الصناعية الاوروبية الناشئة على ان تجد في الشرق العربي سوقا رئيسية ومهمة لمنتجاتها. وعزز هذا الاتجاه الاتفاقيات والامتيازات التي عقدت أو حصل عليها من السلطات التركية ، وكانت جميعها ذات طابع تجاري وتسهيلات بحرية .

فانتشرت ، في معظم مدن الشرق ، الخانات والمخازن وامتلأت بالبضائع والسلع ، فكانت مركز تفريغ وخزن لما تحمله السفن والمراكب الاوروبية الى بلادنا ووضعت جميعها تحت اشراف القناصل الاوروبيين .

وشهد النصف الثاني من القرن السادس عشر تنافسا تجاريا شديدا بين الدول التجارية الكبرى في منطقة الشرق الادنى عامة . واحتدم هذا التنافس مع الزمن وتحول الى تنازع امبريالي في القرن التاسع عشر . حين أصبحت هذه المنطقة هدفا استعماريا واضحا للدول الاوروبية وخاصة منها فرنسا ابتداء من هذه الحقبة . وتغلغل الاوروبيون في البلاد العربية عن طريق التجارة بعدما فتح لهم العثمانيون الابواب بعقدهم المعاهدات المتتالية ، ومع مختلف تلك البلدان (١) .

فاذا كانت التجارة الاوروبية بين اوروبا والبلاد العربية مركزة بيد الجاليات الاجنبية الاوروبية ، فان توزيعها الداخلي ونشرها وتداولها والاتجار المحلي بها ، كان بيد أهل البلاد . ومن هؤلاء ، وبفعل الازدهار الذي عرفته التجارة خلال هذه الفترة ، تكونت نواة الطبقة الثرية التي كانت بمجملها من التجار .

ويهمنا ان نعرف الانعكاسات التي خلفتها العلاقات التي تبادلها التجار الاجانب مع التجار المحليين على صعيد الاسرة ونمط الحياة الخاصة والقيم الاجتماعية السائدة . ولعل فيما ذكره قنصل فرنسا في لبنان آنذاك في كتابه (٢) عن هذا الموضوع ما يحمل الينا خطوط الاجابة فهو يقول : « كانت علاقات مسلمي مدن سورية بالتجار الغربيين حسنة بل جيدة ، درت عليهم كثيرا من الارباح ، الا انها لم تعمل ولو قليلا ، في تحوير عاداتهم » (٣) .

فالعادات والمعتقدات والافكار السائدة والتقاليد لا يمكن ان تتغير بين ليلة وضحاها ، حتى ولا خلال نصف قرن . لقد جرى التأثير والتأثر بطريقة غير مباشرة ، وولد الاحتكاك مع التجار والجاليات الاجنبية تيارا بين فئة التجار المحليين مؤداه ارسال ابنائهم الى الدول الاوروبية ليتعلموا لغتها

---

(١) د. ليلى الصباغ ، الفصل الثاني — التجارة ص ٨٣—١١٢ من المرجع المذكور سابقا .
— علي الحسني ، تاريخ سورية الاقتصادي ، ص ١٣٢—١٤٦ .

(2) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age, 2 vols, Leipzig, 1936 .

(٣) هنري غيز ، بيروت ولبنان ، جزءان ، باريس ، ١٨٤٦ .
عربه ، مارون عبود ، بيروت ١٩٤٩ ، ونشرته دار المكشوف .

ويكونوا على مقربة من مصادر البضائع ، أو ارسالهم الى عاصمة السلطنة العثمانية ( الاستانة ) ، كي يتعلموا فيها ، ليعودوا موظفين لدى الدولة ، ويعينوا في مناطقهم ، فيسهل عليهم تأمين مصالح آبائهم أو أقربائهم في علاقاتهم مع الدول التجارية الاوروبية . ونستدل على وجود هذا التيار من اشارات كثيرة وردت في كتاب القنصل المشار اليه عن وساطات بذلها شخصيا ، لتأمين سفر ابناء بعض التجار الى فرنسا ، او خدمات اداها لهم لتسهيل انتقالهم (١) .

والواقع ان هؤلاء كانوا يستطيعون تسفير ابنائهم نظرا لما أصبح في حوزتهم من ثروة نقدية تمكنهم من تحمل المصاريف والاعباء المترتبة على الاقامة في الخارج .

## الاسرة الزوجية الارستقراطية

تمكنت الطبقة البرجوازية الناشئة من ادخال عادتين جديدتين الى المجتمع بفضل ثروتها : السكن المستقل والتعليم . فما يكاد احد ابنائها يتزوج حتى يقدم له والده بالتعاون مع والد العروس – على اعتبار انه ينتمي غالبا الى نفس الطبقة – بيتا مستقلا مفروشا ، يبنيه له على املاكه . اما التعليم ، فبدأ على نطاق ضيق ، كما ذكرنا ، لاسباب تجارية أو سياسية بحتة ، دعمت الاتجاه السابق ، فبرزت بذلك بنية أولى لنماذج الاسرة الزوجية الارستقراطية ، في الريف كما في المدينة . وطرأ تعديل نوعي على بنية هذه الاسرة .

بالنسبة للسلطة ، انحسرت سلطة الاب لكنها لم تسقط ، ( فالابن رغم زواجه ما برح يتلقى أوامر ابيه ونواهيه وتأثيراته ) بل أصبحت محدودة تقتصر على المواضيع الهامة ، لا تطال التصرفات اليومية ومعظم مظاهر الحياة الخاصة ، لاستقلال الابن بسكنه ، وعدم استدامة فرص اللقاء . فبعد أن كانا يعيشان في منزل واحد ، أصبحت زيارة احدهما للآخر ، وغالبا ما يقوم بها الابن لابيه ، لا تدوم أكثر من ساعات في اليوم . فانحسار ممارسة السلطة الابوية ناجم عن تقلص حجم المساحة الزمنية التي تتيح ممارستها .

اما داخل المنزل الزوجي ، فقد تحسنت مكانة الزوجة ، لا لشيء ، الا لكونها تنتمي بدورها الى أسرة ثرية ، ساهمت في تأمين انفراد السكن الزوجي . واحترام الزوج لزوجته هو جزء من احترام اسرة الزوج وتقديرها لاسرة الزوجة ككل . وكلا الامرين يقوم على قاعدة مادية .

وغالبا ما تقوم الخادمات بتأمين الاعمال المنزلية ، مما يحرر الزوجة من اعبائها ، فتنصرف الى تكثيف اللقاءات مع مثيلاتها من القريبات او

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٦–٧٢ .

الصديقات . لقد زال الحجز عنها جزئيا أما الاختلاط فبقي محرما .

ولا نستطيع ان نتحدث عن صلابة في بنية الاسرة الزوجية الارستقراطية لانها كانت في الواقع ، تمثل التقاء المصالح الآنية أو المتباينة لاسرتي الزوجين. كان أي تنافر أو تصادم يظهر بين تلك المصالح ينعكس حالا على وضع الاسرة الناشئة . وصح القول عنها : انها تجسيد مادي لاستمرارية المصالح المشتركة، فاذا اعتراها أي وهن ظهر على علاقات الزوجين نفسيهما .

والعكس لا يحصل ، بمعنى ان اي توتر يعتري علاقة الزوجين ، وحتى فشل حياتهما الزوجية ، كان يطوق من قبل الاسرتين ويطمس ، اذا كانت مصالحهما لا تزال مشتركة . فالاولوية كانت دائما للمصالح . وانعقاد الزواج أصلا ليس سوى مظهر من مظاهرها .

ولم تحصل الاسرة الزوجية الارستقراطية على استقلاليتها أو وحدتها المالية الاقتصادية . فلقد كان والد الزوج يمنح ابنه مرتبا شهريا غير مقطوع ، قابلا للزيادة او النقصان حسب الظروف ، هذا اذا كان ابنه يعمل معه في محاله التجارية بالمدينة . أما اذا كانت الاسرة تسكن في الريف ، فيقدم لها عطاء موسميا دوريا ، يرتبط بالمواسم والغلال ، نقدا وعينا . والابن في هذه الحالة ، يقوم باعمال مراقبة الفلاحين لحساب والده ، أو يكون عاطلا تماما عن العمل .

ان هشاشة وضع وبنية الاسرة الزوجية الارستقراطية ناجم عن هشاشة وضعها الاقتصادي ، وعدم استقلاليتها المادية ، وبقائها ذيلا تابعا اقتصاديا ومعيشيا لاسرة المنشأ . واستمرت حالتها على هذه الصورة حتى استطاعت كسب وتحقيق استقلاليتها المادية في مرحلة لاحقة ، سنشرح تفصيلاتها في الفصل اللاحق .

وباختصار نلخص ما سبق فنقول : ان طبيعة ونوعية بنية الاسرة الريفية الفلاحية وخصائصها قد حددتها وضعية الارض القانونية المنتشرة في الريف ، فكانت في كل مظاهرها ، انعكاسا لهذه الوضعية بل محاكاة لها . أما الاسرة المدينية فلم يكن للعامل المذكور اي دور في تحديد نوعية بنائها ، بل لعب نوع ونمط النشاط الاقتصادي الذي يمارسه رب الاسرة ، الدور المحدد .

## ٦ – الظاهرات السائدة في النطاق الاسري

نصل الان الى عرض الظاهرات الاجتماعية التي برزت في نطاق الاسرة واصبحت جزءا لا يمكن فصله عن مؤسستها .

ـ التزويج ( الاخرون هم الذين يتولون اختيار الزوجة ).
ـ الطاعة العمياء لرب الاسرة .
ـ التراتبية الاسرية .
ـ تمجيد الذكورة .
ـ دونية الانثى .
ـ حجب النساء .
ـ الجنس حق للرجال وحدهم .
ـ تعدد الزوجات .
ـ انتشار الامية على اشكالها ، وتفشي الجهل .
ـ اللجوء الى الخرافة والتعلق بالاوهام .
ـ شيوع الحذر والشك ، وتوسل الحيلة والاستجداء .
ـ الثبات السلوكي والديني ( التقليدية والانغلاقية ) .

هذه الظاهرات كانت مشتركة ، عرفتها معظم البنيات الاسرية ، لكنها كانت تتفاوت انتشارا وشمولا ، كما اختلفت بصددها درجات احترام وتقيـد الاسر بها ، وتباين مدى ثباتها او تحولها واستبدالها في كل منها .

**التزويج**

كان اختيار الزوجة للفتى بيد اهله . كما كانت الموافقة على زواج الفتاة بيد والديها وبعض الاقرباء الادنين .

ففي القرى : كانت الحياة الزراعية قاسية تستدعي وجـود العـدد الوافر من الايدي العاملة لاستنباتها ، وقد لجأ المزارعون الى الزواج المبكر كأحد الحلول والوسائل لتأمين الطاقات الجديدة للارض . فـلا يكاد الفتى يبلغ السابعة عشرة او الثامنة عشرة من عمره حتى يسمع قول والده « صرت

كبير وبدنا نفرح منك » ويفهم ان والده يعزم على « تزويجه » . ولا يتفوه الوالد بمثل هذه العبارة الا بعد ان تكون الخطوات التمهيدية قد انجزت . لتد « فاتح » والد الفتى والد الفتاة التي يكون قد استنسبها ، بتأثير من علاقته او بتأثير من المصلحة الزراعية التي تربطه بوالدها ، ورغبته في خطبة ابنته لابنه ، وحصل منه على موافقة مبدئية ، او حتى « قرأ فاتحتها » وبعد ان تتم الخطوة اللاحقة ، اي الاستشارة الشكلية لام الفتاة والفتاة المعنية يحدد موعد عقد القران . وغالبا ما كان والد الفتاة يبلغ زوجته انه قرأ فاتحة ابنته على فلان « كخبر » ، وليس لها سوى الرضوخ والقبول .

وعرف المزارعون المتوطنون على الارض الملك عند المقطعين ( اي الاسرة الواسعة المتفرعة والتي يطبع حياتها ، طابع الاستمرار الرتيب ) عادة أخرى. فقد كان والدا الزوجين يرتبطان « بوعد زواج » باسم ولديهما وهما لا يزالان في سن مبكرة لا تتجاوز خمس سنوات أو حتى عند الولادة . والهدف الواضح من ارتباط كهذا ، هو ربط مستقبل الاسرتين بالارض : والحيلولة دون هجرة احدهما لها . وغالبا ما كان يتم مثل هذا الوعد المبكر ، بين فلاحين تشدهم الى بعضهم علاقات استثمار مشترك لارض ملك معينة . هكذا يستعمل الولدان كحبل لربط الاسرتين منذ ولادتيهما ، لمتابعة التعاون بالعمل الزراعي .

وتحفظ جميع البنيات الاسرية حق ابن العم بزواجه من ابنة عمه . وكان باستطاعته أن يبطل زواجها ، اذا لم يستشر ، أو تعرض عليه ، قبل موافقة أهلها على تزويجها بسواه (١) . وتتولى نساء الاسرة عادة ، عملية البحث أو اختيار الفتاة ، اذا لم يكن والد الفتى قد ارتبط « بطلب » ، أو لم يكن له بنات عم يرغب بتزويجه من احداهن . فتصبح المهمة مهمة النساء . فاذا وقعن عليها ، امسكن الخيط لوالد الزوج ، الذي له شرف « مفاتحة والد الفتاة بالموضوع » . وتقتصر مهمة النساء ، في الواقع ، على القيام بالتحريات ، وعرض صفات الفتاة ، وتجميلها وتزيين محاسن اختيارها كزوجة . فهي « صاحبة اخلاق طيبة ودين صحيح ونحن واياهم اقرباء » (٢). هذا القول الى جانب القول الشعبي : « خذ الاصيل ونم على الحصير » (٣) ، يعطيان فكرة واضحة عن الشروط والصفات المتوجب توفرها في الفتاة كي تخطب .

اما في المدن ، فيتميز البحث عن الفتاة بأنه يشكل مرحلة قائمة بذاتها قد تستغرق وقتا طويلا ، فنساء الاسرة يتجندن ويبدأن الزيارات ، « ودق

---

(1) Chatila, Le mariage chez les musulmans en Syrie, Paris, 1934, p. 56 .

— عباس العزاوي ، عشائر العراق ، ج ١ ، ص ٤١٤ .

(٢) د. ليلى الصباغ ، سبق ذكره ، ص ١٤٧ .

(٣) الداغستاني ، سبق ذكره ، ص ١٧٠ ( بالفرنسية ) .

الابواب » بهدف « الفرجة » على الفتيات اللواتي هن برسم الزواج ، فيقارن ويفاضلن بينهن اثناء عرض نتائج زيارتهن امام والد الفتى . ويقوم الاخير بالاختيار وابلاغ الابن بمن سيتزوج . تقول ذلك ، لانه جرت العادة ، ان يوافق الشاب دون تردد على ما يعرض عليه . « فتخطب المجهولة الى المجهول » . هذه هي ظواهر الامور . لكن لا تعدم من وجود خلفيات ينطلق منها ، او يصار الى التقرير على ضوئها .

اذا كان والدا الفتى والفتاة ، يختاران ويقرران نيابة عن ابنيهما ، فذلك يعود الى نمط الحياة الزراعية القاسي ، الذي يحتم ان توظف روابط القرابة والمصاهرات الجديدة في خدمة الارض ولاجلها . فاذا ما تحققا من ذلك بذلا المال ، في سبيل تجسيد هذا الرباط . اعني ان والد الزوج يتحمل كافة النفقات التي يرتبها الزواج : يقدم المهر ، ويؤثث الغرفة . اما والد العروس « فيجهزها بكل ما يلزم من ثياب ومراتب ولحف ومخدات وصندوق خشبي لوضع الحوائج ( كان يستعمل كخزانة ) ، وسجادة او بساط » (١) . فيصبح عقد هذه الزيجات بمثابة توظيف « لتحويجة » الاسرتين يثمر على المدى البعيد ، ايدي عاملة اضافية تخفف من الاعباء المرتقبة .

وقد يقول قائل ان ظروف الفصل الاجتماعي بين الجنسين ومنع الاختلاط بينهما تؤدي بالضرورة : الى ان تنوب القريبات عن الفتى بمهمة الاختيار . هذا عامل وجيه ولكن الامر لا يقتصر على عرض الفتيات المختارات على الفتى كي يختار بنفسه ، بل المأساة انهن يعرضن على والده ليقوم عنه بالانتقاء . هناك فرق بين التعريف والاختيار . التعريف مجرد تقديم . بينما الاختيار يحمل في طياته الالزام . فاذا كانت الظروف تسري وتفرض نفسها على الفتى وعلى والده ، بالنسبة لعدم تمكنهما من رؤية الفتاة ، فلماذا يمنح حق الاختيار الوالد وليس للشاب ؟ نعتقد ان السبب هو العامل الاقتصادي الذي شرحناه قبلا .

« فالتزويج » كان ظاهرة سائدة في الاسر ، في الريف كما في المدن . وحجم المصالح ، المادية او غير المادية ، التي كانت توضع على بساط المفاضلة عند الاختيار ، هو ما يميز ظاهرة التزويج في الاسرة الفقيرة عنها في الاسرة الغنية .

### الطاعة

مما لا شك فيه ان الاسلام حض على الطاعة بقوله : « واطيعوا اولي الامر منكم » . ولما كان الاب او الزوج هو رأس الاسرة فان السلطة قد آلت اليه . لان من يقول طاعة يتصور وجود سلطة . بهذا المعنى تكاد تكون ظاهرة طاعة الزوجة لزوجها والابناء لوالديهم هي احدى ابرز الظاهرات في

---

(١) د. ليلى الصباغ ، المصدر المذكور ، ص ١٥٠ .

الاسرة العربية ، في الحقبة التي نتحدث عنها .
والواقع ، ان كل ما يحيط بالاسرة من اوضاع اجتماعية ، وتنظيمات وحياة سياسية يقنع كل فرد فيها بصحة موقفه وضرورة اطاعته لرب الاسرة . فها قد تحدثنا عن اطاعة المريدين العمياء لشيخ طريقتهم ، وكيف ان واحدهم لا يتورع عن القاء نفسه في المخاطر ، تلبية لرغبته ، او تنفيذا لامره . كما اكتشفنا كيف انعكس هذا الواقع على النقابات ، فاصبح شيخ النقابة هو الآمر الناهي ، واصبحت طاعته واجبة على كل مبتدىء وصانع ومعلم في المهنة .
ولعل هاتين الظاهرتين ليستا سوى تكرار لطاعة الوالي للباب العالي ، او الوزير للامير . والحق ان انبناء المؤسسات ، يكاد يكون على نفس الشاكلة ، في الظروف الاقتصادية والسياسية الواحدة . من هنا نعتقد ان ما عزز ظاهرة الطاعة وكرسها في الاسرة ، هو وجود سلطة مركزية سياسية ، كانت من حين الى حين ، تجرد الحملات وتخضع الخارجين عليها .
واذا ما تجاوزنا هذه الاسباب ، نجد في الاسرة سببا مباشرا ، يكاد يفرض الطاعة على افرادها فرضا . هذا السبب هو الاعالة ، وارتباط معيشة الجميع بكاسب (١) الاسرة . وقد يكون ابرز دليل على ذلك هو تحول واجب طاعة الفتاة بعد زواجها ، من طاعتها لوالدها ، الى طاعتها لزوجها ، بعد ان تحولت مسؤولية اعالتها من كاسب الاسرة المنشأ ، الى كاسب الاسرة المتفرعة عنها .
وما يصدق بالنسبة للزوجة يصدق بالنسبة للابناء . فلم يعرف عن هؤلاء انهم استقلوا في اعمالهم او كسبهم . حتى حين قدموا قوة عملهم لوالدهم ، كانوا يعتقدون انه هو صاحب الكار ، وانه هو صاحب الفضل ، واليه يجب ان يعود المال . فاستمر ينفق عليهم ويعين لهم راتبا ، وبقي اولئك يمنحونه طاعة واحتراما عميقين .

**التراتبية الاسرية** « L'hiérarchie »

وامتازت الاسرة العربية التي نتحدث عنها باحترام افرادها العميق للتراتب التسلسلي داخلها ، فكل واحد منهم يعرف مقامه ، ويعرف مكانه في بنية الاسرة ، ولعل ذلك يعود الى صلابة تلك البنية ووحدتها .
ومن مظاهر هذه التراتبية ان الابن كان لا يقدم طلباته مباشرة الى والده ، بل انه يبلغها الى والدته ، وهي بدورها ترفعها الى الزوج . واذا ما اراد هذا الاخير من احد ابنائه ان ينفذ له امرا ، ارسل الابن الاكبر ، ليعطيه التعليمات .

---

(١) كاسب : كان التعبير المستعمل للدلالة على الرجل الذي يعمل لبعيل اسرته ، حتى ولو لم يكن الزوج او الوالد .

اما الجدة او الجد فكانا الستار الدائم والسميك الذي يتوارى خلفه الابناء او يحتمون به .

قد يكون اتساع الاسرة وكثرة عدد افرادها هما السبب المباشر لبروز هذه الظاهرة ، لكنها لم تكن لتتوطد لولا الذي امتازت به البنية الاسرية العربية القديمة من صلابة ووحدة . والواقع ان هذه الظاهرة هي احد الافرازات الاجتماعية للتركيب نفسه وتشكل ، في الوقت نفسه ، احد العوامل المدعمة لتماسكه .

وعزز هذه التراتبية وجود حدود تحفظ كل فئة داخل اطار مقامها . فظهرت في الاسرة فئة الاطفال ، وفئة النساء ، وفئة الشبان ، ورب الاسرة . وكانت كل فئة لا تتجاسر ان تتجاوز حدودها . فيفهم على ضوء هذا الواقع ما يذكر من ان الام لم تكن لتشترك مع زوجها بالطعام الا نادرا ، ولا ان تبدأ بالكلام الا اذا بدأها هو به (١) . او ان النساء في الاسرة كن يطعمن الاطفال على حدة ، ولا يبدأ الاولاد بمشاركة ابيهم على المائدة الا بعد ان يبلغوا سنا معينة (٢) . وما نقراه في ان الزوج يعامل زوجته معاملة « محايدة » لا لطف زائدا فيها ، ولا قساوة مجحفة او بمعنى آخر ، يطبعها طابع من البرود والتحفظ . ونورد ايضا شهادة بعض الشهود العيان اذ يقول احدهم : كان يتوجب على الازواج ان يظلوا متجهمي الوجوه دائما في خدورهم ليحافظوا على هيبتهم ، ويوحوا الى النساء والاطفال بالامتثال الذي يكفل لهم سيادتهم (٣) . والحقيقة ان كل هذه التصرفات التي ينتهجها الازواج تؤدي الى نتيجة واحدة ، هي تدعيم وتعميق الحدود الفاصلة بين جماعات الاسرة ، على الصعيد السلوكي ، فلا ترفع الكلفة وتضيق الفروقات ، ويتم تجاوز المجال المقرر لحركة وتصرف كل فئة . هكذا وضعت كل منها في خانة ، او منزلة ، او مرتبة مستقلة ، والاب هو الخيط الذي يربط بينها جميعا فتظهر الاسرة كبنية متكاملة .

وظاهرة السلمية في الاسرة كانت تضع حدا لروح الالفة فلا تنتشر ، وللروح الديمقراطية فلا تنمو ، اوليست الاسرة العربية آنذاك ، بنتا شرعية ، ومؤسسة اجتماعية عاشت في كنف السلطة التركية الاستبدادية ؟ فحري بها اذن أن تعكس ، بل ان تجسد ، كل ما يسود في المجتمع من علاقات وقيم .

### تمجيد الذكورة

تثير ولادة الذكر مشاعر البهجة ، « ويسري خبر ولادته بسرعة

---

(١) د. داغستاني ، سبق ذكره ، ص ٤٨ .

(٢) د. ليلى الصباغ ، سبق ذكره ، ص ١٥٥ .

(٣) هـ. غبز ، سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٧٠ .

ـ د. داغستاني ، سبق ذكره ، ص ٨ف .

الكهرباء ، ويستقبل بالزغردات » (١) . امـا الانثـى فكانت تنشر الذعـر والاسف حين ولادتها ، على البيت وعلى من فيه ، وتبدأ منـذ تلك اللحظات ، سلسلة لا تنتهي من التميزات والامتيازات لصالح الذكر . فهـو يعتبر عماد المجتمع العربي ومحور حياته . وقد اكتسب هذه المنزلة لانه يحقق حلـم العربي المزدوج : الخلود ( الاستمرار ) والرجولة . فحساب النسب المبنـي على النسل الذكري يعني ان كل ذكر هو حلقـة تضاف الى سلسلة البقـاء وهو ، في الوقت نفسه ، اداة لتجديد وتكاثر الحلقات . ولعله هنـا يكمـن معنى الرجولة المنشودة . فولادة الذكر ، على ضوء هـذا المفهـوم ، تتيـح لوالده الظهور بمظهر الرجولة وحيازتها . ومـن الطبيعي ، والحالة هذه ، ان تمجد الذكورة ، ناهيك بأن كل ما في المجتمع يحمل طوابعهـا ، ويأتمـر بأمرها .

وكنتيجة لهذه النظرة ، اعتبر النصف النسائي من المجتمـع نصفـا لا يعول عليـه ، محدود الفعالية والفائدة . فشلت حركتـه ، وانتهى اسير الاعتبارات ، والقيم الاجتماعيـة التي وضعهـا النصف الآخـر وفرض عليه احترامها .

## حجب النساء

تعكس هذه الظاهرة مجمل التحولات التي طرات على قضيـة ظهـور المراة ومظهرها بين الناس . ويميز على هذا الصعيد بـين اشكال ثلاثـة : الحجاب ، الاتزار ، ومخالطة الرجال . وجميعها فروع عن اصل واحد هو ما علمه الرسول لاتباعـه : « يا ايها النبي قـل لازواجـك وبناتـك ونساء المؤمنين ، يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك ادنى ان يعرفن فلا يؤذين » (٢) . طبقت هذه الآية القرآنية عمليا ، عبر التاريخ العربي ، على وجوه مختلفة . اول اشكالها كان ستر الوجه ووضع النقاب . ثم لم يلبث ان اضيف الازار فوقه ، واخيرا منعت المراة عن كل اختلاط بالرجل وحجزت في خدرها .

والواقع ان الاسلام امر بالحجاب ونهى عن الخلوة بالنساء . لكنـه لم يمنع المراة من الخروج الى مجالس العلم والمساجد والقيـام بالاعمـال الخيرة المفيدة ، لا سيما اذا كانت بحالة او بسن يؤمـن فيها عليها . وكلمـا ابتعد المسلمون زمنيا عن عصر النبوة ، كانوا يبالغون في ضرب نطاق التضييق على المراة والتشدد في منعها من ممارسة ما كان الرسول قد سمح لها بـه واباحه . فازدادت سماكة الحجاب لتعيق الرؤية ما امكن . ولمـا لم يعـد البرقع كافيا اعطيت الآية معنى لبس الخمر الطويلة التي تلف الجسم كلـه ، حتى « ان العلماء قضوا وقتا طويلا ، في اواسط المائة السابعـة للهجـرة ،

---

(١) هـ. غيز ، سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٧٦ .

(٢) سورة الاحزاب ، آية رقم ٥٩ .

يتجادلون في هل الاليق بالنساء ، ان يظهرن أيديهن واقدامهن » ؟ (١) . لم تكن هذه الوسائل ، لمنع المخالطة بين الرجال والنساء ، بكافية لقمع او افشال كل فرصها ، لذلك تبارى المتبارون ، وشحذوا عقولهم للتوصل الى حل ، يلغي امكانية كل مخالطة ، مشبوهة او غير مشبوهة ، فاوجدوا سلسلة من التدابير الكفيلة بتحقيق هذه الغاية . وتتلخص هذه التدابير بحجب النساء ومنعهن من الخروج من مساكنهن ، لاي سبب كان ، وجنبوهن القراءة والكتابة ، بل وصل بهم الامر الى الغاء وجودهن نفسه ، بتحريم التحدث عنهن واعتباره من الامور المستقبحة .

والحجب لا يعني اخفاء المراة عن انظار الآخرين فقط ، بل يعني ايضا منعها شخصيا من النظر الى ما حولها ، ولو من خلال كل الستائر والجدران التي تفصلها عن الآخرين . فقد روى الامام الغزالي (٢) ، ان الازواج في عصره كانوا يسدون الكوى وثقوب الجدران كيلا يتطلع الرجال الى النسوان ! ، وان معازا رأى امرأته تطل من كوة فضربها . وينقل لنا حادثة اخرى جرت بين ابن عمر بن الخطاب وبعض ابنائه ويعلق عليها ، فقال : انكر ابن عمر منع النساء من الخروج للمساجد متمسكا بالحديث النبوي « لا تمنعوا آماء الله من مساجد الله » فأجابه بعض ولده : « بلى والله لنمنعهن » ، فضربه وغضب عليه ، وقال : « تسمعني اقول قال رسول الله (ص) وتقول بلى » (٣) . اما تعليق الغزالي على هذه الحادثة فكان : « انما استجرأ ولده على المخالفة لعلمه بتغير الزمان » . ويعني ذلك ان الامام توسل قاعدة : « تتبدل الاحكام بتبدل الازمان » ليجيز منع خروج المراة من منزلها ، حتى ولو كان خروجها الى المسجد . فالاتفاق بين المسلمين كان شاملا ، على عزل النساء عن المجتمع . وعلى القائهن في زوايا البيوت ، ولم يكن ذلك تطرفا من قبل فئة اجتماعية متزمتة معينة ، بل كان قاعدة سلوكية روج لها وافتاها رجال الدين انفسهم . ولعل في ذلك تلبية لمقتضيات وظروف تلك المرحلة من الزمان . ولكن ، وبعد مرور قرون عديدة اخرى ، وتغير ما تغير ، يلاحظ استمرار ظاهرة حجب النساء وعزلهن في اكثر من مجتمع عربي ، أفلا يحق ، لابناء هذا الزمن ، باستعمال القاعدة نفسها « تتبدل الاحكام بتبدل الازمان » ليعيدوا النظر بالحجب النسبي المفروض على المراة ؟ هذا مع العلم بأن اشكال هذا العزل قد تغيرت من وضعها في الانفراد المكاني ، الى وضعها في الانفراد الذهني والعقلي .

وقد عز على بعض المتطرفين وجود الجنس النسائي ، فلم يكتفوا بما فرضه عليهن المجتمع من قيود واسدل عليهن من ستائر ، فحجبهن وعزلهن ، بل ذهبوا الى تمني أن يكون القبر هو المكان الذي يحجبها حجبا كاملا . فقال

---

(١) محمد جميل بيهم ، سبق ذكره ، ص ١٠٦ .

(٢) الامام الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٣٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٠-٣١ .

احد المعبرين عنهم (١) :

ولم ار نعمــة شملــت كريما　　كنعمــة عورة سترت بقبــر

وقال آخر :

تهوى حياتي واهوى موتها شغفا　　والموت اكرم نزال على الحرم

وذكر لشاعر ثالث :

وددت بنيتــي ، وودت انــي　　دفنت بنيتي في قعر لحد .

ورابعهم يقول :

سميتهـــا اذ ولــدت تموت　　والقبر صهر ضامن وبيت .

كما جنبوهن الاختلاط بالنساء الاجنبيات او الغريبــات ، واقتصرت دائرة علاقاتهن بزيارة بعض النساء في المناسبات ، والذهاب الى الحمــام ، وزيارة المدافن (٢) . فكأني بهم ارادوها ان تتجه دائما نحــو الجانــب الميت من الحياة ! واستمرت هذه الظاهرة خلال عهود بني عثمان ، بــل تعــززت وانتشرت الى حد بعيد ، وعرفت الاجنحة الخاصة بالحريم في كل القصور ، وحتى في منازل اسر العامة ، وتأيدت بتحريم العلم عليها . وهكذا بقيت كل هذه الفترة اسيرة المكان والجهل .

ومما لا شك فيه ان لظاهرة حجب النساء اسبابــا ودوافـــع كثيرة ومتباينة . فمن اسبابها ان المسلمين الاوائل فهموا الآية التي تدعــو النسـاء الى ضرب الجلابيب على انها دعوة لحجبهن كليـــة وليس لحجب بعض الاجزاء من اجسامهن . ويتسم هذا الامر ، بنهي الاسلام الصريــح عــن الخلوة بين الجنسين . فعوضا عن ابقاء المنع في اطره وحدوده ، عمم فشمل كل ظهور للمراة ، وكل لقاء بين الجنسين . فليس كل ظهور للمراة في المجتمع اباحية ، ولا كل لقاء بين الجنسين خلوة . الا ان ما ابقى هــذا الواقع سائــدا هــو تفشي الجهل والامية على نطاق واسع ، بحيث استحال على المــرء الجاهل التمييز بين الخلوة والاختلاط ، بــين خروج المراة مـــن منزلها والتسري . فالجهل كان من عوامل الاغراق ومبالغة الرجل في ظلم زوجتــه . فقد نظر اليها من خلال جهله ، ومن خلال ما علق في ذهنه مــن صور عنها ، كونتها على مدى عصور مديدة ، ثقافة اجتماعية ، تداخلت فيهـــا الاحكــام الدينية التي تحجرت رغم تبدل الازمان وظهور ضرورة لاعـــادة النظر بكيفية تطبيـــق مضمونها ، مع بقايا تقاليد وعادات جاهلية ، وافكار غريبة عجمية ، لتؤلف محصلة الرأي بالنسبة للمراة ، وترسم صورة لهـــا . وتفــرض حجبهـــا . وترسخت تلك الصورة وتعمق ذلك الحجب . وليس ذلك كله سوى مرآة لتحجر ذهن الرجل نفســه وصدئه . لقد وجد ان اقرب الطرق الى استمرار

---

(١) عن الرسالة التي وجهها ابو بكر الخوارزمي ( القرن الحادي عشر للميلاد ) الى الرئيس بهراه.

(٢) هـ. غيز ، المرجع نفسه ، ص ٧٧ .

امتيازاته الرجالية وتمجيد ذكورته ، هو ابقاؤها على وضعها ، جهلا وحجبا ، بعيدة عن كل المؤثرات . وحشو ذهنها بأن الرجل مقدس تجب له الطاعة على الاطلاق . وانها كالاطفال تحتاج الى الوصي من المهد الى اللحد . وان حجزها هو لمصلحتها درءا لكل خطر يمكن ان يتهددها ، نظرا لقلة تجربتها . هذا التخوف صحيح على العموم ، لكنه يأتي كنتيجة لعزل النساء وليس سببا له .

ويعيد بعض الباحثين (١) ظاهرة حجز النساء الى الفرس ، الذين كان من عاداتهم حجز نسائهم في الخدور ، وتشديد الحجاب عليهن . وربط هؤلاء بين زيادة التاثير الفارسي في الدولة العباسية او في الدول التي تفرعت عنها ، وبين انحدار حالة المرأة وتعاظم تعاستها .

ويحدثنا التاريخ عما رافق حياة القصور والدواوين حين امسكت قلة من النافذين بثروة الدولة ، من مظاهر الفساد والانحلال وتدهور القيم والاخلاق ، وكيف اصبح التلهي بالغناء والطرب مع ما يصاحبهما من شراب وجنس عنوانا من عناوين الحياة الاجتماعية للطبقة الحاكمة . فكان لاستشراء هذه المظاهر آثارها في اوساط العامة ، وحتى عند بعض فئات الخاصة من الناس اذ حملتهم على التحوط في حجز النساء وحجبهن مخافة ان تصيبهن شهوات تلك الطبقة ، والى التضييق عليهن من حيث مخالطتهن للرجال عامة .

ويغيب عن بال الكثيرين ان هذه الظاهرة قد استمرت لعدم تطور الاوضاع الاقتصادية والانتاجية في المنطقة العربية قديما . فبالكد والعناء كان يتاح للرجل ان يمارس عملا ، او يجد مهنة . وذكرنا كيف ان السلطات الحاكمة التي تعاقبت على بلادنا ، حرصت على ابقاء كل شيء على حاله ، في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة . فبقيت فرص العمل على حالها ، لا بل تناقصت ، بينما استمر الطلب عليها بناء لتزايد السكان ، وبلوغ الاجيال سن العمل . فكانت النتيجة المباشرة لهذا الواقع هو انتشار البطالة لدى عدد كبير من الرجال . فكيف بك ، والواقع هذا ، تأمل او تنتظر تململا في الافكار بخروج المرأة من منزلها بما قد ينجم عنه من طلبها للعمل ، او دعوة لكي تنخرط في الحياة الاجتماعية مع ما يستتبعه من انعكاسات على صعيد وضع العمل الاقتصادي نفسه ؟

## دونية الانثى

تعكس المكانة الممنوحة للمرأة حالة المجتمع نفسه على وجه العموم ، وتجسد درجة تطوره . كما يعتبر تحليلها مدخلا حقيقيا للكشف عن طبيعة المجتمع . وبهذا الخصوص ، ليس هناك افضل من الآراء والمواقف التي

---

(١) محمد جميل بيهم ، سبق ذكره ، ص ١٢٠ .

اتخذها اصحاب العلم والراي تجاه المراة سبيلا لتوضيح المكانة التي كانت تشغلها في المجتمع العربي ابان الفترة الزمنية التي نتناولها بالدراسة . ولا يخفى ان لهؤلاء تاثيرا عظيما على نفوس الناس ، خصوصا لما عرف عن الشعب العربي من تأثر بالكلمة .

فها هو حكيم المعرة ابو العلاء ( القرن الحادي عشر للميلاد ) يقول في بعض قصائده :

| | |
|---|---|
| الا ان النساء **حبال غي** | لقينك بالاساور معلمات ، |
| **وان تعط الانات فاي بؤس** | تبين في وجوه مقسمات ، |
| **يلدن اعاديا** ويكن عارا .. | اذا امسين في المتهضمات |
| فدفن والحوادث فاجعات | لاحداهن **احدى المكرمات** (١) |
| **ودفن الغانيات لهن اوفى** | من الكلل المنيعة والخدور (٢) |
| كتب الطعن والقتال علينا | وعلى الغانيات جر الذيول |
| **ولسن بدافعات** يوم حرب | ولا في غارة متفشيات (٣) |

وخلاصة القول ان النساء يمثلن الضلال والغواية ، لذلك فان ولادتهن بؤس لا يعادله بؤس آخر . ويا ليته يتوقف عند حد ، بل يتعاظم لانهن يلدن الاعادي من الابناء ، لذلك يصبح من الافضل دفنهن ، ويرتقي هذا العمل الى مستوى الاعمال الكريمة . ويبرر مواقفه السلبية المتطرفة هذه لعدم اشتراك النساء بالحروب او في الاغارة ، بل يبقين كعبء على الرجال ، ولسنا بصدد مناقشة هذه الاقوال وما تحويه من تجن فاضح على المراة عامة ، ان نكتفي بعرض الصورة التي نشرها ابو العلاء وعممها عنهن ، لانها ستدخل بل ستشكل جزءا من لب الثقافة الاجتماعية السائدة .

فاذا كان فيلسوف المعرة الذي تحرر عقله من الخرافات وطلقها ، لم يستطع ان يحرره من ربقة الافكار السائدة في عصره عن المراة ، فكيف تكون الحال مع الانسان العادي الغاطس حتى راسه في ثقافة مجتمعه ؟

اما معاصره ابو بكر الخوارزمي فيقول في رسالة تعزية بموت فتاة : « لولا ما ذكرته من سترها، ووقفت عليه من غرائب امرها، لكنت الى **التهنئة** اقرب من التعزية . فان ستر **العورات** من الحسنات ودفن البنات من **المكرمات** . ونحن في زمان اذا قدم احدنا فيه الحرمة ، فقد استكمل **النعمة**، واذا زفت كريمه الى القبر ، فقد بلغ امنيته من الصهر » (٤) . انه يرى في موت الفتاة نعمة تستحق التهنئة ، لانها عورة قد سترت فكان ذلك من

---

(١) د. زكي المحاسني ، أبو العلاء ناقد المجتمع ، دار المعارف ، لبنان ، ١٩٦٣ ، ص ٣٠-٣١

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٠ .

(٤) محمد جميل بيهم ، سبق ذكره ، ص ٢٠٢ .

المكرمات . هـذا القول بالغ الدلالة يعكس ما في نفوس الناس مـن مشاعر خاصة تجاه جنس النساء عموما ، ويكشف منزلة الانثى خصوصا . هـي كائن مكروه وجوده لانه عورة . ولا يجلب سوى النوائب ، فموتهـا نعمة . فأية صورة تلك التي تنبع عنها كل هذه « الاماني » والدعوات التي ترى في موت المرأة احسن عطاء وهبة ؟ انهـا كانت تجسيدا للحقارة والـذل والمهانة والعار والعورات والوضاعة .

لم يطل الامام الغزالي في القرن الثاني عشر للميلاد ( ٤٥٠ هـ — ٥٠٥ هـ ) ويتحدث عن آداب علاقة الرجل بالمرأة ويخصص لها فصلا كاملا من كتابه : « احياء علوم الدين » .

« فالقول الجامع في آداب المرأة من غير تطويل ان تكون **قاعدة في قعر بيتها** . لازمة لمغزلها لا يكثر صعودها واطلاعها . قليلة الكـلام لجيرانها . لا تدخل عليهم الا في حال توجب الدخول . تحفظ بعلها في غيبته وحضرته ، **وتطلب مسرته** في جميع امورها . **ولا تخونه في نفسها** ومالها . ولا **تخرج من بيتها** الا باذنه . فان خرجت باذنه فمتخفية في **هيئة رثه** . تطلب المواضـع الخالية دون الشوارع والاسواق ، محـذرة ان **يسمع صوتها غريـب ،** او يعرفها بشخصها . لا تتعرف الى صديق بعلها في حاجتها . بل تتنكر على من تظن انه يعرفها ، او تعرفه . همها صلاح شأنها وتدبير بيتها . مقبلة علـى صلاتها وصيامها . وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله . **وتقدم** حقـه على حق نفسها ، **متنظفة** في نفسها . **مستعدة في الاحوال كلها للاستمتاع بها ان شاء** ، مشفقة على اولادها ، حافظة للستر عليهم ، قصيرة اللسان عن سب الاولاد **ومراجعة الزوج »** . وفي موضع آخر يفصح لنا عن الخلفية التي ينطلق منها ، وعن صورة المرأة في ذهنه اذ يقول : « فـان كيدهن عظيم ، وشرهن فاش ، والغالب عليهن سوء الخلق ، وركاكة العقل » .

يجب ان لا تغيب عن البال مكانة الغزالي ، فهو امام جيله ولا يـزال حتى اليوم حجة من حجج الاسلام . فان واجبات المرأة كما أشار اليهـا ، ليست سوى ، ما كان المجتمع يعتبره امرا طبيعيا ، ولم يكـن دور الغزالي ازاءها سوى التعبير عنها بلسان مجتمعه . فـان جازت وصدقـت معظـم اجتهاداته الفقهية ، فالى اي مدى ، يتوجـب على المسلم المعاصر ، تطبيـق الآداب التي دعا اليها الغزالي ، والمتعلقة بعلاقـة الرجل بالمرأة والمترتبة عـن المكانة التي يرسمها في مجمل مذهبه ؟ اليس هناك من سبيـل لتبديل الاحكام الموروثة عن المرأة بعد ان تبدلت الازمان ؟

ويمر قرن جديد ، فاذا بالنصائح المتعلقة بمعاملة النساء هي هـي ، تكشف لنا من جديد عن منزلة المرأة في ذلك العهد : « كل اسير يفك الا اسير النساء فانه غير مفكوك ، وكل مالك يملك الا مالك النساء فانه مملوك . وما استرعين شيئا قط **الا ضاع** ، ولا استؤمن على شيء **الا ذاع ،** ولا **اطعن شرا** فقصرن عنه ، ولا حوين خيرا فأبقين منه » . فقيـل له : « كيـف تذمهن ، ولولاهن لم تكن انت ولا امثالك من الحكماء ؟ » فقـال : « مثـل المرأة مثـل

النخلة الكثيرة السلاء لا يلامسها جسد الا اشتكى ، وحملها مع ذلك الرطب الطيب الجنى » (١) .

ويمكننا تلخيص منزلة المراة بعبارة واحدة كانت متداولة ، وعلى نطاق واسع ويومي ، وهي : « فلانة **تحت** فلان » ويذكرونها للكلام عن الزوجة او القرينة . وجملة القول ان المراة كانت ، على العموم ، أداة من أدوات لهو الحياة وزينتها ، تستعمل لاشباع حاجات الرجل ، عليها ان تكون دائما بخدمته وان تلغي نفسها وتقبل بالواقع كما هو ، لانها سيئة الخلق والطبع ، ضعيفة العقل ، مقصرة عن حمل المسؤولية . وهذا ما يجعل من اليسير التكهن بالمرتبة التي وضعت فيها المراة ، واكتشاف مكانتها الاجتماعية الوضيعة المحتقرة . وبقيت هذه الظاهرة سائدة حتى عهد قريب في أوساط الاسر ، بل ان آثارها لا تزال حتى يومنا هذا .

## الجنس حق الرجل وحده

رغم ان العلاقة الجنسية لا يمكن ان تكون موضوعا لظاهرة علنية ، الا انه لا بد من تناولها عند الحديث عن سمات الاسرة العربية .

مر أمامنا بسرعة ، تلميح لطبيعة العلاقة الجنسية التي يجب ان تكون بين الزوجين ، وذلك حين عرضنا مقتطفات من افكار الامام الغزالي ونعيد اثبات ومناقشة ما يخص هذه الناحية :

« تقدم حقه على حق نفسها ، متنظفة في نفسها ، مستعدة في الاحوال كلها للاستمتاع بها كيف يشاء ...... » ، فرغم اختصار هذا القول ، الا انه دقيق التعبير عما كان ينتظره الرجل من العلاقة الجنسية عموما : ان يشبع حاجته أولا وقبل كل شيء ، ولو كان ذلك على حساب شريكته . وان تكون الزوجة مستعدة دائما ، وبدون تقديم أية اعذار ، لتلبية نداء الجنس لدى زوجها ، فكأنها آلة يطلب صاحبها ان تبقى موصولة بالتيار ، مواسيرها مليئة بالزيوت ، تنتظر كبسة الزر لتنطلق بالاشتغال . وثالثا ان حق الزوج بالتمتع بها كيف يشاء هو حق مكرس . المهم هو مشيئته ، رغباته وطرقه ، وليس هناك أي حساب لوجود طرف آخر « شريك » له ما للطرف الاول من رغبات وأحاسيس ، ولا أي اعتبار آخر لطبيعة العملية الجنسية وكونها تفترض ثنائية متبادلة .

وتكتمل صورة الجنس حين نطالع التعريفات الفقهية ، للزواج والتي تضمها كتب الفقهاء حيث يعرفونه : « الزواج عقد يملك به الرجل بضع المراة » أي قضاء شهوته الجنسية . وبذلك يصبح الزواج والجنس كلاهما ، تعبيرا لمسمى واحد . ويعلق الاستاذ قاسم امين على هذا الموضوع فيقول (٢) :

---

(١) ينقل محمد جميل بيهم عن احد حكماء ذلك القرن في كتابه الذي سبق ذكره ، ص ٢٠٠ .
(٢) نقلا عن الاستاذ محمد جميل بيهم ، سبق ذكره ، ص ٢٠٤ .

« الذي يقارن بين التعريف الاول الذي فاض عن علم الفقهاء علينا ، والتعريف الثاني الذي نزل من عند الله ( الآية : ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم ازواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون ) ، يرى بنفسه الى أي درجة وصل انحطاط المرأة في رأي فقهائنا ، وسرى منهم الى عامة المسلمين » . ونضيف : والى اي درجه يساهم الفقهاء في تصوير المرأة كمطية ، والزواج كممارسة للجنس ليس الا ، وان المبادرة يجب ان تبقى في يد الرجل ولصالحه . وانطلاقا من هذا المعتقد حصلت ممارسات أدت الى تصدع مؤسسة الزواج ، وأودت بالسعادة الزوجية ، وحطمت الحياة الاسرية . تتلخص تلك الممارسات بعدم شعور الزوج بأية واجبات اشباعية تجاه زوجته ، اذ كان يرى الامر من مقياس نفسه واشباعها . كما أنه لم يسع الى الالتفات لاعتباراتها الشخصية والنفسية والعاطفية ، فتحول الجنس الى كابوس ، ممارسته تؤرق الزوجات ، واصبح مشوبا بالالم عوضا عن ان يحقق المتعة (١) . فانقلب الى حق لصالح طرف واحد . وعذاب يؤلم الطرف الآخر في آن معا . وغالبا ما كان يسعر هذا الواقع ويديمه ، ضآلة الثقافة الجنسية وضحالتها ، بل كونها سيئة ومغلوطة في كثير من الاحيان ، من جهة ، وادخال فكرة « ما الجنس الا للاولاد » في اذهان الزوجات من جهة اخرى ، ليسهل عليهن التضحية ، وتحمل الالم ، لتحقيق غاية الزواج . وهذا الواقع لا يلغي ما تلقاه الزوجات من أذى مادي ونفسي ، بل يوظف كخدمة لتلبية الزوج ... والانجاب .

## تعدد الزوجات

وهي من الظاهرات التي عرفت مدا وجزرا في الاسرة العربية . فانتشارها كان يتعلق بجملة أسباب أهمها البحث الدائم والمستمر عن ايد عاملة جديدة مجانية توضع في خدمة الارض ، لذلك كان الريف مهدا لهذه الظاهرة فانتشرت فيه اكثر من انتشارها في المدن (٢) . كما ساهم الفقر والجهل ومكانة المرأة الوضيعة بتسليم المرأة نفسها لنظام تعدد الزوجات ، ضرة كانت أو زوجة أولى . فرضيت به أمرا واقعا ، بل وأقرته عند عقمها ، واعتبرت ان ميزات الرجل وامتيازاته تبرر له الزواج المتكرر .

اما في المدن . فتعدد الزوجات ، ليس التجسيد العملي للافكار المترسخة في الاذهان عن الجنس وعن مكانة المرأة . فاذا كان ما علمه الفقهاء للناس يقصر الزواج على الجنس ، فالرجال كانوا يسعون الى زواج آخر

---

(١) لمزيد من التوسع في هذا الموضوع انظر كتاب :
— يوسف المصري ، المأساة الجنسية للمرأة في الشرق العربي ، منشورات روبير لافونت ، باريس ، ١٩٦٢ ( بالفرنسية ) .

(٢) د. ليلى الصباغ ، سبق ذكره ، ص ١٥٣ .

طالما هم قادرون على مضاعفة ممارستهم له . ولا يحسبون لذلك اي حساب آخر ، خاصة اقتسام المشاعر والعواطف أو شروط الحياة الاسرية الناجحة .

## انتشار الامية على أشكالها وتفشي الجهل

عرفت الاسر العربية بمختلف انماطها ، الامية على اشكالها المتعددة ، ودرجاتها المتقاربة ، في الريف كما في المدن ، في أوساط الاطفال كما لدى النساء والرجال .

ففي الريف ، كان يقضي ارتباط معيشة الناس بموارد الارض والاستغلال الذي كانوا يتعرضون له ، بان يتجندوا من الكبير الى الصغير . ومن الرجال الى النساء ، للقيام بالعمل الزراعي . فاستوعب أوقاتهم وفئاتهم وجهودهم ، وانحصر به اهتمامهم . ولم تكن هناك فرصة تسمح بان يولوا الثقافة منهم لغير همومهم الزراعية . وكان العلم أو التعليم آخر موضوع يفكرون به . فاذا أضيف افتقاد مدارس في القرى لفهمنا أسباب أمية أطفال الاسر الريفية . أما شيخ القرية فكان يجمع بعض الاطفال ويلقنهم سورا من القرآن لغايات دينية . فاذا ختموه أكرمه آباء الصبية بدعوته الى الغداء او باعطائه مبلغا من المال . ولم يكن ختم القرآن يعني الالمام بالقراءة . لان طريقة الشيخ كانت تلقينية ترتكز على التكرار السمعي واللفظي ، فتغيب الآيات دون أن يفقه لها معنى ، أو يتمكن المستذكر من قراءتها من المصحف منفردا .

اما أولاد الاسر الارستقراطية الريفية فكان يستقدم لهم مربون ليعلموهم الى جانب قراءة القرآن ، مبادىء الكتابة والحساب . فاذا اتموا هذه المرحلة ، ارسلهم اباؤهم الى عواصم الولايات او المدن الاخرى لمتابعة التحصيل في مدارسها المخصصة لتعليم الفقه وعلوم اللغة والدين . ولم يتمكن أحد غير الارستقراطيين من تحمل نفقات هذا التعليم ، فاكتسب منذ ذلك الحين طابعا طبقيا . وسنعود لبحث طبيعة وقيمة ما يوفره لهم من تثقيف .

وامية باقي أفراد الاسرة الريفية تكتسب عمقا وابعادا اخرى . فالي جانب عدم المام الرجال والنساء بالقراءة والكتابة منذ حداثتهم ، فان الثقافة الاجتماعية المتاحة لهم تتكون بمجملها من أخبار تاريخية ، ومعلومات دينية ، ووقائع حربية ، وأساطير وحكايات يتناقلونها من جيل الى جيل ، ويعطونها طابع المعرفة والثقافة . وهي في واقع الامر تشمل كل شيء الا حقيقة الاشياء ووقائعها . وكما كانوا يحرصون على الا يغيروا من فهمهم للدين ومبادئه وتعاليمه بحجة الحذر من ادخال شوائب عليه ، كذلك تشددوا في تطبيق اعرافهم وتقاليدهم ، فلم يتعلموا من تجربتهم الحياتية ولم يتجددوا في ممارساتهم ، وبقوا أسرى الجهل والتوهمات والخيال في مختلف الميادين . كان كل شيء يحول دون اكتسابهم لمعرفة صحيحة جديدة ، وبقيت اعتقاداتهم

ومعلوماتهم باطلة ، الى حد بعيد ، وقاوموا كل تجدد ، معتبرين انه يمس الدين ، فكرسوا بذلك جهالتهم مبدأ مقدسا .

ولم يكن اطلاعهم على امور الدين وتعاليمه احسن حالا . لان من يشرحه لهم ، وهو شيخ القرية ، ليس بأسعد حالا منهم . فغالبا ما كان المامه به سطحيا ، ومعرفته لحقائقه واحكامه ساذجة ، تمكن من استظهارها خلال فترة التحصيل السريعة التي أتمها منذ عشرات السنين . لذلك ينقل عجزه عن ادراك البعد الديني للحقائق العميقة الى الفلاحين البسطاء على صورة تعاليم محجرة ، على انها جوهر الدين الذي يجب ان لا يمس . هذا الواقع يفسر سلوك الاسر الريفية المتجمد ، وحفاظها على ما هو قديم او تقليدي ، ومقاومتها لكل تجديد ، وثورة افرادها وانفعالهم حيال اقل بادرة تمس الدين ، أو ترمي الى شرحه وفهمه ، بطريقة تختلف الى حد ما ، عما اعتادوه وسمعوه . فالمعلومات حين تستقى من افواه الآخرين غير المؤهلين او الكفوءين كفاءة عالية ، وتحل محل تلك المأخوذة من مصادرها ، من بطون الكتب ، لا تؤدي الى معرفة حقيقية ، بل تصبح أحجار عثرة ، وعوائق نفسية ، وفكرية أمام كل محاولة ترمي الى تثقيف صحيح ، والى نقل المعارف الموثوقة .

ويتبين ان أمية الريفيين ومصدر القلق حيالها ، ليسا ناجمين عن عدم المامهم بالقراءة والكتابة ، بل لاخذهم الاوهام على انها حقائق ، والتوهمات على انها معارف ، والاساطير على انها معلومات ...

أما في المدن ، فكان الوضع مختلفا . فقد كان بمقدور الآباء الميسورين الذين ليسوا بحاجة لنتاج عمل اطفالهم ان يرسلوا الصبيان منهم الى الكتاتيب ليتولى شيخ أو معلم تعليمهم قراءة القرآن ومن ثمة القراءة والكتابة . ولم تكن فترة التعليم كافية ليتمكن الاطفال من الالمام بهما ، لذلك فان ختم القرآن في مثل هذه الحال ، لا يعني مطلقا التوصل الى معرفة القراءة والكتابة . ومتابعة الطريق تقتضي الانتقال من هذه المرحلة البدئية البسيطة ، الدينية الغاية ، الى مرحلة أرقى ، يتعلم فيها من استطاع أهله متابعة الانفاق عليه ، في مدارس مخصصة أو في المساجد ، الفقه واصول الحديث والعلوم اللغوية والدينية الى جانب دراسة القرآن . وكان هؤلاء يشكلون عند انجاز المرور بهذه المرحلة فئة رجال الدين العلماء ، وهم بنظر العامة اصحاب العلم وموطنه ، ومن أفواههم يجب ان يتلقوا المعرفة ، لقد حملت لهم القلوب تقديرا واحتراما عميقين . وعندما تنتهي هذه المرحلة كان بعض الذين انجزوها يتوجه الى التدريس والتعليم في الارياف ، وبعضهم ينصرف لتلقي علوم الخط والكتابة ليختص فيما بعد بتأدية الاعمال الكتابية للآخرين ، من كتابة رسائل للعامة ، وتسجيل الحسابات وكتابة الاستدعاءات الموجهة الى السلطات باسم التجار . أما الباقون فينتقلون الى مرحلة اعلى من التعلم ، كانت تحتم عليهم الانتقال الى الآستانة للتخصص بالعلوم القرآنية والدينية عموما. وهؤلاء كانوا يتولون المناصب الكبرى من قضاء وافتاء وولاية وغيرها .

ويتضح من كل ما تقدم ، ان التعلم كان وقفا على فئة من الناس ، وهي

الاغنياء . وحتى هؤلاء لا يقطعون الا مراحله الاولى . لذلك انعكس هذا الوضع الثقافي العام للمجتمع على الاسرة وترك بصماته على افرادها .

فالاسر المدينية غير الثرية كانت تكتفي بارسال ابنائها الذكور لانهاء المرحلة البدئية ، وبعدها ينخرط هؤلاء في الحياة العملية وينضمون لاخوات الحرفية والنقابات ، فيتابعون تحصيلهم على أيدي شيوخ الكار أو مشايخ الطرق الصوفية .

فأمية اطفال المدن كانت شاملة بالنسبة للبنات ، حيث لم يكن يسمح لهن بتعلم قراءة القرآن ، بل حظين بتعلم « الثقافة المنزلية » التي تشمل أصول الكنس والطبخ والخياطة واشغال البيت الاخرى . وكان الاعتقاد السائد هو ان تجنيب الفتيات القراءة والكتابة يقلل من خبثهن ومكرهن (١) .

أما بالنسبة الى الاطفال الذكور فلم تكن أميتهم تامة ، لان قسما منهم تمكن من تلقي النزر اليسير من مبادىء القراءة والكتابة ، مما لا يؤهل عمليا للمطالعة الحرة . وهؤلاء كانوا ينضمون فيما بعد الى ابائهم ، والى بقية المدينيين من حيث اعتمادهم على أفواه الآخرين لمتابعة تكوين زادهم من الثقافة الاجتماعية .

وكانت تلك الثقافة تقوم على ناقلين لها ومستمعين وجملة مواد . فناقلوها كانوا من القصاصين الذين يتولون ، كل مساء ، خلال ساعة ، تثقيف جمهور المقاهي بأداء أدوار يشخصون فيها ، حوادث تاريخية ، أو غيرها ، مستقين معلوماتهم من مخطوطات قديمة ، تكون غالبا اسطورية أو مبتذلة (٢) ، في حين يتولى شيوخ الطرق الصوفية اكمال نقل الثقافة الدينية لمريديهم ، وكان هؤلاء يعدون بالمئات او بعشرات المئات . فيعمدون الى توجيه سلوكهم وتصرفاتهم والتأثير على اعتقاداتهم . وينبغي تسجيل بعض الافكار الصوفية ، في هذا المجال ، لنرصد فيما بعد الآثار الجمة التي تركتها على الصعيد الاسري .

كان التصوف يعني التقشف والزهد والاعراض عن الدنيا وزخرفها ، والعكوف على العبادة والتفاني في حب الله والاخلاص لاوامره . ولم تلبث هذه المعاني ان تطورت مع الزمن بفعل ما داخلها من الآراء والافكار الافلاطونية والافلوطينية والمؤثرات الهندية والمسيحية . فنتج عن هذا المزج قولهم ، بمعرفة كاملة لطبيعة الله وصفاته ، وان ادراكها يتم بممارسة الرياضة الروحية . وهذه تهدف عند جميع الفرق ، الى الوصول الى تماس مع الله . ويظهر هذا التماس بالكرامات . فالكرامات تزود المتصوف بقوة خارقة تضع في مقدوره قراءة الغيب . فيكتسب صاحبها لقب ولي . ويسعى الناس للتبرك به في حياته ، وبعد مماته كانوا يطلبون منه التدخل لحل مشاكلهم ويزورون قبره لطلب شفاعته (٣) . كما « ان فكرة الايثار والتضحية اعتبرت

---

(١) هـ. غيز ، سبق ذكره ، ج ١ ص ٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٦ .

(٣) جيب ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .

من اوائل مبادىء الصوفيين . وقد اضافوا اليها صفات اخرى متصلة بها مثل كف الاذى وبذل الندى وترك الشكوى واسقاط الجاه والعفو عن زلات الغير » (١) ، وقد تحول هذا الايمان الى سلوك عملي اتخذ مظهرا مثيرا ، مثل حلق شعر الراس واللحى والحواجب (٢) ، او الغناء والرقص ، او تعريض النفس للعذاب والحرق ، والتجمع في حلقات ذكر ، للذوبان في الذات الآلهية .

وكان بعض قادة هذه الحركات الصوفية رجالا ذوي ثقافة دينية ضيقة ، ومعرفة سطحية بطقوس السنة ومعتقداتها ، ويظهر ذلك من خلال نزعاتهم المتراخية في تطبيق المبادىء السنية ، وفي مزجهم معتقداتها بأفكار من باطنهم لا تتلاءم معها . ورغم ذلك كله كان لهم كثير من المؤيدين والمريدين ، انتشروا في مجمل طبقات الشعب (٣) ، واصبحوا يتمتعون بنفوذ واسع بين الصناع بخاصة كما سبق وذكرنا . والنتيجة ان الاسفاف الفكري والسلوكي اصبح سيد الساحة في المنطقة العربية خاصة خلال فترة القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فانتشرت البدع الجديدة ، وتفشت الخرافات ، وتمسك الناس بالاوهام . فسيطرت الفرق الصوفية الشعبية ، التي لم تحفظ من الصوفية الاولى الا بعض المظاهر . وخفتت كل معارضة حتى ان معظم العلماء في القرنين المذكورين انتمى الى احدى الفرقتين الصوفيتين الخلوتية او النقشبندية (٤) .

والاخطر من ذلك كله ، والاعمق تأثيرا على الحياة الاجتماعية كان موقف السلطات من هذه التيارات التي اتخذت من القاء الناس في مهاوي الاساطير والجهل وقتل مبادراتهم وشل حركتهم الحرة ، غايات سعت الى تحقيقها . فلقد شجعتها ، وحمت اغلبية شيوخ الطرق الصوفية ، واعترفت بمزاراتهم وبكل طقوسهم ، مما ساعد على تردي الوضع الثقافي والفكري لجماعات الناس والمضاعفة من أميتهم ومن تأثيرها على تصرفاتهم ومعتقداتهم .

ومن تلك النتائج :

١ ـ انصراف الناس كليا للعبادة والزهد والانتساب للصوفية باعداد كبيرة ، وابتعادهم عن ممارسة العمل المنتج . فضاعت على المجتمع عقول وسواعد كثيرة .

٢ ـ شيوع الافكار الخرافية والاسطورية في اذهان الناس . حيث سادت النظرة الى الولي بانه صاحب قوة خارقة وتنبؤات وبانه صاحب كرامات ، فتعلقوا به ، وولوه أمورهم ، فقضي على كل

---

(١) د. ابو العلاء عفيفي ، الملامتية الصوفية واهل الفتوة ، ص ٢٥ـ٢٦ .

(٢) النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، حققه جعفر الحسني ، دمشق ، ١٩٤٨ ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

(٣) د. ليلى الصباغ ، سبق ذكره ، ص ١٩٦ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٩٧ .

مجال للاعتماد على الذات أو التجربة الشخصية .

٣ ـ انتشار ظاهرة تعاطي انواع المخدرات والغيبوبة .

٤ ـ التمسح على أعتاب قبور الاولياء ومزاراتهم مما ادى الى اغتيال ثقة الناس بانفسهم وبقدرتهم على الفعل ، وحل مشاكلهم بانفسهم .

٥ ـ رسوخ الاعتقاد بالتنجيم والسحر واستعمال التمائم والحجاب لشفاء المرضى ، مع ما يعني ذلك من نشر الجهل ، وأبعاد الناس عن حقائق الاشياء وأسبابها .

أما الصنف الثالث من ناقلي الثقافة الاجتماعية فكان رجال الدين . ولعلهم كانوا افضلهم جميعا . الا ان الانحطاط أصاب تعليم الشريعة وأصول الدين نفسه ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، بعد ان أصبح التعيين لمناصب التدريس لا يرتكز على شروط علمية (١) ، فانعكس ذلك على نوعية رجال الدين وكفاءتهم ، « فبرز علماء حشويون ، كانوا لاصحاب السلطة مؤيدين ، وللخرافات انصارا ومبتكرين ، اتخذوا من العلم تجارة ، ووسيلة لارضاء أهواء الحكام بغية الحفاظ على رضاهم وتأمين استمرار تدفق عطاياهم » (٢) . فلم ينج هؤلاء مما أصاب غيرهم من ناقلي الثقافة الاجتماعية ، واصبح الكل سواء ، بعد ان غاب المضمون الديني أو العلمي او العقلي الموثوق ، عن المواد والمعلومات التي نقلوها . فحصد المجتمع اسوأ حصيلة . وأصبح الجهل علما معمما ، والافكار الفاسدة معلومات موثوقة ، والاوهام حقائق . وهذه المظاهر كلها اسوأ من الامية بكثير واخطر اثرا .

وبقي الحال على ما هو عليه حتى بداية القرن العشرين ، أي عند تفكك الدولة العثمانية . فقد أخذت المدارس الاجنبية تتأسس بهدف التبشير خلال القرن التاسع عشر ، وفي أماكن مختلفة ومتعددة من الولايات العربية . فتعلم وتخرج متعلمين يختلفون نوعيا عن المتعلمين على ايدي ناقلي الثقافة الاجتماعية المذكورين ، حيث لفتت الانظار ، واخذ بعض شباب المسلمين يدرس النحو ، والمعارف الاخرى على علماء مسيحيين ، بعد ان جددوا اصول تعليمها . وخاف المسؤولون المسلمون من نتيجة هذا التوجه فاسسوا بعض المدارس الرسمية وجعلوها للعامة ، منها المدارس العسكرية والاعدادية . وخصصوا بعضها لتدريس البنات ، وادخوا على برامجها بعض التعديلات فلم تعد دينية المحتوى بالكامل ، بل اضافوا تعليم مبادىء الحساب واللغة وعلوم الاشياء .

هذا التحول سيكون له ابلغ الاثر على تطور الحياة الاجتماعية عامة ،

---

(١) د. ليلى الصباغ ، المصدر سبق ذكره ، ص ١٧٣ .

(٢) محمد جميل بيهم ، المصدر سبق ذكره ، ص ٢٧٧ .

وتطوير البنية الاسرية (١) بشكل خاص . فوضع الاسرة الثقافي لا يمكن ان ينفصل عن الوضع الثقافي العام للمجتمع ، لانها كمؤسسة تجسد مجمل صفاته وسماته ، وتعكس محتواه ، وبالتالي ، فلا يمكن دراسة احد الوضعين منفصلا عن الاخر ، لان فهم اي منهما لا يتم بمعزل عما هو سائد في حالة الثاني .

## اللجوء الى الخرافة والتعلق بالاوهام

اذا عرّفنا الخرافة بانها مجموعة الافكار والممارسات والعادات التي لا تستند الى اي تبرير عقلي ولا تخضع لاي مفهوم علمي سواء من حيث النظرية او التطبيق (٢) . فان حياة الاسرة العربية آنذاك كانت ميدانا فسيحا لتاثيرات الخرافة . فقد سيطرت على الفرد منفردا وعلى الاسرة بمجموعها ، واصبح لها دور بارز في نقل المعلومات او تمثلها ، وفي تفسير الاحداث او تعليلها . كمثل الاعتقاد بامكانية التخلص من الضرة والحاق الاذى بها وكسب الزوج الى جانب زوجة معينة بواسطة السحر والاستعانة بالشياطين . هذا الاعتقاد هو اعتقاد خرافي كما هو واضح . لانه مبني على معلومات خرافية ، هي امكانية تسخير ما يسمى بالشياطين او الملائكة لانجاز مثل هذه العملية .

ان الاستغلال والاضطهاد المستمرين احالا حياة الاسرة والافراد الى سلسلة متصلة من البؤس والشقاء وقضيا على امل الانسان في تحسين احواله . مما دفع بالجماهير البسيطة — الفقيرة الى البحث عن العزاء والراحة في عالم السحر وما وراء الطبيعة (٣) . ذلك العالم وما يتضمن من الخرافات لم يكن بطبيعة الحال اختراعا جديدا بقدر ما كان استمرارا وتطويرا واضافة على خرافات قديمة يعود تاريخها الى ما قبل الاسلام بقرون . انما طرأ على هذه الخرافات تطوير مهم ، وهو تداخلها مع الدين ، واكتساب بعضها شيئا من قدسية التعاليم الدينية نتيجة لتفسير بعض الآيات والاحاديث بصورة تتلاءم معها — اي الخرافات — وبسبب النصوص التي لم يجد لها المسلمون تفسيرا عقليا مقنعا (٤) فاصبح الناس يؤمنون بانها جزء من الحياة ومن الدين ، ويتصرفون على اساس هذا الايمان والاعتقاد . ومن الخرافات التي لعبت دورا مهما في حياة الاسرة . وما زال لها تاثير قوي على الجماهير نذكر الكائنات الخفية : الجن والعفاريت والشياطين . فقد كانت صورها في اذهان الناس تتحكم في تصرفات الفرد وسلوكه في مراحل حياته المتعددة او خلال الحياة اليومية .

---

**(١) وسنعرض ذلك بالتفصيل في الفصل اللاحق .**

**(٢) د. ابراهيم بدران ، ود. سلوى الخماش ، دراسات في العقلية العربية — الخرافة دار الحقيقة — ١٩٧٤ ، بيروت ، ص ١٣ .**

**(٣) احمد امين ، ظهر الاسلام ، ج ٤ ، ص ٢١٣ ، ٢١٩ .**

**(٤) د. بدران ، د. خماش ، سبق ذكره ، ص ١٨ .**

وكانت المرأة بحكم جهلها وانعدام خبرتها وعزلتها ، هي اكثر افراد المجتمع والاسرة تجاوبا مع الخرافات واكثر ميلا لتصديقها والعمل بها . وخطورة هذا الواقع كانت تنعكس على الاطفال في سني حياتهم الاولى حين تكون الام المصدر الاساسي والوحيد للمعلومات التي ترسم معالم ذهنية الطفل وشخصيته . لقد لجأت الى استخدام الجن والعفاريت والشياطين كوسيلة لتخويف الطفل او لردعه عند قيامه بما لا يعجبها ، كما احاطته بدرع من السور والاحجبة والرقى والتعاويذ ، فنقلت اليه . دون ان تشعر ، خوفها الحقيقي الذي كانت تحاول اخفاءه بقناع من التخويف ، وكما مررت اليه هلعها وتشاؤمها وتحسبها وخوفها عليه من شرور الجن ، في ساعات رضاها . اما خرافاتها فقد تسربت اليه عن طريق القصص ، بكل تفاصيلها ودقائقها .

ان مثل هذه القصص ، لا تزيد عن كونها وسائل ارهابية تمعن في تخويف الطفل وتضعف ثقته بنفسه ، وتضطره للالتجاء الى الاخرين دائما . الامر الذي ينعكس على نفسيته بصورة عامة . فتكبت تطلعاته وتساؤلاته وتنشأ في ذهنه صورة مشوهة عن العالم ، يرى فيها نفسه وحيدا ، ضعيفا ، مترددا يخاف على نفسه من المخاطر غير المرئية (١) .

اما دور الخرافة وتأثيرها في المجال الزوجي فنكتشفه حين نعرف ان نسبة كبيرة من الازواج والزوجات كانت تسخر الجن والشياطين لحل مشاكلها المتعلقة بالزواج والطلاق والمحبة والكراهية . فانتشرت عادة « كتابة الاحجبه » لتذليل زوج وجعله يعود الى البيت باكرا ، او لمضاعفة تعلقه بزوجته ، او للعودة عن طلاق لفظه ، او لدفع اذى الكائنات الخفية عن الفرد .

والحقيقة ان المرأة بصفتها العضو الاضعف في الاسرة والمعتمد اقتصاديا على الرجل ، وغير المالكة لمستقبلها الا من خلال رضا الزوج ، كانت ترى نفسها مضطرة الى اللجوء الى سلوكيات تخالف ما يفترض ان تراعيه من قيم ، كل ذلك في سبيل تحقيق ما يتوقع الرجل ان تحققه له ، وبالاخص الحمل والانجاب ، فلا بأس ان تشترك بحفلة مختلطة للرجال والنساء على نية الحمل ، من اجل ان تؤمن مستقبلها الزوجي في البقاء معه ، ينفق عليها ويحفظ لها مكانتها الاجتماعية كامرأة متزوجة ، سيدة بيت ، ولود .

اما الشيطان فكان المسؤول الاول عن كل صغيرة وكبيرة تقع للانسان . ولم يقتصر دوره على الغواية في المسائل الدينية ، بل انه تغلغل في اعماق الذات العربية ، واصبح ستارا تختفي وراءه كل العلل والاسباب ، ومشجبا تعلق عليه التبريرات والمعاذير ، ومستودعا للاخطاء والهفوات ، سواء على مستوى الفرد او على مستوى الجماعة . وهذا مما ساعد على انصاف

---

(١) بدران وخماش ، سبق ذكره ، ص ٥٢ .

آلية التحليل في العقلية العربية ، وتنمية التعليل الغيبي الساذج وسهولة مغالطة الواقع ، بالتغاضي عن حقائقه المادية وارجاع كل شيء الى الشيطان (١) . فهو يوقع بين الزوج وزوجته ، بين الاب وابنه ، بين رب الاسرة والمسيطر على الارض .

ويذكر في هذا المجال ان الخلافات بين الافراد عموما ، وبين الزوج وزوجته كانت تفسر على ان الشيطان قد « لعب بعقل » احد الاطراف وبذلك يكتفي بهذا التفسير عن الدخول في تفاصيل الموضوع والبحث عن اسبابه الحقيقية .

والى جانب الكائنات الخفية لعب الاولياء والسحرة والمشعوذون ادوارا مهمة في حياة الاسر وقتئذ . وكانت للفرق الصوفية اليد الطولى في شحذ خيال الجماهير ونسبة خوارق الاحداث الى ائمتها ، ليزيدوا من تعلق هؤلاء بالائمة ، وليعززوا في نفس الوقت المكانة المادية والمعنوية للمتصوفة في نفوس الناس ، سواء رغبة في ان يصيبهم شيء من الكرامات الخيرة لهؤلاء الاولياء ، او خوفا من انتقامهم الذي يوحون بقصصهم انه قد يكون مدمرا . وعملوا على نشر بعض الاحاديث النبوية او القدسية ومنها الحديث القدسي التالي : « عبدي انا الذي يقول للشيء كن فيكون ، فأطعني أجعلك بقدرتي ربانيا تقول للشيء كن فيكون » (٢) . ويؤكد الصوفيون ان ما يذيعونه بين العامة من كرامات قد ورد في القرآن وفي الاحاديث استنادا الى المقولة بان الله يفعل ما يريد ومتى يريد وبالكيفية التي يريد دون ان يكون هناك اشتراط من نوع معين . وبالتالي ليس هناك شرط مواصفات خاصة يجب ان تتوفر في صاحب الكرامة ، وصار سهلا ان يصبح من يدعي الولاية وليا في نظر الجماهير المسلمة . فتتقرب منه تطلب منه البركة وتسأله التوسط لها لقضاء الحاجات ، ويعتبر دخوله البيوت تشريفا لها وتبريكا . اما بعد مماته فكان يتحول ضريح الولي الى مزار تلتمس على اعتابه الشفاعات والكرامات . والزوجة هي التي تقصد في الغالب قبر الولي لتطلب منه مساعدتها على شفاء ابنها المريض ، او لترد زوجها الغائب ، او ليحقق لها امنية . فلكل شيخ مريض يشفيه . فكان احدهم متخصصا لشفاء الصداع وآخر لمعالجة الهزال ، وثالث لمرض النفس والحسد ، ورابع لمرض العيون ، او الغيرة (٣) .

هذا التخصص يعكس بطبيعة الحال تنوع الاحتياجات الجماهيرية او الاسرية ورغبتها في التأكد من قضاء هذه الحاجات على يد ولي متخصص . ويبدو ان خدم اضرحة الاولياء كان لهم دور كبير في اشاعة فكرة التخصص

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٧٧–٧٨ .

(٢) محمود ابو الفيض المنوفي الحسيني ، جمهرة الاولياء ، ص ١٠٦ .

(٣) انظر قائمة الاولياء وتخصص كل منهم واوقات زيارته في كتاب :
عبد الحميد السحار ، في قافلة الزمان ، ابتداء من ص ٥٧ .

تبعا لرواج الحاجة الاجتماعية .

وتوافدت النساء على اضرحة الاولياء للعثور على زوج ، او استرجاع زوج مال لأخرى ، او للحصول على البنين والبنات او طلب القضاء على ضرة ، الى غير ذلك من المطالب . ونلاحظ ان التقاليد الاجتماعية التي فرضت العزلة على المرأة وابقتها مخلوقا تابعا للرجل اقتصاديا وقانونيا ، هي التي افرزت حالة الطغيان من قبل الرجل على المرأة . فعجزت عن مواجهة هذا الطغيان عجزا ماديا او فكريا او قانونيا واندفعت الى ما هو خارج عن القانون والمادة وخارج عن الفكر العقلاني ، اي الى الخرافة ، سواء كانت هذه الخرافة على شكل طلسم او تميمة او تعويذة او حجاب او ضريح ، وحتى على شكل ادعية وابتهالات .

فكما تخصص كل ولي بمريض ، كذلك عرفت صناعة الادعية رواجا ، لتشمل وتغطي كافة الحاجات والاغراض . فيمكن ان تجد متداولا لكل مشكلة وصفة خاصة بها تتضمن بالاضافة الى الدعاء اداء عدد من الركعات او صوم عدد من الايام وذلك ضمانا للنتيجة . فهذه ادعية للشفاء من المرض واخرى لتفريج الغم وثالثة لازالة الكرب ، ورابعة لتوكيد المحبة الزوجية وخامسة لحل الخلافات الاسرية وسادسة لرزق البنين الخ.. (١) .

اما الحسد والسحر والشعوذة فلم تعدم تأثيرا في الاسرة . فالاعتقاد بالحسد قديم وواسع الانتشار بين الشعوب . وتستخدم لازالة مفعوله ورد شر « العين الحاسدة » وسائل مختلفة ، واحيانا معقدة ، لضمان النتيجة . والحسد هو حالة من الشعور بالنقص المادي او المعنوي مستندة الى نوع من العجز في ذات الحاسد لا يستطيع التغلب عليه . ولتغطية هذا النقص لا يجد حيلة ليفقد الآخرين من عنصر تفوقهم الا ان يتمنى لهم الشر والفقدان . وهو بذلك « يحسدهم » (٢) . ولعل المرض ، والفرقة ، وجفاف الزرع ، وانقطاع الانجاب من احداث لم يكن الانسان انذاك بقادر على تعليلها تعليلا علميا . فمن يبحث عن السبب يعزوه لاناس كانوا يعبرون عن تمنيهم ان يكون لديهم ما يمتلك ، سواء صحة او سعادة زوجية ، او خصب ارض او خصوبة زوجة . كذلك لا بد من رد عين الحاسد . ووسيلة منع الحسد هو لبس الحجاب الذي يمنع العين ، ولهم في ذلك طرق منها : « وضع قليل من الملح الجريش في كيس يعلق في عنق الاطفال ، كذلك ناب الذئب ، او ناب الضبع ، او راس هدهد عليه ريش ، توضع في قطعة من السختيان الاحمر ويخاط » (٣) او كانوا يدرؤون اذى عين الحاسد بالتمائم والاحجبة ، والشبة والخرزة الزرقاء او ( الما شاء الله ) الذهبية والكف .

ان الفقر والاستغلال وسوء التغذية ، وانتشار الامراض ، والجهل ،

---

(١) د. بدران ,د. الخماش ، سبق ذكره ، ص ٢٠١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤٩ .

(٣) احمد امين ، قاموس العادات ، ص ١٦٧ .

وأرتفاع معدل الوفيات في المواليد تجعل حصول حوادث فجائية أمرا ممكنا، وكثيرا ما كان يرجع افراد الاسرة ما اصابهم الى تأثير العين الحاسدة لانهم يجهلون حقيقة ما جرى .

اما اعمال السحر فكانت سلعا مطلوبة من الاسرة . تلجأ الى المشتغلين بها المنتشرين في معظم القرى والمدن العربية ، لتنفذ لها طلبات معينة تعينها على مواجهة مشاكل الحياة . فمن كتابة حجاب لمنع الحسد ، الى حجاب لكسب المحبة او الكراهية ، او الى آخر ما يبطل مفعول سحر نازل بشخص، والى غير ذلك .

لقد كانت الخرافة هي الخلفية الاديولوجية ، او الذهنية التي تنطلق منها اسر القرون الوسطى في حياتها وتبرر تصرفاتها وسلوكها . فهي ظاهرة فكرية الى جانب كونها ظاهرة اجتماعية حياتية . ولما كانت مظاهرة الخرافة في مجتمع ما تتحدد بصورة اساسية بمستوى التقدم الحضاري في مفهومه الواسع ثقافيا واقتصاديا وعلميا ، ( ومنطقتنا العربية ، خلال الالف سنة المنصرمة ، كانت تعاني من اسباب جمدت تقدمها وحضارتها ) ، يصبح سهلا فهم الاسباب التي ادت الى اللجوء الكثيف للخرافة والعمل بها ، ان اللجوء للخرافة والايمان بها كانا احدى الوسائل التي ساعدت الجماهير على التخفيف من الامها ، واثارت في خيالها الآمال ، وان كانت آمالا وهمية كاذبة ، فساعدتها على انتظار المستقبل الذي سيحمل الخلاص يوما ما . يضاف الى ذلك ان التعليم كان نادرا كما اوضحنا ، بل ان مضامينه بالنسبة للذين اتيحت لهم فرص التعلم . كانت تعزز مثل هذا الاتجاه . ومن ناحية اخرى ، فان فقر الطبقات الدنيا جعلها في كثير من الاحيان عاجزة عن اتباع وسائل اخرى لحل مشاكلها وخاصة تلك الاكثر التصاقا بنشاطاتها المعيشية والاسرية مثل الامراض ، والمشاكل الاجتماعية الناجمة عن الزواج والانجاب، والحب والبغض والطلاق وغيرها . وبالاضافة الى ذلك فان الكبت والحرمان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي عانت منه منطقتنا خلال الفترة التي نتحدث عنها ، دفع بقسم كبير من الناس ومن الاسر ، الى القبول بالحلول الخرافية كسبيل لمواجهة الواقع والاستغراق في الاوهام والاحلام الخرافية التي تحمل في ثناياها الثروة والجاه والصحة (١) والسعادة الزوجية والتوفيق واستمرار المحبة .

## الحذر والشك واختراع الحيلة والاستجداء

ونتيجة لقرون الكبت السياسي التي عرفتها المنطقة خلال تعاقب الدول والسلطات عليها من المماليك الى السلاجقة والعثمانيين ، برزت ظاهرة الحذر والشك . فالتصفيات والاغتيالات والحوادث المفاجئة ، اضافة

---

(١) د. بدران ود. خماش ، سبق ذكره ، ص ١٤—١٥ .

الى أساليب الظلم والاستبداد التي كانت الطابع المميز لعلاقات الحكام بعامة الناس دفعت هؤلاء الى ان يكونوا على حذر دائم وشك مستمر . حذر من ان يصيبهم غضب احد المسؤولين فيما لو ترامى الى سمعه كلمة انتقاد قالها ، او راي ابداه . فعيون السلطة وآذانها وادواتها في كل مكان . تنتظر « اخبارية » تنقلها ، او تمردا تحذر منه .

ولما كان النظام السياسي فيها استبداديا سلميا : فان المنتمين الى درجة معينة منه كانوا يحذرون ممن هم فوقهم ويخشونهم . فتزداد كثافة الذين يوحون بالحذر كلما انحدرنا بالسلم الاجتماعي . لذلك كان على الناس العاديين ان يخشوا كل ما عداهم . وهكذا نقل الحذر الى اوساط الاسرة وساد في العلاقات التي تبادلها افرادها ايضا . كما ان الظروف المذكورة نفسها جعلت الشك بالآخرين وعدم الثقة بهم ظاهرة اجتماعية . وعبر هذا الاتجاه عن نفسه بشيوع استعمال الكلمات الحافلة بالمعاني ، أي التي تحمل عدة تأويلات ويمكن ان تفهم على عدة وجوه . كانوا يستعملونها لاستحالة التعبير الصريح والمباشر عن رغباتهم او آرائهم . فظهرت وازدهرت في معظم الميادين حتى في العلاقات بين الجنسين وفي مصارحات الحب . كما شاع استنباط الحيل واستعمالها في المجالات التي تحرم او تمنع سلوكا معينا ، كان ذلك في المواضيع الدينية او الوظيفة او الاسرية .

كان الفرد يشعر بعدم الثقة بنفسه وبضعفه ، تجاه السلطة ورجالها ، تجاه الذين يعملون في السلم الطبقي ، كما رسخت الفرق الصوفية الشعور نفسه تجاه الذات الالهية في الذهن الاجتماعي . فلجأ الى التعويض عن نفسه ، مبتكرا جهازيات « ميكانيزمات » محددة للدفاع ، واهمها اللجوء الى الادعية .

والمراة بصفتها العضو الاضعف في الاسرة تاريخيا ، لانعدام ادوات الصراع لديها ، وبحكم الهيمنة الرجالية عليها ، تجد في الادعية اداة الصراع الوحيدة المتاحة لها . فهي اذا غضبت او اصابها ظلم ، حتى من اقرب الناس اليها ، تنهال عليه اما جهارا او خفية بالدعوات طالبة من الله ان ينتقم منه ويعاقبه . ولا بأس ان يكسر رجله او حتى يميته ، وهي تستعمل مثل تلك الاسلحة المضادة حتى مع طفلها ، ولا يكاد ينجو طفل من عبارات مثل : « الله يأخذك ! الله يقصف عمرك ! الله يموتك » . وقاموس المراة الاجتماعي مليء بالدعوات القصيرة والمؤلمة بهذا الصدد . اما الرجل فقاموسه مختلف ، يستعمل عباراته عند المواجهة غير المتكافئة مع غيره : « يخرب بيته » ، « الله لا يهنيه » . ويقابلها ادعية بالخير عند طلب المساعدة او المعونة . وتعكس هذه الادعية شعورا بالعجز والضعة عند المستدعي مثل : « الله يخليك ، الله يسترك ، الله يعمر بيتك ، الله ما يفرجيك سوء » .

هكذا فان الظروف التاريخية ، وطبيعة الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للمجتمع العربي بما فيه من تخلف وكبت وقمع ، أفرز ظاهرات الحذر والشك والدعوات على الغير والاستجداء . ويلاحظ الاتجاه

الاستجدائي ، زيادة عما نعبر عنه الادعية الموجهة الى الاولياء والنافذين ، متمثلا في العلاقات الفردية في الاسرة ابتداء من الطفل الذي يستجدي والده بقوله : « الله يخليك يا بابا اعطيني ... » وانتهاء بالزوجة التي تطلب من الرجل مطلبا : « الله يوفقك ، هات لي معك ... » !

## الانغلاقية والتقليدية : الثبات السلوكي

ان المنطقة العربية كانت تملك عددا كبيرا من المدارس ، خلال العهد المملوكي ، الا انها كانت تهدف الى تثبيت المعتقدات السنية في نفوس الافراد. فكان طابع التعليم فيها دينيا بحتا . ورغم احادية الجانب الذي اهتمت به فقد عجزت عن تقديمه على مستوى رفيع . مثل ذلك المستوى الذي بلغته العلوم الدينية في العصر العباسي الاول . واستمر هذا التدهور يصيب اوضاعها حتى « فقدت في اواخر العهد المذكور روح الابداع والتجديد . واتجه العاملون في هذا الميدان نحو التقليد والتركيب والجمع ، حتى سمي ذلك العصر بعصر « الموسوعات والجمع والتراجم » (١) .

ولما برز الاتراك وسيطروا على البلاد ، كانوا عشائر وقبائل ما زالت تحافظ على شمائل البداوة ، والتعصب للدين . والى هذا التزاوج بين بداوة الترك والتعصب للاسلام تعود الصيغة التي عرفت بها فترة حكمهم . فالعامل الاول جعلهم اكثر من مروا في هذه البلاد تمسكا بما كان سائدا فيه من عادات او اجراءات . فكرسوا القديم على قدمه في جميع المجالات والميادين : الدينية ، الاقتصادية ، الاجتماعية والفكرية . اما العامل الثاني فقد دفعهم الى اسباغ الطابع الديني المتزمت على جميع مظاهر الحياة ، الادارية والسياسية والاجتماعية والثقافية . وجعلهم ينظرون الى كل العلوم غير الدينية نظرة ريبة وشك ، حتى انهم حاربوها ما عدا الطب ، فقد أوجدوا لتدريسه كلية في الاستانة .

فعلى الصعيد الديني كان باب الاجتهاد قد اقفل منذ تثبيت المذاهب الاربعة ، واصبحت الشريعة الاسلامية بمنأى عن اي تطوير او تجديد ، بعد أن تقضي على المساعي والجهود التي كانت تبذل سابقا . لايجاد حلول جديدة، للمشاكل والقضايا المطروحة ، على ضوء تعاليم الدين ومبادئه . فتحولت اهتمامات رجال الدين والفقهاء من اعطاء الآراء المجددة ، والمواقف المبنية على الثقافة الشخصية العميقة المتعايشة مع الواقع الاجتماعي المتطور ، والحلول الجديدة التي تتلاءم مع المتطلبات المتغيرة للعصر ، الى اصدار تلخيص لمجمل آراء الفقهاء الموثوقين السابقين حول قضية مشابهة للقضية المختلف عليها .

وبالرغم من الطبيعة الضيقة لهذه المهمة الدينية ، واختصار مبادرة

---

(١) د. ليلى الصباغ ، سبق ذكره ، ص ١٦٧ .

الفقهاء الى مجرد تكرار لأعمال السلف ، فان سليمان القانوني حصرهـا في فئة من رجال الدين ، المفتين ، واناط بهم هذه الوظيفة ، ورتب اوضـاع المؤسسة الدينية وجعلها في خدمة السلطة . اوجد منصب « شيخ الاسلام» ومنحه كثيرا من السلطات اخصها المتعلق باعلان الحرب او عقـد المعاهدات فأوجـب الاخذ برأيه (١) كما اوجد مناصب للقضاء والافتاء . وعلق امـر تعيينهم بيد السلطة ، ما عدا مفتي الولايات الذيـن جعـل العلمـاء المحليين يختارونهم ثم تعترف بهم السلطات الزمنية (٢) .

هذه التدابير حولت عمل الفقيه الى وظيفة رسمية ، وقطعت الطريق على كل مجتهد يريـد ابداء رأي يتعلـق بالشريعـة . فتكرست المؤسسة الدينية ، كاحدى مؤسسات الدولة ، على رأسها رجـال يدينون للسلطـان بالولاء ويدعون له . واناط بهم مسؤولية شؤون العقيدة والشرع والتعليم والحياة الفكرية والعلاقات الاجتماعية . فضمنت السلطة ثبات الوضع في هذه الحقول ، خاصة لما عرف عن رجال الديـن في تلك الفترة ، مـن عداء شديد لدخول اي جديد عليها واعتباره بدعة . فنجحوا في تحقيق الاهداف التي انيطت بهم ، وبخاصة المحافظة على الاوضاع الاجتماعية كما هي ، وقد جمد عملهم هذا المجتمع واوقف حركته (٣) . فكانوا اداة ، استغلت السلطة احترام الجماعة الاسلامية لهم ولما يرمزون اليه ، لتكرس عن طريقهم العادات شبه الدينية والفكرية القديمة في اوساط تلك الجماعة ، ولتوحي ، بخضوعها كسلطة للمبادىء نفسها ، انها حريصة على ان تسوس الناس باسم الدين . ولتعميق هذا الاعتقاد ، ولاكتساب قلوب العامة الى جانب السلطان ومنحه ما يشابه النفوذ الديني للخليفـة عليهـم ، لجـأ معظم السلاطين (٤) الى اقرب السبل عن طريق الاحسان الى الفقراء . واكرام العلماء واسترضـاء العامة بانشاء الجوامع ، والربط ، والمارستانات ونحوها ، وتعيين الرواتـب والارزاق للعلماء والفقراء وغيرهم . ولو اقتصر الامر على الرغبة في المحافظة على الاوضاع كما هي لضؤل حجم التردي ، الا ان تشجيع الفـرق الصوفية وحمايتها اديا الى انتشارها وتضخمها وذيوع افكارها . فهددت مستقبـل المجتمع بل ادت الى تجميده واماتته عدة قرون . ومـن تلك الافكـار التي وجدت صدى اجتماعيا : الاعتقاد بالقدر المطلق وبأن الاولـيـاء هم الذيـن يدفعون العالم قدمـا بواسطـة كراماتهـم ( فطمست علل الاشيـاء وقوانين التطور ) وبأن لا مسؤولية للافراد العاديين في هذا الوجود ( فعم التواكـل وضعفت الثقة بالنفس وغابت المبادرات الفردية ) والشكوى مـن اي شيء

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة شيخ الاسلام .

(٢) الجبرتي ، عجائب الاثار في التراجم والاخبار ، ج ٢ ، ص ١٨-٥١ ، ج ٤ ، ص ٦٢ .

(٣) هـ. جيب ، سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ( بالانجليزية ) .

(٤) أمثال أحمد بن طولون ، وعضد الدولة بن بويه في بغداد ، ونور الدين زنكي في الشام ، وصلاح الدين الايوبي بمصر .

هي معاندة لارادة الله ( فقتلوا روح الثورة والتذمر تجاه الظلم والاستبداد والتحكم ) وقولهم بالصبر والاستكانة وتحمل الضيم والقسمة والنصيب ( فربطوا حصول كل شيء بالمصادفة المحضة ) .

وكان لطبيعة المجتمع التي تحدثنا عنها ، من حيث انتظام حياة الجماعات المهنية والحرفية في « الاصناف » وتأثرها الى حد بعيد بالفرق الصوفية ، وغلبة الطابع الديني على كافة مظاهر حياته ، الاثر الاكبر في تسهيل انتشار اذى الافكار المذكورة على الافراد والجماعات والاسر بالتساوي. وما يهمنا هو كيف ظهر هذا التاثير في الميدان الاسري ، وما هي أشكال السلوك التي يجسدها .

اصبحت الخزعبلات والاساطير والاوهام هي التي تسير حياة الاسرة وتحكم اعمالها ، ومن مظاهرها سعي الاسرة لدى الاولياء كي يشفي مرضاها، وترديد الاوردة والادعية لتحقيق امانيها . والتمسح بالمزارات واستجداء خدمها ان يكونوا واسطتها لدى الاولياء . واللجوء الى المشعوذين والسحرة لحل مشاكلها ، من حصول حمل . الى طلب ولادة الذكور ، الى خلق المحبة او توظيف شيطان لالحاق اذى بالضرة . . . والاسرة في هذا كله ليست سوى مرآة تعكس الظروف السائدة في المجتمع . كان المجتمع اشبه ما يكون بحلقة الذكر . يدور فيها الدراويش والمريدون حينا على شكل دائرة مغلقة واحيانا حول انفسهم ، يكررون خلال دورانهم هذا عبارات محدودة ، بصورة آلية مطلقة ، ويقعون في نهاية الشوط اسرى الاغماء ، وهم يظنون انفسهم يذوبون ويتوحدون في الذات الالهية المطلقة . ولم تكن الحال مختلفة في المجتمع الكبير . فالثقافة الاجتماعية بما فيها الصورة التي انتهت اليها التعاليم الدينية بكل ما لحقها من تشويه بتأثير من الفرق الصوفية ، والتقاليد والعادات التي تحجرت بفعل تداخلها بمضامين تلك الصورة المشوهة للدين . والشلل الذي اصاب القوى الايجابية . وشيوع التواكل . وترك الامور الدينية والدنيوية تسير حسب رغبة العلماء والمتصوفين (1) . لم تكن تسمح الا بتكرار خلق الظروف نفسها والدوران في فلكها . حيث كان ينتهي معظم افراد المجتمع والاسرة الى الوقوع في قبضتها . فشاعت المحافظة التامة على كل ما هو متداول . وغلب على المجتمع والاسرة طابع التقليد . واضطرت كل فئة اجتماعية الى الانكفاء على ذاتها ، لتعيد صياغة الشروط التي اوجدتها ولتكرر صورتها وعملها بنسختين طبق الاصل عما سبقهما . وبقدر ما كانت تعيد نفسها ، كانت تظهر بمظهر الامانة للتراث . فظهرت سمة الانغلاق لترافق سمة التقليد واعتبرتا الابرز والاكثر وضوحا من بين سمات الحياة الاجتماعية والاسرية العربية .

* * *

كانت الاسرة العربية ميدانا لمعظم الظاهرات التي عرضناها . فقد عمل

---

(1) د. ليلى الصباغ ، سبق ذكره ، ص ١٩٨ .

الجو الثقافي المتجانس ، كما عملت وحدة مضمونه على بروزها وتعميمها . لكن بعضها لم يكن على درجة واحدة من الانتشار في كل الاوساط الاجتماعية، كما كانت درجة تأصله تختلف من فئة الى اخرى . فاذا كانت ظاهرات التزويج والسلميه وتمجيد الذكورة والثبات السلوكي والديني شائعة شيوعا مطلقا ، فان الظاهرات الاخرى كمثل الطاعة وحجب النساء ومكانتهن وتعدد الزوجات وتفشي الامية والجهل والتعلق بالاوهام والخرافة لم يكن لها نفس القدرة على الانتشار في كل الاوساط . فلقد ذكرنا ان الزوجات ذوات المنشأ الارستقراطي ، كانت لهن مكانة خاصة في الاسرة ، تتحدد تبعا لغنى اهلهن وقدرتهم ونفوذهم السياسي والاجتماعي . فكن عبارة عن مندوبات عن اسرهن عند اسر الازواج . فاقتضت معاملتهن معاملة مميزة . ولم تكن تفرض عليهن الطاعة العمياء والحجب التام ، او الزواج من سواهن. اما نساء الطبقة العاملة فكن مضطرات للعمل وبالاخص على الارض الزراعية ، ولم يراعين مبدأ الفصل بين الجنسين . وكانت نسبة تعلقهن بالخرافة واعتقادهن بمختلف اشكالها ، واعتمادهن عليها عمليا لحل مشاكلهن الكثيرة ، ارفع بكثير من لجوء الارستقراطيات اليها ، ليس بسبب من عدم الاعتقاد بجديتها ، اذ يتساوين جميعا من هذه الناحية ، بل بسبب امتلاكهن القدرة المادية التي تمكنهن من تحمل اعباء زيارة الطبيب او دفع بدل اتعاب المحامي ، او حتى رشوة اصحاب الحل والربط لتحقيق الاماني والمصالح . فاذا كان الظاهر للعيان ان الظاهرات التي عرضت ليست سوى افرازات للواقع الثقافي للمجتمع وتجسيد لمختلف مظاهره ، فان هذا التفسير لا يلبث ان يتهاوى امام معطيات تحليل اكثر عمقا . فليس من شك ان مستوى التحليل الاول ، اي المبني على ظاهر الامور والاشياء ، يبين ان للظاهرات جميعا خلفية ثقافية ، وبان العامل الايديولوجي هو الذي حركها وكونها . واذا وصلنا بالتحليل الى مستوى اعمق ، وجدنا ، انه لا يمكن في الواقع ، ردها جميعا الى ذلك العامل ، بل الى تفاعل وتداخل عوامل عدة ، بحيث يكون من المتعذر تحديد عامل اساسي او رئيسي مسبب .

فالظاهر هو تعبير عن الواقع المادي المتفاعل او المتصادم مع جملة المعطيات الثقافية للمجتمع . لذلك تأتي وكأنها من نتاج الثقافة الاجتماعية . وما يحدث هو ان الواقع المادي يتحجب نتيجة لتراكمات النتائج الثقافية التي افرزها فتكدست فوقه وغدت جزءا لا يتجزأ منه .

واقصر سبيل الى ازالة تلك التراكمات ، بالنسبة لموضوع بحثنا ، هو طرح التساؤل التالي : هل كانت هناك ارادة معينة لابقاء الثقافة الاجتماعية على حالها ، مضمونا وقالبا ، ما هي ، وماذا كانت الاهداف التي رمت الى تحقيقها من وراء ذلك ؟

لقد اتضح ان كافة السلطات التي تتالت على حكم المنطقة العربية عملت جاهدة لشد الثقافة الاجتماعية الى الماضي ، وابقائها اسيرته . واول

ما يحقق هذا الربط من أهداف ، هو الحؤول دون التطور والحفاظ على الثبات الاجتماعي . وظهر جليا ، كيف جمدت ظروف التطور المادي عن طريق اصدار المراسيم والقوانين التنظيمية المتعلقة بوجهة استعمال الارض فحصرتها ، وبمواصفات الانتاج فضيقتها ، وبالتنظيمات الاجتماعية فشلتها . فتكرس الثبات كواقع اجتماعي وتكرست معه جملة اوضاع منها اوضاع الاسرة . وكان ذلك كله وسيلة من الوسائل لترسيخ السيطرة الكاملة للقوى الحاكمة في المجتمع . ويلاحظ ان الوضع بقي على حاله حتى نهايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، حيث تداخلت عوامل خارجية وذاتية موضوعية ادت الى اعادة تحريك المجتمع ، وبث الحياة في اوصاله . فانتقل الى حالة جديدة ، انعكست بوضوح على الحياة الاسرية (١) .

(١) الفصل اللاحق يشمل عرضا لتلك العوامل ، والحالة الجديدة التي انتقل اليها المجتمع ، بما في ذلك الاسرة ، من ناحية بنيتها ، وظاهراتها وقضاياها ومشاكلها .

# الفصل الرابع

## الاوضاع الراهنة للأسرة العربية



## اولا . الوضع البنيوي او الانماط الحالية للاسرة العربية

### التغيرات الطارئة على القاعدة المادية للمجتمعات العربية

تتلخص وجهة النظر الاساسية التي انطلقت منها الدراسة وسارت بمقتضاها حتى الآن في ان الاسرة وحدة اجتماعية لا يمكن عزلها عن المجتمع، ولا يمكن دراستها بصورة مستقلة بل يجب ان تدرس من خلال مرحلة التطور التي يمر بها المجتمع ، ولطبيعة العلاقات السائدة فيه ، وتنطبع كافة مظاهرها وظاهراتها بطابع مرحلة التطور نفسها .

ان دراسة المجتمع ، كتشكيلة اجتماعية ـ اقتصادية ، تؤدي الى استخلاص ومعرفة النمط الذي تنبني الاسرة وتتركب على اساسه . فكل تعديل يصيبه ينعكس راسا على وضع الاسرة . وقد اوضحنا في الفصول السابقة كيف كانت التراكيب الاسرية تتوافق مع التشكيلات المتعاقبة التي مر بها تطور المجتمع .

ويؤدي منطق هذه المنهجية الى القول ان دراسة الاوضاع الاقتصادية للمجتمع خلال الحقبة الاخيرة من مرحلة التطور السابقة تفيد في معرفة الوجه الآخر للتشكيلة الاجتماعية ـ الاقتصادية ، اي جانبها الاجتماعي ، وبتعبير آخر ، تقود الى كشف الانماط الاسرية .

ففي الفصل السابق ذكرنا ان المرحلة الثالثة من مراحل تطور الاسرة انتهت مع بداية القرن العشرين . وهذا لا يعني ان هناك حدا زمنيا فاصلا بين مرحلة واخرى . كما انه لا يلغي التداخل بين المراحل او ينفيه . لذا عندما نتحدث عن تغير الاوضاع الاقتصادية وتطورها او نتكلم عن تغير انماط الاسرة وتطور بنيانها ، فان ذلك لا يعني انه بمجرد ان تم الانتقال من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين تحققت معالم التغير المذكور . ففي الحقيقة ، ان نتائج هذا التغير لم تظهر دفعة واحدة ، كما ان اسبابه لم تتراكم وتصبح فعالة في خلال فترة قصيرة . فلقد اقتضى تجمعها سحابة

قرن من الزمن ليصبح بمقدورها احداث تغيير نوعي في الاوضاع . من هنا ندرك كم هي ضرورية والزامية العودة الى القرن التاسع عشر لدراسة الممهدات التي ادت الى تطور بنية الاسرة وانماط تراكيبها .

كانت تركيا والممتلكات العربية التابعة لها بلادا زراعية والمنتج الاساسي فيها هو الفلاح ، ولقد تعاطى هذا الاخير الزراعة في الاستثمارات الصغيرة مستخدما لذلك عمله الشخصي ومستعينا بالادوات الانتاجية البدائية لحرث الارض المخصصة له . وكان القانون الاساسي لهذا النوع من الاقتصاد هو اعادة الانتاج البسيطة . كان الفلاح يستهلك قسما من المحاصيل ، وهو المحصول الضروري ، لاعادة انتاج وسائل الانتاج البدائية المذكورة ، والقوة العاملة . والقسم الآخر ، وهو المحصول الزائد . كان يغتصب كليا ويستهلك من قبل طبقة المستغلين الطفيلية . فكانت الاقطاعية هي السمة الغالبة في الميدان الزراعي .

اما التجارة الخارجية فكانت محصورة على الاخص ، في ايدي التجار الايطاليين ومن بعدهم الانكليز والفرنسيين ، وقام الرعايا ، من غير المسلمين، بدور الوسيط والمقاول ولعبوا احيانا دور الوكيل لصالح التجار الاوروبيين .

وكان تطور التجارة الداخلية ضعيفا الى حد ما بالرغم من التطور التدريجي لمراكز التبادل المحلي بين المدن والقرى . وساعد نظام الامتيازات الممنوح للتجار الاوروبيين على احتكارهم للتجارة عموما . ففي حين كانت نسبة الرسوم الجمركية المفروضة عليهم لا تتعدى ( ٣ ٪ ) من قيمة البضاعة، كان التاجر المحلي يدفع رسما يتراوح بين ( ٧ و ١٠ ٪ ) . وكان الاول يدفع رسما جمركيا مرة واحدة ، عند دخول بضائعه الى البلاد ، اما الثاني فكان يدفع الرسوم مرات عديدة ، وكلما مرت البضائع في دوائر الجمارك الداخلية العديدة عند انتقالها من اقطاعية الى اخرى . وادت هذه الحواجز الى تأخير وعرقلة نمو العلاقات البضاعية ـ النقدية ، وبالتالي اعاقت الانتقال الى مرحلة العلاقات الراسمالية في الاقطار العربية .

اما فيما يخص الصناعة ، فان الامبراطورية العثمانية وممتلكاتها العربية كانت متأخرة كثيرا بالنسبة الى الاقطار الاوروبية ، حيث تم الانتقال الى المعامل اليدوية ( المانيفاتورة ) ومن ثم الى الانتاج الآلي بعد الانقلاب الصناعي . وبقيت الصناعة في الاقطار العربية حرفية تعتمد على العمل اليدوي . ويفرض عليها عدد من القيود ، ان بالنسبة لانتاجها او بالنسبة لوضع العاملين فيها . فراوحت طوال قرون في مكانها . واستطاعت مع ذلك ، ان تصدر بعض منتجاتها الى اوروبا ، حتى القرن الثامن عشر .

في ظل هذه الاوضاع الجامدة ، استمرت الاسرة العربية على حالها ، تتوالد وتجدد وجودها ، طيلة قرون عديدة وحتى اوائل القرن التاسع عشر، دون تعديل يذكر ، فكانت عبارة عن نسخ طبق الاصل ، في اسلوب الانتاج وادواته ، كما في العلاقات الناجمة عنه . واسفر ذلك عن انتقال المجتمعات الاوروبية الى المرحلة الراسمالية وتوطدها . فازداد الانتاج زيادة كبيرة وبدأ

السعي الحثيث لتأمين اسواق لتصريفه .

لقد كان من الطبيعي ان تلتفت انظار الدول الصناعية الى الامبراطورية العثمانية لعدة اسباب : الاول اتساعها الجغرافي بحيث كانت تشمل اقطارا وبلادا واسعة يمكن ان تكون سوقا ضخما لتصريف الانتاج ، والثاني لكون الصناعة فيها معاقة للاسباب التي فصلت سابقا ، والثالث كان نظام الامتيازات الممنوح للتجار الاوروبيين الذي يجعل من المستحيل قيام منافسة بينهم وبين التجار المحليين . ورابعا ، غنى هذه المناطق بالمواد الاولية اللازمة للصناعة الاوروبية . وخامسا ، ضعف الامبراطورية العثمانية سياسيا وعسكريا .

وهكذا تضافرت هذه الاسباب مع المطامع السياسية لكل من انكلترا وفرنسا في الممتلكات العثمانية وفي تركيا نفسها ، لتزيد من سعيهما لوضع هذه المناطق تحت سيطرتهما واشرافهما . ولم يكن الصراع الذي جرى بينهما من جهة وبين الامبراطورية الضعيفة من جهة اخرى متكافئا . فالدولتان كانتا قد انجزتا الانتقال الى المرحلة الراسمالية ، وتطوير كافة المؤسسات ومظاهر الحياة فيهما ، من عسكرية واقتصادية وبشرية وسياسية، بينما استمر وضع تركيا متخلفا : كانت تنتمي الى التشكيلة الاجتماعية الاقطاعية وكان التفسخ قد بدأ يدب في أوصالها وينخرها التناقض . فلم تقو على مواجهة الصراع وتحولت الى سوق للتصريف ثم الى شبه مستعمرة للدول الاوروبية الراسمالية . وقد مهدت السبيل الى الراسمال الاجنبي ، مرحلة التنظيمات الثانية التي بدات « بخطى همايون » عام ( ١٨٥٦ ) والتي اكتسبت ، بحكم صلح باريس ، شكل الالتزامات الدولية وفتحت بابا للراسمال الاجنبي ليتغلغل فيها وفي كافة ممتلكاتها . اذ تعهدت تركيا منح امتيازات السكك الحديدية ، والمصارف ، وصناعة التعدين وغيرها من الامتيازات الى الراسماليين الاجانب : كما منحتهم حق شراء الاراضي في الامبراطورية ، وأعطت عملاءهم المحليين ( من غير المسلمين ) عددا من التسهيلات . وهكذا كان صلح باريس لعام ( ١٨٥٦ ) فاتحة لتحويل تركيا وممتلكاتها العربية الى شبه مستعمرة الراسمال الاجنبي (١) .

وتنوعت التأثيرات والضغوط التي مارستها الدول الاوروبية على السلطنة العثمانية وممتلكاتها ، بهدف تطويع بنيتها وتسخير قدرتها ووضعها في متناول يد النهب الاوروبية ، وجرها الى السوق الراسمالية العالمية ، لتستفيد من مواردها وتستكمل نموها الاقتصادي وسيطرتها السياسية . كانت تلك التأثيرات على نوعين : مباشرة وغير مباشرة .

وتتجسد التأثيرات المباشرة في جملة الامتيازات التي حصل الاوروبيون عليها في المعاهدات التي عقدوها مع تركيا . كما في التدابير التي الزموها باتخاذها لمصلحتهم بهدف السيطرة على اقتصادياتها وقد تم لهم ذلك بعد

---

(١) لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، دار التقدم ، موسكو ١٩٧٥ ، ص ٢٤٧ .

ان أعلنت السلطنة ومصر افلاسهما أثر عجزهما عن ايفاء الديون وسداد القروض التي منحتهما اياها المصارف الاوروبية بشروط مجحفة . فحصلت على حق الاشراف على خزينتيهما الرسميتين وعلى سلطة تقرير السياسة الاقتصادية الداخلية في كل منهما .

## بدء تفسخ التشكيلة الاجتماعية الاقطاعية

كانت الدول الراسمالية الاوروبية تدرك . ان التشكيلة الاجتماعية التي تنتمي اليها تركيا وممتلكاتها لا تساعد على عملية السيطرة التي ترغب في فرضها عليها . كما كانت عائقا يقف في سبيل التصريف والاستهلاك البضاعيين . فالسوق الداخلية كانت ضعيفة . والعلاقات البضاعية ـ النقدية كانت بدائية لدرجة أن السيطرة على هذه المجتمعات في وضعيتها الراهنة لا تساعد على عمليات التصريف الاستهلاكي ، والاستغلال الاقتصادي ، والنهب الراسمالي ، المرجوة . لذا عمدت الى تشجيع الحكام المحليين . لاتخاذ تدابير من شأنها ان تسرع عملية تفسخ التشكيلة الاقطاعية من جهة . وتكوين الاسواق القائمة على التبادل البضاعي ـ النقدي من جهة اخرى . كان انجاز هاتين المهمتين ، عملا متقدما ، يحمل المجتمع الى مرحلة اعلى من مراحل تطوره ، لكنها كانت تحمل في طياتها بذور الاطماع الاوروبية التي حركتها . فتوفير المقدمات الاولى للراسمالية وانتقال المجتمع الى مرحلتها سهلا، بلا ادنى شك، الفرصة على الاوروبيين ليفرضوا سيطرتهم وسياساتهم على الاقطار العربية . لذا دفعوا بعض الحكام لادخال الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسياسية في اقطارهم ، وقدموا لهم الخبراء والمستشارين والمساعدات . فانجز قسم كبير منهم ، وقبل تلك المساعدات ، بحجة تحديث المجتمع والدولة .

اما التدابير التي اتخذتها تركيا لصالح الاوروبيين وبضغط مباشر منهم فهي :

١ ـ المعاهدة التجارية المعقودة بين تركيا وانكلترا سنة ( ١٨٣٢ ) .
٢ ـ الاشراف المالي على تركيا بعد افلاسها اعتبارا من سنة ( ١٨٧٥ ) . و( ١٨٥٦ ) .
٣ ـ الاشراف المالي على مصر بعد افلاسها اعتبارا من سنة ( ١٨٧٦ ) .

وأهمية هذه المعاهدات تكمن في انها تشمل الاقطار العربية التي كانت من ممتلكات تركيا . فالمعاهدة التجارية المذكورة تنص على الغاء نظام الاحتكارات الذي كانت بعض الاقطار قد اتخذته لحماية مواردها ، ومركزة عملية التجارة الخارجية بيد السلطة المحلية . واتاح لها هذا التدبير الحصول على الراسمال الوطني اللازم لتنفيذ المشاريع المحلية . فأصبح بمقدور التجار الاوروبيين نتيجة للمعاهدة شراء المواد الخام مباشرة من المنتجين أو بواسطة وكلائهم . وفتح امامهم باب التصدير لقاء رسوم ضئيلة .

مما ادى الى حرمان الاقطار والسلطات المحلية من أدوات الدفاع عن نفسها ، وتوفير الحماية لمصالحها .

أما الامتيازات التي منحت للاوروبيين بعد صلح باريس عام ( ١٨٥٦ ) فقد ذكرت في مقطع سابق وأهمها امتيازات السكك الحديدية ، والمصارف وصناعة التعدين وحق شراء الاراضي ، وتسهيلات جمركية أخرى . وهذا يعني اعاقة الصناعة الوطنية ، والوقوف في وجه تطويرها ، ووضع مقدرات البلاد الاقتصادية وامكاناتها بيد الاجنبي ، وتسخير كافة الامكانات لخدمته. كما تعني التسهيلات الجمركية ضرب الصناعة والتجارة الوطنيتين ووضعهما تحت السيطرة الاجنبية .

ولا تختلف كثيرا في مدلولاتها ومراميها ومعانيها حالة وضع اليد على خزينة الامبراطورية العثمانية ومصر فيما بعد ، من قبل مجموعة الدائنين، بعد عجزهما عن سداد الديون المعقودة مع المصارف الاوروبية بشروط اقل ما يقال فيها انها ضد مصلحة الخزينة المحلية . ولم تمنح تلك القروض الا لتنفيذ مشاريع تسهل على الشركات الاوروبية عملية الاستغلال وتنظمها وتسرع وتيرتها ، فقروض مصر كانت لشق قناة السويس ، ولمد السكك الحديدية وبناء بعض مصانع التحويل الاولي للقطن ، اما قروض تركيا فكانت لمد السكك الحديدية وبعض استثمارات المعادن . وادى الوفاء بها ، في نهاية المطاف الى استعباد الشعب كله وتجنيده لسدادها ، عن طريق جمع الاجانب للضرائب ، قبل موعد جني المحصول . وذلك لكي ينجزوا عملية النهب على اكمل وجه ، كان الفلاحون يضطرون لبيع محاصيلهم باسعار بخسة ، لا تتجاوز احيانا ثلث الثمن الاصلي في السوق ، الى التجار الاوروبيين انفسهم ، لكي يتمكنوا من تسديد الضرائب المفروضة . فكان الاستغلال يتم مرتين : مرة عند دفع الضرائب ، التي يتكون الجزء الاكبر منها من فوائد على الديون الاصلية ، ومرة ثانية عند بيع المحاصيل بأقل من قيمتها الحقيقية .

## مرحلة الاصلاحات الاجتماعية

وهناك تأثيرات غير مباشرة أوحى بها الاتراك الى السلطات أو الحكام المحليين . فكان من نتيجتها اتخاذ بعض التدابير التي عرفت بالاصلاحات . وقد ساهمت بدورها في عملية تطوير المجتمع وتفسخ التشكيلة الاقطاعية وترسخ العلاقات الجديدة البضاعية ــ النقدية واحلال المقدمات الاولى لانتقال المجتمع الى المرحلة الرأسمالية ويمكن ايجازها بما يلي :

١ ــ اصلاحات محمد علي الكبير في مصر التي اتخذها في اوائل القرن التاسع عشر وحتى سنة ( ١٨٤٠ ) ، وعممها على المناطق التي خضعت له من الاقطار العربية : فلسطين وسورية ( ١٨٣١ ــ ١٨٤٠ ) الجزيرة العربية ( ١٨١٣ ــ ١٨٤٠ ) بالاضافة الى مصر والسودان ( ١٨٢٠ــ١٨٤٠ ) .

٢ ـ اصلاحات داود باشا في العراق .
٣ ـ اصلاحات الامير بشير الشهابي في لبنان .
٤ ـ بيان قصر الكلخانة سنة ( ١٨٣٩ ) .
٥ ـ سلسلة الاصلاحات الثانية في تركيا سنة ( ١٨٥٦ ) .
٦ ـ التسهيلات الممنوحة للمبشرين خاصة في المجال التعليمي والتربوي .

### ١ ـ اصلاحات محمد علي الكبير في مصر

في الميدان الزراعي . شرع محمد علي بتطبيق الاصلاح الزراعي الذي انزل ضربة قاضية بملكية الارض للملتزمين والمماليك فصادر بعض أملاكهم ثم وضع يده على جميع اراضيهم اعتبارا من سنة (١٨١٢) . ولم يقض محمد علي على نمط الانتاج الاقطاعي، لكنه حول علاقة الفلاح من التبعية المطلقة والفردية للاقطاعي ، الى علاقة استغلال تمارسها الدولة الاقطاعية ككل . ورغم ذلك فان تصفية نظام الالتزام وتقسيم الاراضي المشاعية قد احدثا تغيراً ملموسا في وضع الفلاح المصري . كما انه بفضل تدابيره تحول قسم من الاراضي الاميرية الى اراض خاصة ، وتم استملاك اراضي الوقف ووضعها في خدمة الدولة (١) .

كذلك انجز محمد علي اصلاحات مهمة في المجال الصناعي والزراعي . فشيّد العديد من المصانع والمعامل اليدوية ودار بناء السفن ، ومصانع لصب المعادن والحدادة والبرادة وأقمشة الاشرعة وغيرها من المشاريع (٢).

كما تقدمت الزراعة في عهده تقدما كبيرا ، وخاصة انتاج المزروعات المعدة للتصدير ، كالقطن والنيلة والارز والمحاصيل الاخرى . وحسّن شبكة الاقنية ورمم القديم منها . ووضع كافة الانتاج الزراعي والصناعي والحرفي تحت سيطرة الحكومة فتحقق بهذه السيطرة نظام الاحتكارات وهو تنظيم للادارة المركزية لحياة البلاد الاقتصادية .

أما في المجال الثقافي فقد أوفد الشبان للتخصص في الخارج ، وخاصة في فرنسا ، في ميادين العلوم الحربية والتقنية والهندسة الزراعية والطب واللغات والحقوق . وفتحت المدارس العلمانية لاول مرة في تاريخ المنطقة العربية ، وكانت تضم تلاميذ في مختلف الاعمار من سن الثامنة وحتى السادسة عشرة ، يدرسون حسب مستويات تحصيلهم : اللغة العربية ، الحساب ، اللغة التركية ، الرياضيات ، التاريخ والجغرافيا . وفتحت المدارس المهنية ايضا وكانت تعلم الطب ، البيطرة ، الصنائع المختلفة ، اللغات والموسيقى . كما أسست مستشفيات عسكرية ومدنية ودار للطباعة . وأصدرت جريدة مصرية . فكانت السمة العامة لاصلاحاته

---

(١) لوتسكي ، المصدر المذكور ، ص ٦٤ـ٦٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٩ .

سمة تقدمية . لانها ساهمت في نقل المجتمع وتطويره . ودفعته الى مرحلة أرقى . امـا الجانب السلبي منها فهو اضطهاد محمد علي فئات الشعب المصري المختلفة والشعوب الاخرى وتصرفه تصرف الفاتحين في البـلاد التي ضمهـا ووضعها تحت سلطته .

وفي البلاد التي فتحها كالجزيرة العربية وسورية وفلسطين ، أحـدث فيها ابنه ابراهيم باشا بعض الاصلاحات : حـدد بدقة الضرائب التي تجبى من الفلاحين ، حرّم الابتزازات الاقطاعية التعسفية ، وعفـا الارض البكـر المحروثة من دفع أي نوع مـن الضرائب لـمدة طويلة ، وطّن البدو في الاراضي الزراعية . واتسعت في عهده الاراضي المزروعة وتوسع الانتاج . ومن مآثـره انه حوّل أفراد الجيش في زمن الكوارث الطبيعية ، كحلول الجـراد مثـلا ، الى عمال زراعيين ليساعدوا الفلاحين على مكافحته .

كمـا ان الغاء جباية الضرائب التعسفية ساعـد في تطويـر الصناعـة والتجارة واضحى في وسع التجـار والحرفيين الاطمئنان على سلامة اموالهم . فوظف التجار بحرية ما كان يتجمع لديهم من ارباح في مشاريع أو وضعوهـا قيـد التداول فانتعشت الحياة الاقتصادية وساد الامن .

كما ان ابراهيم باشا خاض نضالا عنيفا ضـد الاقطـاعيين السوريين . وكوالده لم يقض على اسلوب الانتاج الاقطاعي ، بـل سعى الى القضـاء عـلى الانفصالية الاقطاعيـة والى تحديد الحقـوق السياسية التـي يتمتـع بهـا الاقطاعيون المنفردون ، والاستعاضـة عـن السادة الاقطاعيين غـير المطيعـين للسلطة المركزية باناس يخضعون له كلية . لقـد اعتمد على الامير بشير الثاني . وبدعم منه . كافح الامير بشير ضـد الاقطاعيين اللبنانيين ، وكذلك ساند شيوخ عبد الهادي في نابلس ضد الاقطاعيين الآخرين (١) .

ويمكن القول ان ابراهيم باشا استطاع ان يتلمس اتجاهات التطـور المقبل . فحاول الاسراع في تحقيقها . اذ قام بعدد من الاصلاحات في سورية وفلسطين على غرار اصلاحات والده محمد علي في مصر ، وكانت ترمي الى مركزة البلاد ، وتصفية التعسف الاقطاعي والقضاء على الانفصالية الاقطاعية . كما ساهم في خلق المهدات لايجاد وتطوير العلاقات الرأسمالية .

وبعد محمد علي وابنه ابراهيم واصل بعض من تسلموا الحكم في مصر سياسة الاصلاحات كسعيد واسماعيل . وكان عباس قد منح الانكليز امتياز مـد السكة الحديدية من الاسكندرية الى القاهرة والسويس ليسهل عليهم الانتقال الى الهند بواسطة هذه الحلقة الوسطى البرية . اما سعيد باشا ( ١٨٥٤ـ١٨٦٣ ) فمنح الفرنسيين امتياز شق قناة السويس ، والزم مصر بتقديمات قاسية بحق شعبها ، مـن السخرة الى تقديم جزء مـن رأسمال الشركة ، الى مد ترعة للمياه العذبة من النيل عبر الصحراء لتزويد منطقة البناء بماء الشرب ، واستثنت الشركة مـن دفع الرسوم . فكانت هـذه

---

(١) لوتسكي ، المصدر نفسه ، ص ١٣١ـ١٣٢ .

الشروط هي السبب الرئيسي والمباشر للافلاس الــذي وقعت مصر فيـــه سنة (١٨٧٦) .

ومن جهة ثانيه عرفت مصر تطورا اقتصاديا هاما خلال الستينات مـــن القرن التاسع عشر . فتضخم الانتاج الزراعي ، ونهضت التجارة وتطورت الملاحة ، ووسائل النقل . وغطيت مصر بشبكة هامة مـــن طرق المواصلات البحرية والبرية بواسطة السكك الحديدية (١) . وتطورت وسائل الاتصالات الحديثة فارتفعت خطوط التلغراف في مصر بطول يوازي (٥٨٢) كلم . كما ازدهرت صناعة مصر وخاصه صناعة النسيج فأنشئت فيهـــا معامل لحلج القطن ، والالبان والجلود وتشغيل الخشب وورش ترميم ومعامـــل صب الحديد وغيرها (٢) .

ودخلت مصر طريق التطور الراسمالي ، دون ان تقضي على المخلفات الكثيرة والقوية الباقية من القرون الوسطى . لقد بقي الاقطاعيون الحماة الاساسيين للعلاقات الرأسمالية فـــي الزراعة ، فكانـــوا يقرنون الاساليب الحديثة للاقتصاد ( استعمال المحراث البخاري مثلا ) بالاساليب الاقطاعية القديمة للاستغلال . ورافق كل عمليات التحديث والتقدم في المجال الزراعي والصناعي فرض ضرائب القرون الوسطى وابتزاز مـــال الفلاح والعامـــل وسوقهما الى السخرة ، فلم تساهم هذه الاساليب بتنمية وتكوين سوق تبادلي نقدي وداخلي . وهكذا عرقل شيوع بقايا النظام الاقطاعي تطور الزراعة وحال دون تطور الصناعة . فكانت القرية الجائعة المستغلة من قبل الملاك شبه الاقطاعي . سوقا رديئا لترويج البضائع الصناعية .

اما الاصلاحات الاجتماعية ــ الاقتصادية التي انجزها سعيد واسماعيل فكانت تلبي متطلبات تطور مصر الاقتصادي منها : تحريم نظام الرق وتجارة الرقيق في مصر (٣) .

وصدر عام ( ١٨٥٨ ) قانون الارض الذي منح الفلاحين ، الذين كانوا يمتلكون اراضي الاثراء ، الاراضي الخراجية ، الحق في بيع وشراء ورهـــن وتوريث اراضيهم بحرية . اي التملك الشخصي للارض . والغيت اعمـــال السخرة ، واصبحت الاراضي مجرد بضاعة تنقل ملكيتها بالبيع والشراء . فكون هـــذا الوضع ظروفا ملائمة لتطور العلاقات الرأسمالية فـــي القريـــة واتاح للفلاحين وغيرهم تملك الارض . امـــا العلاقات البضاعية ــ النقدية فقد ترسخت بعد ان حلت الضرائب النقدية محل التسليم العيني ، والضرائب الشخصية محل الضرائب المفروضة على المزارع الفلاحية ككل . ومنحت الحرية الكاملة للتجارة وصفيت الحواجز الجمركية الداخلية . واصبح بمقدور

---

**(١) لوتسكي ، المصدر نفسه ، ص ١٩٣ .**
**(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٤ .**
**(٣) لوتسكي ، المصدر المذكور ، ص ١٩٩ .**

الفلاح ان يزرع الغلات التي يريدها وان يبيعها بحرية دون اية رقابة . وانتشر التعليم الشعبي وزاد عدد المدارس من ( ١٨٥ ) مدرسة عام ( ١٨٦٣ ) الى (٤٦٨٥) مدرسة في عام (١٨٧٥) (١) .

### ٢ ـ اصلاحات داود باشا في العراق ( ١٨١٧ ـ ١٨٣١ )

قلد داود باشا والي بغداد محمد علي باشا والي مصر في كثير من الامور .

فقد خاض النضال ضد الانفصالية الاقطاعية والقبلية ، سعيا وراء مركزة العراق تحت سلطته . طبق نظام الاحتكارات بالنسبة للاصناف الرئيسية من المنتوجات العراقية : القمح ، الشعير ، التمر والملح . وادخل زراعة القطن وقصب السكر ، وحاول الاستقلال بالعراق .

وفي عام ( ١٨٤٢ ) طبقت بعض الاصلاحات التي نص عليها بيان الكلخانه من الغاء للالتزامات ووضع القضايا المتعلقة بالضرائب والمالية في عهدة موظفين اداريين .

اما مدحت باشا ( ١٨٦٩ـ١٨٧١ ) فقد اعاد تنظيم جميع اوجه الحياة في العراق . فانشا طرق المواصلات ووسع الملاحة البخارية ونظم خطوط المواصلات النهرية . واسس دارا لبناء السفن . وغطى العراق بسكة الحديد . وبذل عناية خاصة لتوسيع الاراضي الزراعية . وفتح المدارس الرسمية الشعبية واصدر جريدة في بغداد (٢) . وطبق قانون الارض ووطن البدو والقبائل على الارض الزراعية ، واوجد نوعا من الملكيه الخاصة للارض ـ لكنه لم يعترف بها من الناحية الشكلية ـ فباع اراضي الدولة باثمان بخسة لقاء وثائق خاصة تسلم للمالك عند الشراء .

### ٣ ـ اصلاحات الامير بشير الثاني في لبنان

استولى بشير الثاني على اراضي كبار الاقطاعيين الدروز واحل محلهم الفلاحين الموارنة لقاء بدلات ايجار قليلة نسبيا وشجعهم على زراعة التوت وتربية دود القز وغزل الحرير . وحد من تعسف الاقطاعيين . واشاع في لبنان نظام المركزية وكذلك الامن وضمن السلامة العامة على الطرقات . فازدهرت التجارة واستطاع التجار نقل البضائع بحرية في الممرات الجبلية . وخفض الضرائب الاقطاعية وعمل على توسيع فئة مستثمري الاراضي وملاكيها (٣) .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٩٦ .

(٢) لوتسكي ، سبق ذكره ، ص ٨٣ـ٨٥ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٣ـ١٧٥ .

## ٤ ــ بيان قصر الكلخانه الصادر سنة (١٨٣٩)

هو برنامج لمجموعة من الاصلاحات او « التنظيمات الخيرية » التــزم بها السلطان عبد المجيد ( ١٨٣٩ــ١٨٦١ ) .

كان من بين المهمات والمبادىء التي تضمنها البيان ما يلي :

ــ ان تصان كليا حياة وشرف وممتلكات الرعايا بغض النظر عــن معتقداتهم الدينيه .

ــ ضمان طريقة صحيحة لتوزيع وجباية الضرائب .

ــ ضمان طريقة صحيحة للجندية مع تحديد امدها .

اتسمت مسألة صيانة حرمة الشخص والممتلكات باهمية خاصة فــي الامبراطورية العثمانية . فلم تتوفر اية حماية لحياة الفرد من سلطة الطغاة والباشوات التعسفية . ولا شك ان مثل هذا التعهد يوجد الظروف الملائمة للتملك الفردي البرجوازي . كما ان ضمانها لكافة الرعايا . بغض النظر عن اديانهم . قضية مهمة نظرا لوجود قوميات كثيرة اخرى من بين الرعايا .

ونص البيان على تدابير عملية من شأنها ضمان حرمة الشخص وممتلكاته ولا سيما اجراء محاكمات علنية وتحريم مصادرة ممتلكات الجناة . وتشكيل مجلس استشاري لسن القوانين الجديدة (١) .

كما رسم البيان خطوطا عامــة بخصوص ضبط النظام الضرائبي لتحديد مقدار الضرائب ووضع ميزانية ثابتة . والغاء التزام جبايه الاتاوات ونظام بيع الوظائف .

ورغم المعارضة العنيفة التي واجهها هذا البيان من جانب الاقطاعيين وكبار الموظفين ورجال الدين . فقــد ادى الــى بعض النتائج الايجابية . ففصلت الادارة المدنيــة عــن العسكرية . ووضعت اصــول للمرافعات القانونية . واعيد تنظيم الجيش . واصلح القضاء . والغي تلزيم الضرائب سنة ( ١٨٤٠ ) . ولم يتحقق هــذا الاجراء الا في المدن اما في الريف فتابع الملتزمون المتسلطون ممارسة اعمالهم كالسابق . واعيـــد دمــج اجــزاء الامبراطوريه . وعينت المهام الادارية وحددت بدقــة . وطور التعليم وصدر عام ( ١٨٤٥ ) قانــون نادى بمبــدا التعليم المجاني والاجباري . وانشئت المدارس الثانوية العلمانية .

كانت هــذه الاصلاحات التي اجريت فــي الفترة الاولى ( ١٨٣٩ ــ ١٨٥٦ ) منفذا لتطوير بعض جوانب الحياة في البلاد ، الا انها عجزت عن تجديد النظام الاجتماعي فيها . اذ استمرت الدولة دولة اقطاعية ، وبقيت تقف بلا مبالاة حيال تطوير الصناعة الراسمالية الوطنية . ورغم ذلك كلــه فان ايجابياتها تكمن في الاجواء التي اثارها نشر المبادىء التــي بثها البيان والمطالبه بتطبيقها .

---

(١) لوتسكي ، سبق ذكره ص ٨٣ــ٨٥ .

**٥ ــ الفترة الثانية من التنظيمات . « خط همايون » عام ١٨٥٦ (١)**

اصدر السلطان بيانا ساميا جديدا قبيل عقد صلح باريس وذلك تحت الضغط المباشر للدول الاوروبية .

واعادت الوثيقة الاعتراف وثبتت شكلية المبادىء الاساسية الواردة في بيان قصر الكلخانة . الا ان هذا « الخط » اعتبر الان كالتزام دولي ، وليس كوعد محلي . وقد ورد ذلك في المادة التاسعة من معاهدة باريس ( ١٨٥٦ ) . اذ أعطى الدبلوماسية الاوروبية فرصة وذريعه للتدخل في الشؤون العثمانية .

ركز الخط الهمايوني على التساوي الديني وعلى المشاريع الاقتصادية من مختلف الانواع . وصدر فيما بعد ( ١٨٥٨ ) قانون الاراضي الذي الغى شرعية نظام الاقطاعيات العسكرية وتبعية الفلاحين للتيمارجية السابقين ، لكن هذا القانون لم يمنح الارض للفلاحين ، بل اكتفى باعطاء مستأجري اراضي الدولة حق شرائها والزمهم بدفع مبلغ كبير كثمن لها ، ووسع قانون الاراضي هذا اصناف الاراضي التي اصبحت ملكا خاصا وساعد على تطوير الملكيه الخاصة للارض ووضعها في التداول العام . ومنح الاجانب حق حيازة الارض في الامبراطورية .

كما صدرت قوانين بشأن حقوق واوضاع الطوائف الدينية ( ١٨٦٩ ) واعدت القوانين الجنائية والمدنية ، وقانون تحويل الوقف لاغراض دنيوية ( ١٨٧٣ ) .

**٦ ــ نشاط المبشرين**

كان نشاط الارساليات الدينية طريقا آخر للتغلغل الاجنبي والتأثير في الشرق العربي . فقد فتح المبشرون طيلة القرن التاسع عشر المدارس والمؤسسات في سورية وفلسطين ، ناشرين بحماس التعاليم المسيحية بالاضافة الى مفاهيم جديدة وسعي لبسط نفوذ الدولة التي ينتسبون اليها .

كان من نتيجة هذا النشاط ان مهد السبيل ، فكريا على الامد . الى تطوير المجتمع . ونقله من مرحلة التشكيلة الاقطاعية الى مرحلة التشكيله الراسمالية . والمساهمة بنشر العلم والقراءة والكتابة .

## نتائج الاصلاحات والمعاهدات والامتيازات الاجنبية التي شهدتها الاقطار العربية في القرن التاسع عشر

مما لا شك فيه ان هذه المحاولات شملت كافة الاقطار العربية . وبوقت واحد الى حد ما . وقد التقت جميعها على جامع مشترك هو ادخال بعض التعديلات او التطوير على الوضع القانوني للارض ، يترتب عن

---

(١) لوتسكي ، سبق ذكره ، ص ١٥٩–١٦١ .

هذا الوضع تحديد طبيعة العلاقات التـــي يتبادلها الناس فيما بينهم . والتي بقيت تحتفظ ببقايا الطابع الاقطاعي . ورغم ذلك فقـــد استطاعت ادخـــال وتوكيد وترسيخ الملكية الخاصة . او بعض اشكالها المستحدثة فـــي نواح كثيرة من الاقطار العربية . كما تحولت وضعية الفلاح عـــلى الارض . مـــن القنانة والتبعيه المطلقة . الى اجير عامل عليها . الى مستاجر ، الى مشارك مرابع . الى مستثمر . فالى مالك صغير لاستثمارة زراعية .

لم تنتشر هذه التحولات . بنفس النسبة . والنوعية . فـــي كافـــة المناطق . بل لقـــد عرفتها مناطق معينة . وشاعت في بعضها تحولات محددة دون غيرها .

وان لم تطبق بعض المبادىء التي نودي او اعترف بهـــا . للمعارضة العارمة التي واجهتها . فان مجرد اعلانها يعكس ادراكا جديا لعمق التحول . او للضرورات الموضوعية التي تتحكم وتحكم اعلانها . ففسح المجال امـــام تملك الفلاحين للارض ، والغاء مبدا التزام الضرائب ، والغـــاء الضرائب الاقطاعية . وتحريم الرق والعبيد . والغاء الاحتكارات . والزاميه دفـــع الضرائب نقـــدا . ورفـــع الحواجز الجمركية بين الاقطاعات . والمساواة الشكلية بين الناس بالنسبة للحقوق . وتكريس ضمان حياة الفرد وممتلكاته وغيرها من التحولات الاجتماعية التـــي حدثت . كرست حقيقتين بالغتـــي الدلالة :

الاولى : تفسخ التشكيلة الاجتماعية الاقطاعية .

الثانية : تكـــون ونمو علاقات اجتماعيه جديـــدة تقـــوم على التبادل البضاعي — النقدي .

ان هاتين الحقيقتين قادتا الى تعديلات كبيرة على انماط الحياة الجماعيه المتبعة ، وعلى التجمعات البشرية . وبكلمة . على الاسرة كشكل من اشكال التجمع الاجتماعي للحياة المشتركة .

ومن نتائج الاصلاحات ايضا انه تم في خلال هذا القرن بنـــاء قاعـــدة مادية مـــن التجهيزات الاساسية في مختلف البلاد العربية . لكنها انتشرت بشكل غـــير متجانس فضمت شبكات الطرقات العامـــة . وبنـــاء السكك الحديدية . وحفر الترع وبناء القنوات . ومـــد شبكات الاتصال التلغرافي . وتحسين المواصلات النهرية والبحرية ( وذلك في مصر . سورية . فلسطين . العراق . . . ) كما شيدت بعض المصانع والمعامل . وتفاوتت اهميتها والاعتماد عليها تفاوتا يعكس بعد نظر الحاكم . ودرجة تحرره . واطلاعه وسعة ثقافته. ومدى ادراكه لمتطلبات التطور المقبلة للبلاد .

كما ان نشر العلم وتاسيس المدارس على مختلف درجاتها . وادخـــال مفهوم « العلم العلماني » الى المدارس ساهمت الى حد بعيد . بالنظر الى الواقع والى المجتمع نظرة جديدة ، لا تنطلق من الماورائيات والغيبيات وتغلبها على ما عداها .

ونتيجة لهذه الظروف ، تضاعفت فرص العمل ، واستقلت النشاطات

الاقتصادية . فتم فصل الصناعة الحرفية عن زراعة المزروعات المصنعة ، وصناعة السلع الحرفية عن الاتجار بها . ونقل مكان العمل من البيت الى المحترف ، فالى المشغل فالى المصنع اليدوي . وادخلت فكرة تقسيم العمل والانتاج . وتوسع الانتاج نفسه . واستقل بعض الشبان من الذين حصلوا على نسبة معينة من التعليم بعملهم . فلم يعودوا ملزمين بمواصلة عمل آبائهم او مشاركتهم فيه .

كما ان بدء ممارسة نشاطات صناعية او حرفية جديدة فتح بابا جديدا لفئة من العاملين اتخذته كمصدر للعيش . وكذلك الحال بالنسبة لتوسع الاعمال الادارية ، ونشوء السوق وازدهار المبادلات النقدية . والخدمات . فقد استقطب هذا المجال ، فئة من الشبان المتعلمين ، ومنحها دور الاشراف والتوجيه في البلاد .

لقد ساهمت كل هذه التغيرات الاجتماعيه في ايجاد وخلق الظروف الجديدة التي ستزعزع كيان التشكيلة الاقتصادية — الاجتماعية للمجتمع ، القائمة على الاستبداد والظلم والتبعية ، فتبدأ بنخر اسسها لتطيح بها في النهاية .

## اثر التحولات الجارية على البنية الاسرية

وكما طرا التغير على الجانب الاقتصادي من التشكيلة المذكورة . فقد طرا تغير متكافيء . ومتوافق معه على الجانب الاجتماعي . فبما ان اي تغير يصيب الجزء يظهر على باقي العناصر المكونة للبنية . فان الاسرة بمفهومها الذي حددناه — وحدة اجتماعية لا يمكن عزلها عن المجتمع . تعكس طابع مرحلة التطور التي يمر بها — لم تكن بعيدة . في الاساس ، عن تلقي التاثيرات التي عرضناها . وكانت تتميز بدرجة عالية من التلقي والديناميه ، مكنتها من تمثل تلك التاثيرات . والتكيف مع معطياتها ، وتعديل بنيتها بصورة تتوافق مع مقتضيات التطور . وهكذا بدانا نشهد ، وبعد مرور قرابة قرن ، بعض المظاهر الجديدة في الاسرة ، ان من ناحية العلاقات السائدة فيها . او من حيث شكل بنيتها ونمطها . لذلك نقول ان المرحلة الرابعة من التطور تبدأ في بداية القرن العشرين بالرغم من ان المهدات التي سببت الانتقال اليها ، استغرقت القرن السابق برمته .

هذا ، وكان لتفسخ العلاقات الاقطاعية ، بل ولانهيارها التام في بعض المناطق ، وفي المدن على وجه التحديد ، ولترسخ الملكية الخاصة للارض ، او حدوث بعض اشكالها ، الاثر الموجع على فئة الاقطاعيين ، ملاكي الارض الكبار . وكان هؤلاء سباقين في تأمين العلم لابنائهم . فما ان بدات تنهار كياناتهم ، وتتقسم ملكياتهم ، او توزع في بعض الاحيان ، حتى تمكنوا من التحول من ملاك للاراضي الى بورجوازيين في خدمة السوق البضاعية — النقدية . ذلك ان عملية استغلال الفلاحين كانت تنتهي دائما بوضع اليد على

فائض انتاج الارض ، فيخصص قسم منه للمعيشة ويباع القسم المتبقي ليؤمن بثمنه الحاجات الاخرى للاقطاعي .

فمع تدفق البضائع الاستهلاكيه عن طريق التجار الاوروبيين ووكلائهم ، ازدادت تلك الحاجات زياده ملحوظة وعجزت القدرات الماليه النقدية المحدودة للاقطاعي عن تلبيتها . فازدهرت في تلك الفتره عمليات بيع الاراضي ، بعد ان مهدت لها القوانين الصادرة عن السلطان ، والتي تتيح للاجانب تملكهــا وللفلاحين حيازتها ... كانت اثمان الاراضي المباعة ، تتحول بيد الاقطاعي ، الى راسمال تجاري حينا ، او الى راسمال ربوي حينا آخر . وقد ساعده للانتقال الى لعب هذه الادوار الاقتصادية ، القدر النسبي من التعلم الــذي حاز عليه ابناؤه . فتوسعت طبقة التجار والربويين ، وانتقلت الى المــدن ومراكز المناطق الريفية ، لتمارس استغلالها بشكل جديد . ولعب الابناء ، في هذه المرحله ، ادوارا رئيسة ، سمحت لهم بالحصول على قدر كبير من حرية الحركة ، وحرية التقرير ، واستكمالا استقلالية تامة على صعيد السكن .

ومن جهة اخرى ، كانت الفئات المتنورة ، من ابناء المدن ، قد اتاحت لابنائها متابعة دراستهم ، مما مكنهم ، حين اعيد تنظيم شؤون الامبراطورية العثمانية وتجديد وظائفها واستحداث المناصب فيها ، مــن الحصول عــلى وظيفة اداريه .

## الاسرة الواسعه المتحوله

ذكرنا ان قوانين الارض المثالية التي صدرت في ظل التنظيمات الاولى والثانية كانت تهدف الى اعادة تنظيم ملكيتها ، ومحاولة الحد من الضرائب واعمال السخرة التي كان يفرضها الاقطاعي على الفلاحين ، والتي انتهت الى تخريب نظام الاستثمار الفلاحي الصغير في اطار الاقطاعيات . كما نصت على الغاء نظام الالتزام بالنسبة لجباية الضرائب العمومية ، خاصة تلك المفروضة على الارض الوقف ، او الاراضي الاميرية .

ان الالغاء الرسمي لهذا النظام لم يؤد عمليا الى زوال سلطة الملتزمين . فقد ذكرنا ان مفعول هذا الالغاء سرى بالنسبه لجباية الضرائب في المدن ، حيث حل موظفون اداريون جدد محل الملتزمين في تحصيلها . اما في الارياف فقد استمر الملتزمون في القيام باعمالهم المعتادة كالسابق ، وازدادت علاقاتهم تأزما مع الفلاحين ، واخذ العنف يطبعها . ومهما يكن من امر فقد تقوضت الاسس والمرتكزات القانونية لنظام الاستغلال الذي كان يمارسه الملتزمون على قسم واسع من الفلاحين . وبقي الطابع المسيطر على العلاقات الانتاجية طابعا اقطاعيا . لكن ، خفت فيه الالتزامات ، وضؤلت امكانية تسخير قوى الدولة لفرض سلطة الملتزم على جماعات العاملين على الارض .

وتوافق هذا الالغاء مع تكريس امكانية تملك الارض لقاء رسوم ، كان مقدارها يتفاوت من قطر الى آخر . واتاح هذا التبدل لبعض فئات الفلاحين ،

خاصة اولئك الذين كانـوا يستثمرون اراضي الوقـف ، مستعينين باسرهم الواسعة وتفرعاتها ، مغادرة « حقوق تصرفاتها » السابقة على هذه الاراضي، بعـد ان امنت رسوم الطابـو وتملكت جزءا مـن الارض بموجب القوانين المشار اليها .

وتفسخت الاسره الواسعة المتفرعه نتيجة لهذا التحول فـي وضعية الارض القانونية ، وبعد ان تقوضت الاسس القانونية التي ارتكز عليهـا الملتزم اثناء عملية استغلاله لفلاحي الاراضي الوقف ، نشأت اسر جديدة بديلة ، بقيت واسعة الى حد ما . لكن هذا التحول طرأ على معظم أوجه حياتها ، الاجتماعي والاقتصادي والثقافي .

وعززت هذا التحول ، الخطوات الثابتة والمضطردة التي خطتها الاقطار العربية ، خاصة ما اصاب قاعدتها المادية من تغيرات . فتكرست مع الزمن خصائص محددة ، وبرزت بنية جديدة واضحة ومتميزة لهذا النمط الاسري .

ان المدينة العربية كانت مهدا لهذه الاسرة الجديدة ، لانها كانت الموطن الاول الذي تلقى التاثيرات وانفعل بها ، فنمت وازدادت المهمات والوظائف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية المطلوبة منها .

وبعد ان انتقل حكم الاقطار العربية الى الفرنسيين والانكليز ، عمـد هؤلاء الى انتهاج سياسات جديدة عـلى جميـع الاصعدة : الاقتصادية الاجتماعية والمدنية ، ورغم ان اتجاه هـذه التغيرات كان حصر الشروط الموضوعية لتطور المجتمع والاسرة ، الا انه ربط الاقطار المذكورة بمصالح الاجانب وجعلها تابعة تبعية كاملة على كل صعيد .

فتضاعف تأسيس الشركات الاجنبية ونشاطها على الاراضي العربية ، وحصلت على امتيازات لاستثمار كافة القطاعات الحيوية في البلاد ، واظهرت اهتماما متزايدا بتنمية قطاع الخدمات .

وظهرت وظائـف ومهـن ، ومناصب كانـت مجهولة حتـى الان ، استوجب شغلها بعض الشروط ، خاصة التعلم ، لتتمكن مـن الاشراف عـلى تقديم الخدمات ( مـاء ، كهرباء ، بريـد ، مواصلات ، مرافىء .. ) او تشغيل بعض المرافق . كانت الفئة المؤهلة ، الحائـزة على هـذه الشروط تتكون من ابناء الطبقات الثرية التي استطاعت تأمين التعليم لابنائها ، بالاضافة الى التقاء اتجاهاتهـا كطبقـة لها مصلحة في استمرار تفوقهـا الاقتصادي ، وبقائها في قمة الهرم الاجتماعي والاقتصادي ، مع مصلحة السلطات الاجنبية في تأمين استنزاف المنافع من حكم البلاد العربية .

استفاد اذن ابنـاء الطبقـات الثرية من الفرصة التاريخية ، الممنوحـة لهم ، وقبضوا على زمام الادارة المدنية الجديدة ، واستطاعوا بذلك ان يحققوا تغييرين مهمين :

تجاوزت النشاطات الاقتصادية الاطار التقليدي لتصـل الى المستوى الاجتماعي ، فأزالت في طريقها الطابـع العائلي الضيق عـن العمـل بصورة عامة ، واصبحت ممارسته تتم من دون وصاية الاهل او رقابتهم .

اما التغير الثاني فكان الاجر الذي حصلوا عليه بصورة مستقلة عن العائلة أيضا .

شكل هذان العاملان القاعدة الجديدة للتمايز الاجتماعي ، والاستقلال الاقتصادي لهذه الفئات الشابة التي دخلت الوظيفة الرسمية . وقد ساهم هذا الامر بخلق الشروط الموضوعية المؤاتية لبروز اتجاه ليبرالي أصاب العادات والتقاليد ، وعلى الاخص ما يتعلق منها بقضايا اختيار مكان السكن ، أو اختيار قرين بقصد الزواج .

وبصورة موازية كان الاقتصاد الوطني يفرز نتيجتين متلازمتين :

- تقسيم الملكيات العقارية الكبرى بعد ان سيطر سابقا ، اتجاه لا يشجع قسمتها .
- انتقال الاراضي بعد توزيعها الى ملاّك جدد ، وانتشار الملكية العقارية .

واستتبع هذين الحدثين حصول تقلص في حجم الاسر الواسعة ، وتركزها على الملكيات العقارية الصغيرة . ولم تتأخر التغيرات البنيوية عن التحقق في مرحلة لاحقة .

اذن ، ساعدت تدابير سلطات الانتداب والاحتلال الاجنبية وسياساتها على دفع عملية انتقال الاقطار العربية . بعد ان تفسخت فيها العلاقات الاقطاعية الى حد بعيد . الى المرحلة الرأسمالية ، وعملت على الحاقها بالسوق الرأسمالية العالمية .

ولم تنجز تلك السلطات هذه المهمة حبا بالاقطار العربية ، بل سعيا وراء تأمين مصالحها الذاتية . عن طريق تأمين الشروط الموضوعية التي تتيح قيام السوق المعتمد على التبادل البضاعي - النقدي . وحيث كان ذلك السوق قائما ، وسعته وضاعفت من امكانياته وقيامه بعمليات التبادل التجاري والنقدي .

واقتضى انجاز هذه المهمة تنفيذ تحولات جذرية في بنية التجهيزات القاعدية الاساسية في الاقطار العربية المختلفة ، وتحسين تأديتها لوظائفها ، على ضوء درجة التطور التي لحقت بالصناعة الاوروبية نفسها . لقد كان التسريع في تحديث المجتمعات ، وتحويلها الى مجتمعات استهلاكية ، وحصر قدرات اقتصادها بانتاج المواد الخام ، وقتل محاولات قيام صناعات فيها ، تعني توثيق صلات التبعية لمجتمع السلطة الاجنبية الحاكمة . وبعد الاستقلال اتجهت معظم الدول العربية الى انتهاج سياسة جديدة بالنسبة للاراضي . فعمدت الى اصدار القوانين المعروفة بقوانين الاصلاح الزراعي ، التي اعادت توزيع الارض على الفلاحين ، وحددت حجم ومساحات الاراضي المملوكة ، واستصلحت بعضها ووزعته من جديد . واعادت دراسة فرض الضرائب الزراعية على فئات الفلاحين .

واستقطبت هذه السياسة الجماعات السكانية ، التي اعادت تنظيم

نفسها عفويا ، ضمن اشكال اسرية جديدة لتتوافق معها وتسهل عليها عملية استثمارها للارض .

كما انعكست هذه التغيرات بسرعة على الاسر ، وطرات بالمقابل تحولات مهمة على بنيتها . ويهمنا ان نبرز الوجوه الجديدة للاسرة الواسعة المتحولة .

**على الصعيد الاجتماعي**

لم يعد مطلوبا من الاسرة ان تتصدى وظائفيا لمهام متشعبة وعديدة ، لذلك بدات تتقلص ، وتنشأ بين افرادها وتفرعاتها علاقات من نوع جديد ، غير علاقات التكامل الانتاجي او الاستهلاكي .

واصبحت الاسرة الواسعة المتحولة مؤلفة من مجموعة من الاسر القرابية الفرعية الصغيرة ، التي تتساوى فيما بينها ، وتوحدها علاقات الدعم والتعاون ، والتفاعل المتواصل ، والعاطفة المتبادلة . وتتحدد بوجود شبكة حية من العلاقات الاجتماعية ، بما في ذلك التساند وتادية الخدمات ، تربط اعضاءها .

وهي تتميز بخمس ظاهرات :

١ — الانتقاء القرابي . تنحصر الاسرة الواسعة المتحولة بموجب هذا المبدأ بالاعضاء الفعليين . وتتحدد بموجبه ايضا طبيعة بنيتها غير الثابتة : فهي أحيانا تضم الاقربين الادنين ، وأحيانا تتسع دائرتها لتضم الاقرباء الابعدين .

٢ — بروز البعد والوظيفة العلائقيين في هذا النمط الاسري . وبمقتضى هذا المبدا تقدر تقديرا عاليا العلاقات بين الاقرباء خاصة تلك التي تبغي تبادل الخدمات ، والتواصل والالفة بين افراد الجماعة الاسرية . وتأخذ هذه الصلات العلائقية وما تؤديه من وظائف حيزا لم تعرفه قبلا .

٣ — تقاسم أعباء الوظائف الاجتماعية بين الاسرة الواسعة المتحولة وبين المؤسسات الاجتماعية ، فليست هناك وظائف خاصة تؤديها الاسرة واخرى يؤديها المجتمع . فكل وظيفة تحوي عدة مهام ، تؤمن الاسرة بعضها ، وتؤمن المؤسسات بقيتها . فوظيفة التنشئة الاجتماعية للاطفال التي كانت معتبرة حكرا على الاسرة ، اصبحت جزءا منها ، ( المتعلق بتربية الطفل وتعليمه ، وحتى الاهتمام بميوله ) هي من مهام المؤسسة التربوية الاجتماعية . هذا الامر لم يكن معروفا في نطاق الاسرة الواسعة المتفرعة ، نظرا لعدم شيوع التعلم من جهة ، ولعدم التوسع في التخصص الاجتماعي وتقسيم العمل .

٤ — اختفاء التعاون المهني في نطاق الاسرة ليصبح كل فرد من افراد الاسرة الواسعة المتغيرة وحدة اقتصادية وانتاجية قائمة بذاتها ،

يعلق بها وحدها امر تامين مجال عملها ، او التقدم فيه . لقد غاب التعاون بين افراد الاسرة الواحدة للقيام بمهنة واحدة ، الا من الاوساط المفرقة في تقليديتها .

٥ ـ الاستقلالية النسبية للاسرة القرابية الفرعية الصغيرة التي تعتبر وحدة الاسرة الواسعة المتحولة . تنجم هذه الاستقلالية عن اختفاء التعاون المهني . وظهور القيم الجديدة ، والتحرر المادي والمالي . وتؤلف مختلف هذه الوحدات الاسرية الصغيرة تكتلا متوازيا ، يكون الرقابة على عناصر سلمية معنوية . وعليها ان تؤمن احتياجاتها وشؤونها بنفسها .

## على الصعيد الاقتصادي

ترتكز الاسرة الواسعة المتحولة على قاعدة اقتصادية متماسكة . يمارس افرادها مهنا تدر عليهم ربحا كافيا يؤهلهم لذلك تحصيلهم مستوى علميا فوق المتوسط .

وتمارس نسبة لا بأس بها من نساء هذه الاسرة العمل المنتج وتساهم في اغناء ميزانية الاسرة .

ويتأثر السلوك الاقتصادي لاكثرية الاسر المذكورة بواقع انتمائها الى الطبقة الميسورة . وتقطن في الاحياء السكنية العصرية . ويقدم حجم استهلاكها الدليل الملموس على غناها ، ويشكل ثمن حصولها على التقدير الاجتماعي .

وترتبط طبيعة العلاقات الزوجية بتشكل الميزانية الشهرية للمسكن الزوجي . فكلما ارتفعت نسبة مساهمة الزوجة ، كلما سهلت امكانية تحقيق المساواة بين الزوجين ، وضؤلت فرص التغلب على النزاعات الزوجية وايجاد الحلول لها .

## على الصعيد الثقافي

لقد اصبح الزواج بالنسبة للاسرة الواسعة المتحولة اختيارا وتفاعلا يتم بين شخصين ، بفضل انتماء اعضائها الى الطبقات الوسطى الميسورة ومستوى تحصيلهم الثقافي . فبالرغم من ان الحب هو في اساس بعض الزيجات ، فانه بقي هدفا لرقابة تشتد او تخف . تبعا لتطور الجماعات الاسرية نفسها ، وغالبا ما تمارسها عبر الفصل بين الجنسين ، وفرض سلطة الاهل على الشبان بمناسبة اختيارهم لشريك او شريكة الحياة .

وبالرغم من ذلك ، لم تعد صورة المراة مصبوغة بالجنس ، او بأنها « ست بيت » . لقد اصبحت تعتبر الآن شخصا يبحث عن مساواته مع الرجل ، وتشارك في النشاطات المهنية ، ولها الرأي في ادارة المسكن الزوجي .

والحقيقة ان الموقف الاجتماعي حيال هذا النمط من الاسر هو خليط من الاحترام والاحتقار ، من الاعجاب والشك ، من الحوار والتحفظ . ان هذه التعددية في المواقف نابعة ، في الاصل ، من تراكم صورتين متناقضتين عن المرأة : صورتها التقليدية كسيدة بيت ، والثانية التي تظهرها ككائن حر منافس للرجل . ومن هنا تولد مشاعر خاصة مؤاتية او متناقضة مع كل صورة ، يتبع تطورها تطور وظائف الاسرة نفسها . « فكل تغير في الوظائف يقابله تطور في السلوك والمواقف داخل الاسرة » (١) . وتظهر هذه التعددية في العبارة التالية : « نحن الآن بصدد مسألة تحرر المرأة التي **انعكست** بشكل سيىء على اوضاع الاسرة اللبنانية » (٢) .

« عند المدينيين ، يحتفظ الزوج باستعلائيته ، لكنه يعامل زوجته بنعومة وطيبة ، ويتأكد هذا الاتجاه بشكل مضطرد في الطبقات المتعلمة ، حيث يبذل الزوج جهده ليتجنب كل مظهر تقليدي يعكس نظرة دونية عن المرأة » (٣) .

ان غلبة اي عنصر من العناصر الثلاثة : الاقتصادي أو الاجتماعي او الثقافي ، الداخلة في عملية انبناء الاسرة الواسعة المتحولة ، لحظة تركيبها ، يرجح بروز وجه معين يطبع البنية بكاملها . وكنتيجة لهذا القول هناك اسرة واسعة متحولة يغلب عليها الطابع الثقافي ، فتبدو محافظة او عصرية، واخرى يطبعها طابع اجتماعي فتظهر متوازنة او متأزمة ، وثالثة طابعها الغالب اقتصادي ، وتكون فقيرة او غنية .

## الاسرة الزوجية النووية

وتستمر مسيرة التطور بعد ان دخلت الاقطار العربية في المرحلة الراسمالية وظهرت بوادر التصنيع في بعضها . وكان من نتائج ولوج المرحلة المذكورة ان تفشت ملكية الاراضي وانتشرت المضاربات .

اندفعت معظم الاسر الواسعة المتحولة ، التي كانت لا تزال تملك قطعة من الارض وتقيم بمنزل قديم واسع المساحة ، الى ان تبيع الارض ، طامعة بالريع الوافر الذي اصبحت تدره تجارة البناء ، او الايجارات . وتصاحبت حركة البناء هذه مع نمو الاقتصاد الوطني وخاصة قطاعات الخدمات .

وبقيت الصناعة الوطنية مقموعة ومغمورة بفضل الصناعة الاجنبية ،

---

(1) Touzard (H) , Enquète psychologique sur les rôles conjugaux et la structure familiale, C N R S. Paris, 1967. p. 23.

(٢) الاسبوع الاجتماعي الرابع في بيروت « الاسرة اللبنانية » منشورات الآداب الشرقية ، بيروت سنة ١٩٤٣ ، ص ٦٩ .

(٣) دآغستاني ، سبق ذكره ، ص ٨٢ .

التي كانت تبذل قصارى جهدها لابقاء الصناعات المحلية قاصرة عن النمو . ولكن بالرغم من ذلك ، شيدت المصانع وارتفعت ابنية المعامل ، واخذ القطاع الصناعي يزدهر .

لقد اتاح هذا النمو لفئات واسعة من الشبان الدخول لاول مرة الى ميدان العمل ومكنهم من الاستقلال الاقتصادي عن اسرهم . ولم يكن نصيب النساء في العمل ضئيلا ، فقد جذبتهن مؤسسات قطاع الخدمات ، بعد ان تكاثرت ، وشغل قطاع الخدمات نسبة مرتفعة من الاقتصاد الوطني ، فعدل الواقع الجديد ، من صورة المراة ، وقرب التفاوت بين الجنسين .

ان تقلص حجم الاسرة من جديد ، وتكاثر الاعباء المادية عليها ، ودخول معظم افرادها الى سوق العمل ، احدث خللا جديدا في بنية الاسرة الواسعة المتحولة . فمهد ذلك الى بروز نمط اسري جديد هو الاسرة الزوجية النووية .

ويجب الا يغيب عن البال ان عملية تقلص الاسرة ليست نتيجة للتطور وحده ، بل تكتسب معانيها من سعي هذه المؤسسة الاجتماعية لتلبية المقتضيات الراهنة والمستجدة . فتخضع بالتالي للتوافق الثنائي من بنية ــ وظائف «Structure-fonctions» بتحقيق التوازن حين يتكيف شكل البنية بحيث يؤدي الى تسهيل القيام بالوظائف المطروحة والواجبة في مرحلة معينة . اما اذا عجزت عن تحقيق هذا التكيف فانها تصبح مدعوة لمغادرة الساحة ، واخلائها ، لشكل جديد ، لا يعيق التطور ولا مقتضياته .

في الواقع ، كان ديركايم ، عالم الاجتماع الفرنسي الشهير ، هو اول من دافع عن اطروحة ومفهوم الاسرة النووية . فلقد كشف عن سلكة (١) تطور الاسرة واتخاذها هذا الشكل . كان يعتقد ان الاسرة الزوجية الصغيرة ، هي نتاج لحركة التطور المنتظمة المتجهة نحو التخصص « spécialisation » والتمايز « différenciations » المصاحبين للواقع الاجتماعي متنامي التعقيد . وكان يقول : « ان تقلص حجم الاسرة ينجم عن توسع الوسط الاجتماعي ، الذي يدخل الفرد معه في علاقات مباشرة » .

فكلما كان ذلك الوسط الاجتماعي واسعا ، كلما تزايدت الفوارق الفردية واصبحت قادرة على أن تعبر عن نفسها بقوة ، نظرا للضعف الذي ينتاب الرقابة الاجتماعية . والحقيقة ، انه منذ بداية المرحلة الرابعة من مراحل تطور الاسرة وحتى الآن ، تشهد الاقطار العربية حركة ناشطة تهدف الى التوسيع المضطرد للوسط الاجتماعي ، بواسطة حركات التحديث المديني « les mouvements d'urbanisation » ، وادخال

---

**(١) دبركايم ، الاسرة الزوجية ، المجلة الفلسفية ، رقم ٤٦ ، الصادرة في باريس سنة ١٩٢١ ، ص ١ــ١٤ ، ( بالفرنسية ) .**

التمايزات على الوظائف المناطة بالمدن ، وتسريع وتيرة الاتجاه نحو التصنيع . فالوحدة الاسرية العربية تتقلص باستمرار ، وبشكل مضطرد ومتوافق ، مع التغيرات الطارئة على القاعدة المادية للمجتمع ، وتذهب في تقلصها الى الحد الاقصى .

بهذه الحجج ، يبرهن ديركايم انه تبعا لعمليتي التقلص وبروز الميول والفوارق الفردية ( التشخيص ) « la personnalisation » تصبح الاسرة الزوجية ، في المجتمع العصري ، النمط المهيمن في المنظومة الاسرية . وبما ان المناطق العربية ، لم تحقق بعد المهام الكاملة المطلوبة لتحقيق الانتقال بالمجتمع الى مجتمع عصري ، فان نمط الاسرة النووية الزوجية العربية لم يصبح بعد نمطا مهيمنا . فبقدر درجة التطور التي تحققت في منطقة معينة ودرجة شمولها وعمق جذورها ، بقدر ما تنعكس على المنظومة الاسرية فينبني نمط الاسرة الزوجية .

واذا كنا نؤكد بأن النواة الزوجية ، تصبح في نطاق هذه الاسرة ، وحدة اجتماعية مستقلة تتميز باستقلاليتها السكنية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، فان ذلك لا يعني ، في اي مرحلة من التحليل ، بأن هذه الوحدة قد قطعت كل صلة لها بجماعة الاهل والاقرباء .

فديركايم نفسه لم يشبه ابدا عملية التقلص الاسري بصورة المجتمع المؤلف من تجميع النوى الصغيرة « les petits noyaux » المنعزلة كليا عن بعضها البعض . فعلى العكس ، انه يرى ، ونوافقه على ما ذهب اليه في نظرية « القطاعات الثانوية «zones secondaires» ان الاسرة الزوجية « النووية » تبقى دائما منغمسة حتى الاعماق ، بشبكة علاقات اوسع ، وتصبح القطاع المركزي للعائلة ( بمفهوم مجموعة الاسر التي ترتبط ببعضها بعلاقات القرابة والدم او المصاهرة ) ، فتحاط بقطاعات ثانوية : راسية «ascendants» وهابطة «descendants» ، ومتفرعة افقية «collatéraux» تممها وتتابع لعب ادوارها ، الا انها تفقد سلطة فرضها .

اما بارسون « المعروف بابحاثه (1) عن الاسرة النووية فيضيف تحليلات جديدة الى ما اعطاه ديركايم يؤيد فيها هذه الفرضية . «la nucléarisation de la famille » ويعيد النظر في عملية التحول النووي للاسرة فيجمع معطيات جديدة وعددا من المؤشرات منها التقابل المتوازن الذي طرأ على خطوط التفرع في منظومة القرابة ، والسكن في مناطق سكنية جديدة ، والاستقلالية الاقتصادية ، للزوجين الجديدين ويعتبرها كنتائج لا يمكن التهرب منها ، لمجموعات من الواقعات التي طرأت

---

(1) نعود في هذا المجال الى مقالين لبارسون :

ـ « القرابة في الولايات المتحدة الاميركية » ، ١٩٤٣ ترجمه الى الفرنسية بوريكو ، تحت عنوان « عناصر من اجل علم اجتماع الفعل » ، باريس ، بلون ١٩٥٥ ، ص ١٢٩ـ١٥٠

٢ ـ «البنية الاجتماعية للاسرة» نشرت في مجلة «Anshen» عام ١٩٥٩، ابتداء من ص٥٢٨

على الانبناء الاجتماعي وعلى البنية المهنية للمجتمع العصري .

فلقد تعمقت اكثر فأكثر فكرة التمايز في الانبناء الاجتماعي وادخلت معها التخصصات الدقيقة التي لا تنتهي في الوظائف الاجتماعية . فتربية الاطفال كانت مهمة من مهمات الوالدين ، واذا بها تتحول لتصبح من الوظائف الاجتماعية التي تؤمنها رياض الاطفال ودور رعايتهم مثلا .

اما البنية المهنية فلقد اصبحت تسمح باضطراد ( وبفضل انظمة الاجور والمساعدات الممنوحة ) بالتحرر من الروابط المفروضة ، وبتحقيق الاستقلال الاقتصادي الكامل للاسرة الزوجية النواتية .

فاذا نظرنا عبر هذه التوضيحات وجدنا ان هذا النمط من انماط الاسرة ليس نتيجة ضرورية بحد ذاته ، ولكنه تعبير عن التكيف الوظائفي مع متطلبات التغير الاجتماعي ، وتكيف آخر مع الحراك الجغرافي والاجتماعي والقيمي ( نسبة للقيم ) الذي اقتضته البنية الجديدة للنشاطات المهنية المستحدثة .

وانطلاقا من هذه المقدمات النظرية ، فان ارض الواقع العربي ، تقدم واقعات ( des faits ) حقيقية تثبت وجود الاسرة الزوجية النووية .

## على الصعيد الاجتماعي

ظهرت بنية جديدة لشبكة العلاقات التي تنسجها الاسرة . تلك العلاقات لم تعد مفروضة باسم مقتضيات تقليدية كالقرابة او التواصل العائلي ، او المساعدة المادية ، بل تقوم على الاختيار الحر الذي توجهه الخصائص والميول الذاتية (١) . فأثر على ظاهرات السكن ، والاحتكاك بالآخرين ، ونوعية وكمية تلقي المساعدات والخدمات المتبادلة .

اصبحت نسبة لا بأس بها من المتزوجين الجدد ، تبحث بصورة واعية ، عن مسكنها الزوجي بعيدا عن حي سكن اسرة احدهما . وهذا يعكس درجة وعي متزايد عن تأثير الاهل في حياة الاسرة الجديدة ، ورغبتها في تجنب مثل هذا التأثير ، في انتقائها مكان سكن ، لا يوفر فرص لقاء واحتكاك مستمرين بالاهل .

وكذلك فان درجة القرابة لم تعد كافية بمفردها ، لتحدد وتيرة التفاعل ضمن الوسط العائلي . فلقد اخذت تنمو علاقات تفاعل خارج هذا الاطار ، مع الاصدقاء ، ومع زملاء العمل . حتى عندما تنشىء هذه الاسرة علاقات لها مع اسر تربطها بها صلات القرابة ، فاننا نلاحظ ان تلك العلاقات لم يعد لها طابع شكلي ( اي لانها من العائلة ) ، بل اخذت تكتسب مع الزمن الطابع الانتقائي . فالتزاور والتفاعل بين هذه الاسر « العائلية »

---

**(١) ( المؤلف ) ، الاسر السنية البيروتية ، حياتها اليومية ، بنياتها ، ونزاعاتها الزوجية ، اطروحة ، باريس ١٩٧٤ ، ص ١٣١ .**

يتمان لانها تجد فيما بينها سمات مشتركة ، او هموما وخصائص واحدة ، تجمعها . فتنتقي واحدتها الاخرى بالذات ، وتفضل الدخول معها في علاقات تفاعلية وتبادلية . وتبتعد عن اسرة عائلية ثانية ، تكون على نفس المسافة بين القرابة الدموية التي تصلها بالاسرة المنتقاة . ويتضح في هذا المجال ، ان العلاقات والروابط العائلية ، تفقد في هذه الحالة طابعها الالزامي كضرورة « صلة الارحام » .

ورغم أن اسر المنشا التي عاش فيها الزوجان ، او الاسر العائلية الاخرى . تبقى نقطة ارتكاز ومصدر دعم لغالبية الاسر الزوجية النوويه ، وتستمر لتقدم لها الخدمات المعنوية او المالية ، فاننا نذكر ونسجل الميل الواعي لبعض الفئات المتعلمة والجامعية الى ان تكفي نفسها بنفسها ، معتمدة على كفاءاتها وقدراتها الذاتية ، وهي نسبة وان كانت ضئيلة حاليا ، الا انها تنمو مع الزمن ، وترى ان عليها واجب تقويض اسس الاسرة التقليدية المغرقة في تبعيتها (١) .

وسمة اخرى بارزة من سمات الاسرة الزوجية النووية هي المساواة بين الرجل والمرأة . تلك المساواة التي بدأت تتحقق في الميادين المختلفة للحياة الزوجية ، من الاشتراك في تقرير مختلف المشتريات ، الى اتخاذ القرارات المهمة في الاسرة ، الى توزيع للمهام المنزلية والاعمال والخدمة فيه . وقد احتلت المرأة هذه المكانة الجديدة ، خصوصا بعد ان بدأت تزاول العمل خارج المنزل ، وتكسب عيشها وتؤمن قسما من واردات الميزانية للعش الزوجي .

### على الصعيد الثقافي

لم يعد الزواج . كمفهوم سائد في اوساط هذه الاسر ، مقتصرا على كونه وسيلة للانجاب ، فقد أخذت صورته تغتني وتصبح ذاتية . فلقد بدأ عدد من الشبان (٢) يعتبرونه شكلا فعالا للتعاون المتبادل بين الزوجين في كل الميادين ، يهدف الى تحرير واغناء شخصية كل منهما عن طريق الاستفادة من تجارب الطرف الآخر او التجارب المشتركة .

ورغم ضآلة نسبة الذين يتمسكون بمثل هذا المفهوم عن الزواج ، فهو يعكس تغيرا ثقافيا في ذهنية عدد من الاسر العربية الحالية .

وكتكملة لهذه الصور والمفاهيم ، لم يعد اختيار القرين في هذا النمط من الاسر يخضع للقواعد التقليدية . فتدخل الاهل لم يعد مقبولا ،

---

(١) من نتائج بحث ميداني تم في بيروت سنة ١٩٧٢ ، ونشر نتائجه (المؤلف) ، والمرجع سبق ذكره ، ص ١٣٤ .

(٢) تتعدى نسبة ١٠ بالمئة من عينة ممثلة للاسر البيروتية بدقة ، ص ١٣٤ ، من المرجع المذكور سابقا .

ولا يعلق الشاب المقدم على الزواج كبير اهميه ، على رأي اسرتــه بصـدد الفتاة التي سيختارها زوجة له . واصبح الحب والتفاهم المتبادل يشكـلان قاعده الاسر الزوجيه النووية .

ونلح على التسجيل ، وللمرة الثانية ، ان اهمية هـذه الظاهرات لا تكمن في نسبة انتشارها في المجتمع ، او تكرارها ، بـل في التحول النوعي الذي ادخلته الاسره الزوجيه النوويه على المفاهيم ، وعلى وجهات النظـر ، وعلى الروابط التي تجمع فيما بين الزوجين ، وفي نوعيـة العلاقات التـي اخذا يتبادلانها مع محيطهما الاجتماعي .

## على الصعيد الاقتصادي

وتتميز الاسره الزوجيه النووية عـلى الصعيد الاقتصادي بانهـا تقوم على قاعدة مادية مستقلة بفضل انتاجيـة الزوجين . والواقع ان هذا النمط لم يكن ممكنا انبنـاؤه ، لولا قدرته علـى الاستمرار الاقتصـادي ، وتامين وجوده ، دون انتظار المساعدة من احد ، في وسط عدائي ، تقليدي حتى الاعماق ، كان ينتظر فشل هذا النمط ، لتعود الاسرة الى الوسط العائلي تستجدي المساعدة وتقدم لقاء ذلك الولاء والطاعـة وتنفذ رغبات الآخـرين على كل صعيد .

ولم تكن تلك الاستقلالية الاقتصادية ممكنـة لو لم يكـن الزوجـان متعلمين ، ولولا تطور البنية المهنية وتوسع فرص العمل التـي تتيحهـا للشبان . واليهما يعود فضل ترسيخ استقلالية الزوجين ، ماديـا ومعنويـا ونمط حياة .

والواقع ان الاسر الزوجية النووية التـي نتحدث عنها ، تنتشر فـي اوساط المتعلمين العاملين في مهن معروفة بارتفاع نسبة مداخيلها ، الـى جانب كون المراة فيها منتجة . لقد شكل اجر الزوجـة مضافـا الى اجر الزوج القـوة التي حررت الاسرة مـن الضغوط التي مارسهـا غـلاء المعيشة وعدم كفاية المداخيل بالاضافـة الى ضغـوط التقليديين عليها لترتد عن نمط المعيشة الذي اختارته لنفسها .

وانعكست هذه الاستقلالية الاقتصادية على مختلف ميادين حيـاة الزوجين ، وعلى علاقاتهما المتبادلة . فالاكتفاء المادي مضافـا الـى اتساع الافق الثقافي لكليهما ، كان يؤدي في الغالب الى رضاهما التام ، الواحـد عن الآخر ، كما عن حياتهما المشتركة ، ويتيح قيـام الانسجام بينهمـا . ويكون كل من الزوجين مقتنعا انه لولا التعاون القائم والمشاركة المتحققة ، والجهود التي يبذلها الطرف الآخر ، لما تحقق الرضـا ولا الانسجام في نطاق اسرتهما المشتركة .

وادت مساهمة الزوجة بميزانية الاسرة الى تغير نسبي في صورتهـا الاجتماعية . واصبحت تشعر بمساواة نسبية مع زوجها . فانطلقـت تقيم

علاقاتها معه على هذا الاساس . الا ان الواقع يكشف أن الاسرة الزوجية النووية تصرف قسطا وافرا من الوقت . في الحوار بحثا عن حل ، لمواجهة اي حدث يصادفها . على ان يراعي هذا الحل تجدد التوازن الداخلي القائم في الاسرة . وبالرغم من الاستقرار الظاهري الذي تنعم به ، غير ان هذه الحالة ليست نهائية ولا دائمة ، بل تعاد وتطرح على بساط البحث كلما استجد امر في نطاق الاسرة .

## الاسرة الواسعة التقليدية

تبقى الاماكن والاقطار التي تاثرت بالتغيرات المختلفة ، الطارئة على المجتمع . تاثرا بسيطا وسطحيا . ويتلخص وضعها بانه استحكمت فيها بقايا العلاقات العشائرية ، أو الاقطاعية وحكمت علاقات الناس ببعضهم . كما استمر الوضع الثقافي فيها على حاله ، من امية متفشية ، الى سيادة للافكار والمفاهيم السلفية القديمة ، المتدة على الاوهام والخرافات . ولم يتحسن وضعها المادي والاقتصادي فبقيت تلك المناطق تعاني من فقر شديد ، وعوز وحاجة ، الامر الذي وضع جماعات الناس الذين يعيشون فيها تحت ضغط اقتصادي قوي ، فتخلف وعيهم ، وتجمد عند نقطة لا يبرحها . واصبحت تصرفاتهم ووجهات نظرهم عبارة عن نسخ متكررة لما كان سائدا ، او لما هو متداول .

وليس بغريب ان تحافظ بنية الاسرة ، التي عرفت في هذه الظروف ، على سماتها القديمة ، او ان تتحول بنسبة ضعيفة ، تحولا يصيب الشكل ولا يصل الى جوهر الاشياء وأعماقها .

حافظ هذا النمط من الاسر على حجم الاسرة القديمة ، فعرف بالاتساع . ويضم الى جانب الوالدين ، ابناءهما وزوجاتهم واولادهم ، وكذلك بناتهما غير المتزوجات ، واحيانا كان يضم ايضا من بقي على قيد الحياة من الجدين او الاعمام والعمات من غير المتزوجين .

ورثت هذه الاسرة ، الاسرة العشيرية التي تحدثنا عنها في المرحلة الثالثة من مراحل تطور بنيات الاسر ، اما الفارق بينهما فكان ما داخلها من تعديلات . واستمرت القرابة ، وسلطة رب الاسرة والسكن المشترك ، بعد ان تعدلت بعض واجهاتها ، لتشكل العناصر المؤلفة لبنية الاسرة التقليدية المتجددة . كما استمرت بعض الظاهرات القديمة لتنتشر ضمنها ومنها مساعدة الابناء للآباء في اعمالهم رغم كونهم يمارسون مهنا تختلف عن مهن آبائهم . كما تعددت المهام والوظائف الاجتماعية المناطة بالاسرة .

وعلى المستوى الواعي ، بقيت القرابة ، الرباط الاقوى الذي يشد افراد هذه الاسرة ويحولهم الى جماعة ضاغطة قادرة على ان تقدم لكل فرد من افرادها دعما معنويا وعاطفيا . ولطالما استفاد اعضاؤها من هذا الواقع ، ولعب ضغط الجماعة دورا ايجابيا لتأمين وظيفة عامة او منفعة معينة لاحدهم .

أن طبيعة هذه الصلات تشكل عاملا هاما يوطد مشاعر الامـــن فـــي النفوس ، واداة دفاع ضـــد العزله الاجتماعية أو القصور الـــذي انتـــاب افرادها ازاء مظاهر التغير الاجتماعي السريع . لقد ساد الاعتقـــاد بـــأن « الاصدقاء ينسونك ويديرون لك ظهورهم عنـــد الحاجة اليهم ، اما الاقرباء فهم دائما مستعدون لمساعدتك » . فالتحولات الاجتماعيـــة والاقتصـــادية كانت دافعا لتقويـــة وتعزيز صلات القرابة ، خاصة فـــي الاوساط التي لـــم تتطور اوضاعها الذاتية . وبقيت تحافظ على كل خصائصها السابقة . فلم يكن بامكانها مواجهة تلك التغيرات الطارئة دون الانكفاء نحـــو الآخرين طلبـــا لتطمين النفس ، ومحاربة الخوف .

ومما لا شك فيه ، ان التطور الذي يطـــرأ على بنيـــات المجتمعـــات العربية المعاصرة . وبالاخص على قاعدتها الاقتصادية يتحقق بوتائر سريعة . وان الاوضاع التعليمية والنفسية والمعنوية لقطاع واسع من الجماهير العربية تتطور ايضا ولكن ببطء شديد . ويؤدي هذا التفاوت في التطور الى عـــدم تكيف وعدم توافق الجماعات سلوكيا ، وقيميا ، مع التغيرات الطارئة على القاعدة المادية للمجتمع ، مما يجعلها عاجزة عن الانتقال الى ممارسة انماط حياة جديدة . وتلجأ عوضا عن ذلك الى الاعتماد على الاسس القديمـــة نفسهـــا لعلاقاتها ، وتستنبط منها اشكـــالا جديدة للتكيف الاجتماعـــي النسبي . فالتركيز على صلات القرابة للحصـــول على منصـــب فـــي الآلة الانتاجيـــة الحديثة في المجتمعات العربية المعاصرة ، ادى بالتأكيد الى ان تحل مشاعر القرابة محل الكفاءة العملية والعلمية المطلوبة للقيام بمهام المنصب المذكور . وهذا يوصل بدوره الى رص صفوف الاسرة الواسعة ، ويشجعها على البحث من جديد عن الصلات القرابية التي تربطها بجماعات اخرى ، خاصـــة اذا كانت هذه الاخيرة في مراكز السلطة ، بل قد تلجأ الى استنباطها او وضعها او تصورها وجود مثل هذه الصلات . ومن الواقع ذي الدلالة فـــي هـــذا المجال ، محاولة العربي عموما اكتشاف ما اذا كانت هناك علاقة قرابة قائمة بينه وبين شخص تعرف عليه حديثا . وكان الامن الشخصي وتبديد مشاعر الخوف مرتبطان ابدا بالقرابة .

اما سلطة رب الاسرة ورقابته فقد طرأ عليهما بعض التغير . فرغـــم ان عهد القمع المبني على مبدأ الخطأ والعقاب لم ينقض كلية ، فلقد عرفت علاقة جديدة الى جانبها هي علاقة التوجيه القائمة على قاعدة من السلطة المعنوية ، فأضيفت الى الرقابة الصارمة والقمع الجسدي .

وانحصر حصول السكن المشترك ، تحت سقف واحد ، في المرحلة التي تلي الزواج مباشرة ، وتقلصت فترتها . فبعد ان كان سكنى الابنـــاء مـــع آبائهم تحت سقف واحد مبدأ عاما معترفا به ومقبولا لدى الجميع ، اصبح يعتبر نقطة انطلاق للزوجين الجديدين ، ومحطة مؤقتة ريثما يؤمنان اسباب انتقالهما الى مسكن مستقل . والطريف في هذا المضمار هو ان هذا الانتقال محدود جغرافيا . فغالبا ما يترك الزوجان بيت والد احدهما ليسكنا فـــي

منزل لا يبعد سوى أمتار . فهكذا تتجمع الاسرة الواسعة ، التي توزعت وتقسمت الى تفرعاتها ، وتحولت بعض مظاهرها بفعل التطور ، لتسكن حيا واحدا يحمل اسمها ، او شارعا معينا من الحي . فكاني بها تنتقل من سكنى الخيم الى سكنى المنازل المتلاصقة .

وطرا تعديل آخر على مبدأ السكن المشترك ، هو بمثابة حل وسط ، بين الاقامة المشتركة لجميع الافراد المتفرعين عن الاسرة في مسكن واحد ، وبين السكن المستقل . فقد لجأ بعض ارباب العائلات من الميسورين الى تشييد عدة طبقات في البناء الواحد ، ومنح كل طبقة لاحد ابنائه المتزوجين ليشغلها مع زوجته وأولادهما . ويستبقي الطبقة الاولى غالبا ليسكنها مع بقية ابنائه غير المتزوجين . هذا الامر يجعل البناء كله . في الواقع ، مسكنا مشتركا مخصصا لافراد اسرة المنشأ الاصلية مع الاسر المتفرعة عنها.

وقد انتهى عهد ممارسة جميع افراد اسرة المنشأ لمهنة واحدة . فالاتجاه نحو التخصص وتقسيم العمل الى درجة متناهية . قضى على امكانية العمل المهني المشترك . لقد كانت هذه المشاركة احد المبادىء الاساسية التي تقوم عليها الاسرة التقليدية القديمة . اما الآن ، فقد تحولت اشكالها في ظل الاسرة التقليدية المتجددة . واصبح الابناء يمنحون آباءهم يد مساعدتهم ، بعد انتهائهم من اعمالهم الشخصية واثناء اوقات الفراغ . رغم انهم لا يتعاطون مهنة الوالد . وليس ذلك سوى الدليل على وجود بقايا نظام العمل المهني الواحد للاسرة الواحدة ، وشيوعه في الاسرة الواسعة المتحولة .

كانت الاسرة التقليدية تقوم بمهام وظائفية عديدة ، اما اليوم، وخصوصا بعد ان نمت المدن ، وازدادت درجة تعقيد الاقتصاد الوطني ، في مختلف الاقطار العربية ، فقد فرضت الحاجة لخلق وايجاد مؤسسات اجتماعية متخصصة لتقديم العون للافراد والمواطنين . ورغم انتشارها فان هذه الاسرة ما برحت تلعب ، وظائفيا ، ادوارا عديدة : تقديم العون المادي والخدمات، الدعم المعنوي، والاشتراك في مختلف النشاطات في اوقات الفراغ .

وننتهي الى القول ان اسس الاسرة التقليدية لم تتقوض نهائيا . وانه ما دامت وظائفها تؤمن وتتجدد ، سيستمر هذا النمط الاسري في الوجود كحقيقة قائمة .

اما السؤال الاخير الذي يطرح في هذا المجال فهو : في اية اوساط اجتماعية ينتشر هذا النمط ويحافظ على استمراريته ؟

تفيد بعض الدراسات ان جذورها تمتد في وسطين اجتماعيين متعاكسين تمام التعاكس : في الطبقات الفقيرة الامية ، وفي اوساط الاغنياء الذين لا يتعدى مستواهم الثقافي المستوى الابتدائي .

ولكن ، لا يمكن اعطاء المدلول نفسه وتفسير السلوك التقليدي الذي يلاحظ عند فئات الاغنياء وعند الطبقات الاجتماعية الفقيرة بنفس الوقت، تفسيرا واحدا . ويخطىء خطأ فادحا ، من يعتقد ان الوحدة الظاهرية للسلوك

التقليدي ، المشترك بين الاغنياء والفقراء ، هي ثمرة وحدة التعاليم الاسلامية.
فالفئة الاولى تتخذ من هذا السلوك المحافظ وسيلة تهدف الى تأمين استمرارية مصالحها ، عن طريق تامين استمرارية الوضع الراهن والمحافظة على ركوده . اما بالنسبة الى الفئة الثانية ، فالسلوك التقليدي هو تعبير عن عدم الوعي الاجتماعي ، نظرا لضغط الشروط القاسية ، وغير المؤاتية التي تعيق بل تجمد أي فرصة للتحرر من ربقة هذه الوضعية ، فالتقليدية كاتجاه ، عائق بالنسبة لتقدم الفقراء وتطورهم .

## مسار التطــور

ويستنتج مما سلف ان ثلاثة انماط اسرية رئيسية تتعايش في الاقطار العربية الى جانب بقايا انماط المراحل السابقة . وأن كل بنية من بنيات الاسر المذكورة تظهر كمتحد متماسك ، متجانس ومتناسق من التصرفات والاتجاهات والعلاقات .
وليس في طيات أية بنية منها ما ينقض او ينفي او يلغي البنية التالية ، بل انها تتمم احداها الاخرى . تتساند لتؤدي جميعها ، أدوارا وظائفية اجتماعية تتكامل في نهاية الامر . ان استمرارية هذه الاشكال تعني استمرارية تعبيرها عن العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع ، واستمرارية الحاجة اليها وظائفيا .
وكما كان تشكلها تلبية لمقتضيات مرحلة ما ، فان تقوض احداها يأتي كتعبير عن زوال تلك المقتضيات .

وواقع الحال ان الاسرة الواسعة المتحولة ، تتجه لتصبح البنية الاسرية الشائعة في العالم العربي . ويشمل هذا الشيوع تواجدها الواسع ، وانتشار جذورها ومفاهيمها في أوساط اجتماعية كثيرة . فهي تكتسح الطبقات الوسطى المؤهلة عمليا لتلقي التاثير ، نظرا لسرعة عطبها اقتصاديا ، ولحساسيتها الزائدة تجاه التغيرات الاجتماعية والثقافية .

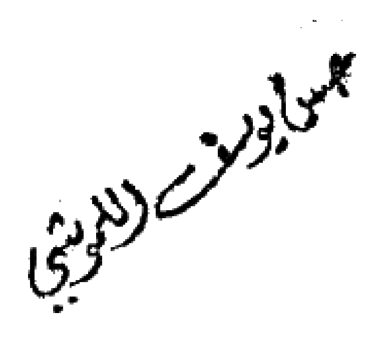
باختصار ، ان بنية الاسرة هي في تغير مستمر على وجه العموم . فلقد كانت عبر التاريخ تجسد الشروط الداخلية للمجتمع وتعبر عنها . وبهذا الواقع ، كانت تقوم ، وظائفيا ، بمهام مرحلة التطور الاجتماعي الراهنة ، تلك المهام التي لا يمكن فصلها عن طبيعة المرحلة نفسها .

واذا كان النمط الاسري هو انعكاس للظروف المادية ، والشروط الذاتية ، لقطر من الاقطار ، على المستوى الاجتماعي ، فانه يمكن القول ان تعددية اشكال التراكيب الاسرية تعبر بوضوح شديد، عن التطور غير المتساوي او المتوازن ، فيما بين هذه الاقطار من جهة ، او داخل كل قطر على حدة من جهة اخرى .
وكنتيجة لهذا الواقع ، تتواجد الاسرة الزوجية النووية ــ وهي أرقى

شكل من أشكال الاسره تحقق حتى الان — الى جانب الأسرة العشيريه — في اشكالها البدائية .

ان ظروف التنمية العربية تجعل من الظروف المادية لمناطق القطر الواحد ، ظروفا غير متجانسة . أو موحدة . الامر الذي يعكسه واقع انتشار التجهيزات الاساسية القاعدية ، وفرص التعليم والعمل . فهي تكاد تنحصر في مواضع معينة ولخدمة فئات اجتماعية محددة أو محدودة .

وينعكس عدم التجانس هذا مباشرة على أوضاع الاسرة : بنيويا واقتصاديا واجتماعيا وسياسيا . فطالما تنتشر النشاطات الاقتصادية البدائية والتقليدية في العالم العربي . وتركد جزر التخلف الاقتصادي والثقافي والاجتماعي فيه . ستبقى انماط الاسر متعددة ومتخلفة ، وفي احسن الاحوال ستسود الاسرة الواسعة المتحولة ، كنمط وسطي ، ونموذج ثقافي يتوافق مع الشروط السلفية المسيطرة على المجتمعات ، وفي نفس الوقت لا تقف عقبة أمام رياح التغيير والتطور .



## ثانيا : الوضع الاجتماعي للاسر العربية او الظاهرات السائدة في الاسرة العربية المعاصرة

يشمل هذا الباب الحديث عن التعديلات التي طرات على الظاهرات الاسرية التي سادت في الانماط السابقة للاسرة . وعن الظاهرات التي انتشرت في المرحلة الاخيرة ، ولا تزال تسعى للنفاذ الى اوسع الاوساط والاسر .

**التعديلات الحديثة الطارئة على الظاهرات الاسرية القديمة**

تحدثنا عن التغيرات التي طرات على اوضاع المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وقلنا ان من سماتها الاساسية عدم شمولها كافة الاقطار العربية ، وحتى عموم القطر الواحد . وعدم تجانس معطياتها وبالتالي تفاوت التأثير الذي تركته على أوجه الحياة والنشاطات وبروز الظاهرات الاجتماعية ، أو تعديل القديم منها .

وانطلاقا من هذا الواقع . فقد استمرت بعض المناطق والاسر محافظة على وفائها وامانتها لكافة مظاهر الاسرة التقليدية وظاهراتها . وعزز هذا الاتجاه ، استمرار الوضع المتخلف لهذه المناطق على حاله لان آثار التنمية لم تطله . ويمكن تحديد المناطق الداخلية والصحراوية كأبرز موطن للاتجاه المحافظ .

أما في القرى والمدن الريفية ، فقد بدات تظهر ملامح جديدة لم تكن معهودة في الاسرة ، غير انها لم تخرج عن الخط العام التقليدي . وجملة ما نفذته هو اجراء تجديد خارجي في الواجهة التي يطل منها على الآخرين . والاسرة الواسعة المتحولة وعاء لهذه التحولات المستجدة .

فالزواج استمر تزويجا مع تعديل في الجهة التي أصبحت تلعب الدور الرئيسي في اختيار القرين . لقد فقدت الام ونساء الاسرة وربها هذا الدور ليمنح الى الاصدقاء والزملاء وزوجاتهم ، أو الى بعض المقربين من الاقرباء .

واصبح الاختيار حقا للجيل الذي يسعى للزواج . ولكن قلة الاختلاط بين الجنسين ما زالت تعيق الشبان والشابات عن اجراء اختيار حر شخصي مقرون بالمعرفة العميقة للقرين المختار . ويلجأ المتزوجون من معارف الشاب الباحث عن زوجة ، الى تدبير لقاء سريع بين من يتوسمون فيهم الانسجام او التوافق ، من الجنسين ، لتسهيل تحقيق تعارف الشبان والشابات قبل الزواج . واثناء اللقاءات التي تجري غالبا في منازل الاصدقاء ، وتحت رقابتهم ورعايتهم ، يحاول كل طرف اكتشاف الآخر ودراسته عن قرب . لكنها كثيرا ما تؤدي الى نتائج سطحية نظرا لعدم تزودها بالادوات اللازمة ، وحصول التفاعل في ظل اجواء اصطناعية ، يبرز كل طرف اثناءها افضل ما عنده من الصفات والمزايا .

ان هذا الزواج المدبر ، لا يخرج عن كونه تزويجا . فالاصدقاء بمشاركة زوجاتهم ، هم الذين يتولون توجيه الاختيار الفعلي ، فيرث الصديق دور الاب ، وزوجته دور أم الشاب . وتبقى ناحية ايجابية وتحول حقيقي وهو ان الشاب والشابة يشعران انهما هما اللذان يقرران مصيرهما . ويستطيعان عمليا قبول او رفض الفرصة المطروحة ، دون ان تترتب عليهما اية نتائج اجتماعية سلبية . ولا نستطيع النظر الى الزيجات المعقودة عن هذا الطريق الى انها زيجات عاطفية او ان اساسها الحب ، لان السرعة التي تتم بها الخطوات اللاحقة ، لا تكفي لتفتح العواطف وتفجرها ، او لولادة حب حقيقي يتعدى التعلق بالمظاهر الخارجية والحسية .

واستتبع حصول الموافقة المبدئية بين الطرفين ، تقلص في المساومات التي كانت تجري عادة على هامش الخطبة حول قيمة المهر الذي سيدفعه الزوج من ناحية ، والادوات والاغراض واللوازم التي ستنقلها الزوجة معها الى البيت الزوجي من ناحية ثانية . تلك المساومة كانت تجسيدا لمفهوم الزواج التقليدي بأنه صفقة تبادلية تتم بين طرفين ، يجب ان يسعى كل طرف فيها ، الى ان يحصل على أكبر قدر من المنافع .

ونسجل ، انه في كل الحالات ، سواء تم التعارف بشكل مباشر او مدبر ، يصر الباحثون على قرين يتصف ببعض الصفات وتتوفر عنده بعض الشروط الذاتية . ويوحي هذا الالحاح بتحول اجتماعي في النظر الى الزواج ، على انه شأن شخصي ، ولو لم يتكرس فيه نهائيا هذا الاعتبار .

أما الطاعة العمياء فقد تحولت الى طاعة شكلية بعد ان فقدت اسبابها المادية . واصبحت طاعة الاب مرتبطة بنوعية الفروض المتفرعة عنها . فاذا كانت مما يرضاه الابن مسبقا التزم بطاعة والده والا يظهر تملصا وتهربا منها . وفي الحالة الاولى ، ينطلق الابن من مقتضيات معنوية يحتفظ لوالده بسببها بهامش من الاعتبار والتقدير المعنويين . ويبرر الحالة الثانية بأنه يرفض ان يبقى أسير نظرة الاهل التي تشد الى الماضي عوضا عن ان تدفع الى المستقبل .

واستتبع زوال السلطة الابوية المطلقة تحلل بل تقويض لاسس السلمية الاسرية ، واصبح جميع أفراد الاسرة من الجنس الواحد متساوين فيما بينهم .

فالتفاوت في النظرة الى الذكر والانثى، ما برح يسود في معظم أوساط الاسر. ويفهم ذلك على ضوء دخول الرجال في ميادين العمل وتأمينهم مدخولا اضافيا للاسرة ، الامر الذي وطّد استقلاليتهم وعزز التقدير الاجتماعي لهم ، بينما لا يزال القسم الاكبر من النساء العربيات يعشن عالة على عاتق الرجال ، لعدم فتح مجالات العمل امامهن ، فعجزن بالتالي عن كسب مساواتهن بالرجال . وتشذ عن هذه القاعدة ، النساء اللواتي انخرطن في النشاط المهني ، وحصلن معيشتهن بأنفسهن . ورغم ذلك فلا زلن يناضلن لتحقيق المساواة المنشودة .

لقد فقدت الحماسة للذكورة حدتها ، وخفت غلواء الباحثين عنها ولكنها لم تنته كلية . وكمتمم لها فقدت الغضبة على الانثى من قوتها ، وتضاءلت هجمة مهاجميها الا انها لم تصبح مقبولة كليا . وكلا التحولين يؤدي الى التقليل من التفاوت الموجود في النظر الى كليهما . وغني عن الاشارة الى ان التحولات الاجتماعية فتحت مجال العمل امام النساء وأثبتت أنهن كالرجال يمكن ان يكن نافعات . وقوّت هذه القناعة النتائج الايجابية والسريعة التي أعطتها تجارب عمل المرأة في المصانع ، وكذلك بروزها في مجالات العلم والتخصص ، وحيث منحت فرصة للتدليل على كفاءتها .

وفي ظل الظروف الجديدة ، خفت القيود المفروضة على المرأة من حيث حجبها والتعتيم عليها . ولكنها ما برحت مخلوقا له دنياه الخاصة ، وما زالت الحواجز مرتفعة بينه وبين المخلوق الآخر : الرجل . فاذا سقط الحجاب عن بعض الوجوه ، فان البرقع ما زال نافذة كثيرات من العربيات على العالم . واذا أصبحت المرأة تخرج حاليا من منزلها ، فان الملاءة لا تزال تحجبها عن العالم الخارجي في كثير من الاقطار العربية . ورغم انه سمح لها بنيل قسط من التعليم ، فلا زالت تمنع من ممارسة العمل والاحتكاك بالآخرين والانخراط في التجربة والحياة الاجتماعيتين .

وحتى حين تعمل وتكتسب خبرة فان صوتها لا يصل الى آذان الآخرين أو اذهانهم حتى الآن . فالثقة بها ضعيفة وأمامها وقت طويل للالحاح والمثابرة والنضال ، كي يؤخذ برأيها .

أما ما طرأ من تعديل على ظاهرة الزوجات ، فهو لا يصيب المبدأ بقدر ما يصيب تطبيقاته . لقد استمرت الظاهرة مع استمرار اباحة التعدد . لكن التحولات فرضت قيودا على بعض الاسباب التي تبيحها . كما أصبح القبول بالتعدد صعبا اذا لم يكن وراءه سبب « مقنع » اجتماعيا . والعقم والرغبة في الانجاب وحدهما السبب المبرر . أما بقية الاسباب فقد سقطت شرعيتها في نظر العامة . حتى ان كثيرات من الشابات يرفضن عروضا للزواج من اثرياء، حين يعرفن انهن يدخلن على زوجة لا تزال في عصمة زوجها . فلم تعد القدرة المالية ، وفقر اسرة الزوجة ، ومزاجية الزوج أو ميوله ورغباته تحدد نسبة انتشار تعدد الزوجات .

ان نتائج هذه التعديلات تؤكد على انها لا تصيب سوى القشرة الخارجية للاسرة ، وانها ما زالت عاجزة عن النفاذ الى أعماق المفاهيم السلفية للزواج

والاسرة والعلاقات الزوجية .

اما بالنسبة الى قضية الجنس والاسرة او العلاقات الجنسية الزوجية فقد طرا عليها تطور ملحوظ بعد ان كانت ميدانا لفروسية الرجل وحده .

لم يعد الجنس حقا مشروعا احادي الجانب ممنوحا للزوج فقط ، بل اصبحت المراة تجاهر بطلب حقها في هذا الميدان . ونستدل على تلك التحولات من خلال ملاحقة بسيطة للدعاوى المرفوعة أمام المحاكم المختصة بالنظر في قضايا العلاقات الزوجية في الاقطار العربية . ان الاسباب التي يذكرها المدعي – وهو غالبا الزوجة – لتبرير ادعائه ، ان في الطلب المقدم الى قلم المحكمة ، او في الافادات المدونة في سجلاتها ، او في اللوائح القانونية المتبادلة اثناءها، تتضمن الاسباب الجنسية . ومن بين هذه الاسباب التي تيسر لنا الاطلاع عليها ، عدم التوافق الجنسي بين الزوجين ، عدم اشباع الرغبة الجنسية لاحد الزوجين ، الضعف الجنسي ، البرودة الجنسية ، الانحراف الجنسي ، المرض الجنسي ...

تعكس هذه اللائحة من الاسباب الاهتمام المتزايد الذي تمنحه ، الزوجة خصوصا ، لقضية العلاقات الجنسية في اطار الزواج . لقد كانت الزوجة تقضي حياتها دون ان ترفع صوتا يكشف معاناتها الجنسية ، او عدم حصولها على ما يبيحه لها الزواج شرعا ، فتسكت خوفا ، او خشية الفضيحة او القمع الرجالي . واصبحت اليوم ، اكثر جراة في المطالبة بحقوقها الجنسية ، وفي تحدي الرجل وتهديد « كبريائه الجنسي » .

ورغم ان هذه المطالبة لم تعم كل اوساط النساء وفئاتها ، ولم تخرج عن اطار الزواج والعلاقات الجنسية المشروعة ، فاننا نرى فيها مؤشرا رئيسيا من مؤشرات التحول في طبيعة العلاقات الزوجية . لقد اصبح الزوجان اكثر وعيا لحاجاتهما الحقيقية ، واقل ميلا لطمسها وقمعها وتمويهها ، حتى ولو كانت طبيعتها تثير لغطا ، أو تعتبر اثارتها من الممنوعات الاجتماعية . وفي هذا كله دليل آخر على التطور الجوهري الذي اصاب الزواج ، فتحول من شأن اسري او فئوي او طبقي ، ليصبح شأنا فرديا وخصوصيا قبل كل شيء ليتأثر بعدها بالعوامل الاخرى .

كما ظهرت الى العلن كتابات ومعالجات ذات طابع اجتماعي ، توجهت الى الرأي العام وعالجت موضوع الحياة الجنسية للزوجة العربية (١) على وجه

---

(١) يوسف المصري ، المأساة الجنسية للمراة في الشرق العربي ، روبير لافون ، باريس ، ١٩٦٢ ( بالفرنسية ) .

د. سلوى الخماش ، المراة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف ، مكتبة العالم الثالث ، دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٣ .

د. نوال السعداوي، المراة والجنس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٢.

د. نوال السعداوي ، الانثى هي الاصل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٤ .

الخصوص ، وجاهرت بالمناداة والمطالبة بالحقوق الجنسية المشروعة للمراة ، ومساواتها التامة مع الرجل في هذا الميدان . ولم تكن هذه الادبيات لتنشر ، وتستقبل بالترحيب ، وتلقى اهتمام القطاع الواسع من النساء ، لو لم يكن طرحها يعكس الاهمية المتزايدة التي تحيطه بها ، والقلق الذي ينتابها بسبب شروط حياتها الجنسية .

تحدثنا سابقا بكثير من التفصيل عن ارتهان الحياة الاجتماعية للاسرة وتعلقها بالاوهام ، والخرافات والاساطير . واعدنا سبب ذلك الى طبيعة الذهنية العربية عموما وانغماسها في الجهل وتأثرها بالظروف المادية المحيطة بها .

لقد انتشر العلم ، رغم انه لم يصب كافة الفئات الاجتماعية ، ولم يحدث التطوير المنشود في الذهنية العربية ، الا انه بدا يساهم عن طريق الفئات المتنورة من المجتمع ، بادخال ونسج نماذج جديدة من العلاقات بين الزوجين تتألف من مزيج من الاحترام والاعتراف بالمساواة وتخالطها آثار من العلاقات القديمة التقليدية .

نقول ان الاسرة العربية لم تتخلص من كافة قيودها السلفية ، الا انها تمكنت من احداث خلل فيها ادى الى خلخلتها وليس الى زوالها . والعادات الجديدة تسري وتنتشر عن طريق العدوى الاجتماعية لا عن طريق الاقتناع والتطور .

وحتى تزول اسباب تخلف الذهنية العربية ، ستبقى الاسرة العربية ميدانا لبروز الظاهرات المتناقضة فيما بينها ، غير المنسجمة من ناحية مضمونها وعناصر تشكلها . فلا زالت منتشرة ظاهرات الاعتقاد بالحسد وصيبة العين ، وتأثير الكائنات غير المرئية ، في معظم البنيات الاسرية حتى في أوساط المتعلمين من افرادها .

وتقود الفقرات السابقة الى الكشف عن تحول بسيط اصاب السلوك والتصرفات المتبعة في الاسرة . فلم يعد الطوق محكما حولها ، ولا على عناصرها . لقد غادر الناس مواقعها الضيقة التقليدية ، وبدأوا البحث عن تكيف اجتماعي جديد في ظل الاوضاع المستجدة . ولم يعد الثبات السلوكي يملي عليهم تصرفاتهم ، بل دفعتهم مصالحهم الى تغيير مواقفهم .

ولعل البرفسور جاك بيرك يكشف عن الدور الجديد الذي يلعبه الدين في حياة المسلمين والاسر ، بعد كل ما اصاب المجتمعات العربية من تحولات أثرت على طبيعة الولاء الديني وعلى درجة الالتزام بصورة التصرفات والسلوك التي رسمها للمؤمنين به والزمهم بتكرارها . يقول بيرك : « التجأ الدين الى الضمائر والافئدة ، ليلعب دور حارس ليلي » (١). اي انه اصبح عينا ساهرة ، يسعى بعضهم جاهدين ، لتجنب رقابته ،

---

(١) جاك بيرك ، القواعد والقيم في الاسلام المعاصر ، نشره ج. شارنيه ، دار بايوه ، باريس ١٩٦٦ ، ص ٧ .

والتصرف على هواهم دون رادع او تأثر برقيب . فلم يعد ينبع من ذواتهم ، وحيل بينهم وبين التعبير بعفوية عن صورة التكف الجديدة مع الشروط الجديدة للحياة .

ويجب ان نميز بهذا الصدد بين مغادرة المواقع التقليدية فيما خص بانماط الحياة ، والعادات وبعض التقاليد ( اقامة الموالد النبوية ، اقتفاء آثار النبي والصحابة في سلوكهم وحياتهم ، التمسك ببعض الشعائر ) وبين الثبات الاعتقادي على تقليد السلف فيما ذهبوا اليه ( الايمان بوجود الكائنات غير المرئية ، اعطاء التفسيرات نفسها لبعض مظاهر الحياة ، عدم تجديد التعاليم الدينيه ، مقاومة تجديد التفسير لبعض الظاهرات الدينية ) . وبتعبير آخر طرا تحول على السلوك التقليدي العملي فتم تركه واهماله ، بينما استمر التمسك بالسلوك التقليدي الاعتقادي فتعزز .

ويكشف هذا الواقع عن الانفصال التام بين الناحيتين الاعتقادية والمسلكية في حياة المواطن العربي .

## الظاهرات الاسرية الجديدة

### تأخر السن عند الزواج

ان الظاهرة البارزة على صعيد الزواج في الاقطار العربية اليوم ، هي تأخر الشباب من الجنسين في الاقدام على الزواج . ففي القاهرة يبلغ معدل سن الشاب عند الزواج (٢٩) سنة و(١٩٠٦) سنة بالنسبة للفتاة (١) . اما في دمشق فان ( ٤٠ ٪ ) من الرجال يتزوجون قبل بلوغهم الثلاثين و( ٤٥ ٪ ) من النساء يتزوجن في نفس السن (٢) ، في حين يتراجع معدل العمر عند الزواج الى ( ٣١ ) سنة بالنسبة للبيروتي ، و( ٢٢،٥ ) سنة للفتاة البيروتيه (٣) .

### ضبط النسل ومعدل الولادات

لقد بدا حجم الاسرة يهبط عدديا بالنسبة الى ما بلغه سابقا ، بعد ان تم التأثير على معدل الولادات بطريقة او باخرى . ففي دمشق تبلغ نسبة معدل الولادات (٤١،٣) بالالف ، وترتفع الى (٤٣،٣) لكل الف من السكان

---

(١) اميرة بسيوني ، الاسرة المصرية ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٤٣–٤٥
(٢) د. صفوح خير ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٦٩ ، الجدول رقم ١٨ ، ص ٢٣٠ .
(٣) المؤلف ، سبق ذكره ، ص ١٤٨ .

في القاهرة (١) . وتهبط الى (٣٥،٢) لكل الف من سكان بيروت (٢) .
وانعكس هبوط هذه النسب على حجم الاسرة فأصبحت تضم (٧ـ٨) ابناء في القاهرة ، (٥ـ٦) ابناء في دمشق ، (٣ـ٤) ابناء في بيروت .

## تقهقر الزواج المتعدد

ان نسبة ( ٧،٨٪ ) من عقود الزواج المعقودة في القاهرة كل عام ، هي زواج ثان (٣) . ويبلغ عدد الازواج المصريين المتزوجين من اثنتين حسب احصاء (١٩٦٠) : (١٦٧) الفا ، وحسب دراسة حديثة (٢٤،٢٪) من عموم الازواج (٤) .
اما نسبة الزواج الثاني في دمشق فلا تتعدى ( ١٪ ) من الزيجات المعقودة سنويا ، و( ٢،٥٪ ) من المتزوجين السوريين هم ثنائيو الزواج (٥). وفي بيروت تكاد لا تذكر نسبة الزواج المتكرر .
وعلى العموم ، يسجل اتجاه تقهقري بالنسبة لظاهرة تعدد الزواج ، فبعد ان كانت سارية ، وقاعدة متبعة في كل الاوساط الاجتماعية العربية ، تتراجع حتى تكاد تنمحي في لبنان .

## ظهور الزيجات المبنية على الحب المتبادل

رغم « ان الشاب او الشابة المصرية لا يقدمان على الزواج الا بعد موافقة والديهما في كثير من الاحيان ، ويضحيان بحبهما او باختيارهما في سبيل ارضائهم ، وحتى لا يخرجا على طاعتهم » (٦) ، فان نسبة تبلغ (٢٦٪) من الزيجات بنيت على اساس الاختيار الشخصي المباشر ، وكان من بينها ( ٢٠٪ ) من الحالات تم فيها الزواج على قاعدة من الحب المتبادل (٧) . واضح من هذه النسب ان دور الاهل ، هو دور شكلي لا يتعدى الموافقة اللفظية ، او « مباركة » اختيار الابناء .
يمهد تعارف الجنسين ، في الجامعات ومراكز العمل ، لفرص تبادل الاعجاب والعواطف . وعديدة هي الحالات التي انتهت بالتفاهم والاتفاق على الزواج ، سواء كان ذلك في دمشق او في بيروت . اذ تتكاثر الزيجات المبنية

---

(١) د. صفوح خير ، سبق ذكره ، ص ٢٢٢ .
ـ الاحصاءات السنوية ، الجهاز المركزي للاحصاءات ، القاهرة ١٩٦٩ .
(٢) المؤلف ، سبق ذكره ، ص ١٤٨ .
(٣) اميرة بسيوني ، سبق ذكره ، ص ٤٦ .
(٤) د. صلاح الدين عبد المتعال ، أثر التغيير الاجتماعي في بناء الاسرة المصرية ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٧٨ .
(٥) د. صفوح خير ، سبق ذكره ، ص ٢٣٠ .
(٦) سناء الخولي ، التغيير الاجتماعي والتكنولوجي واثره في الاسرة المصرية بنائيا ووظائفيا ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٢٩٢ .
(٧) نفس المصدر ، ص ٤٨٠ ، جدول رقم ١٨ .

على الحب وانسجام الاذواق وتوحد الارادتين وتنتشر خصوصا في اوساط الطبقات الوسطى المثقفة (١) . وقد يسبق هذا الزواج الخروج المشترك ببعض النزهات والمعاشرة قبل الخطبة . ويتم ذلك كله بسرية تامة . اما اهل الشابين فيقتصر دورهم على الالتقاء ، وتبادل المجاملات . وقد لا يتم في الزيارة اي اعلان مباشر عن غايتهما ، بل يعمد الشاب والشابة الى تبادل بعض الهدايا بحضور اقربائهما ، للتدليل على خطبتهما . فيتحول بذلك حضور الاهل الى مجرد اجراء او خطوات شكلية ليس الا .

### الزوجة العاملة

كان ينظر الى خروج المرأة من بيتها نظرة استغراب وعدم ارتياح ، مهما كانت الاسباب . فتشدد الازواج في منعها من ذلك والحوا عليها وجوب طلب موافقتهم ، وابلاغهم المسبق عن نيتها كلما ارادت مغادرة المسكن الزوجي . كان الزوج يوافق او لا يوافق على ذلك الطلب . اما اليوم ، وبعد ان اشتدت الضغوط الاقتصادية على الاسرة ، اضطر الازواج الى الموافقة ، ليس على مغادرتها المنزل الى السوق لتشتري بعض الحاجات ، وانما الى المصنع او المكتب او الوزارة ، لتمضي فيه بضع ساعات ، تقوم خلالها بعمل مهني او نشاط صناعي او غيره .

هكذا نصادف (٢٤،٤٪) من الزوجات يمارسن في القاهرة عملا خارج منازلهن (٢) . اما في دمشق فلا تبلغ هذه النسبة اكثر من ( ١٥٪ ) من الزوجات . وبالنسبة لبيروت ، ترتفع نسبة الزوجات العاملات الى اكثر من (٣٥٪) من مجموع المتزوجات . وبحساب آخر تبلغ نسبة الزوجات العاملات الى مجموع عدد النساء في بلادهن : (٦،٧٪) (٣) و(٨،٠٨) (٤) و(٢١،٦٪) (٥) في دمشق والقاهرة وبيروت على التوالي .

وزاد هذا التطور من سوء اوضاع الزوجة على وجه العموم . فرغم انها اصبحت تشارك في تأمين مدخول الاسرة الا انها لا تشارك الزوج في نشاطاته الاجتماعية خارج المنزل . فاثناء وقت الفراغ ، ما زال الازواج يعمدون الى ترك زوجاتهم يقمن بالاعمال المنزلية ، ويخرجون بمفردهم لزيارة الاصدقاء ، او التنقل بين المطاعم والمقاهي ، والزوجات محرومات من كل ذلك ، يقمن بمفردهن بالاعباء المنزلية اضافة الى قيامهن بالعمل المهني . ولا تستثنى من هذا التصرف الا نسبة ضئيلة من الازواج

---

(١) المؤلف ، سبق ذكره ، ص ١٦٠ .
(٢) سناء الخولي ، سبق ذكره ، جدول ٩ ، ص ٤٧١ .
(٣) د. صفوح خير ، دمشق ، سبق ذكره ، ص ٢٦٧ .
(٤) د. عبد العزيز رفاعي ، التطور الاجتماعي للشباب المصري ، وزارة الشباب ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٢٧٨ .
(٥) مديرية الاحصاء المركزي ، القوى العاملة في لبنان ، ١٩٧١ ، ص ١٢٠ .

المصريين (١) .

اما نتائج ملاحظاتنا عن الوضع في بيروت ودمشق فتجعلنا نعتقد ان عمل الزوجة مضافا الى تعلمها وثقافتها كانا سببين مباشرين لتكتشف بواسطتهما قدراتها وذاتها وشخصها . واصبح يلاحظ عندها شعور عميق بالاستقلالية ، وحساسية مرهفة تجاه كل ما من شأنه ان يخدش هذا الشعور . فتقوضت عمليا اسس الطاعة المفروضة عليها لزوجها ، الا ان هذا الاخير لم يتنازل عن سلطته عليها . لذلك تنشأ من حين الى آخر نزاعات بفعل تصادم النظريتين، وينمو صراع صامت في الاعماق ، ونتيجة لكل هذه التحولات التي تطرأ على طبيعة العلاقة بين الزوجين وما يرافقها من نزاعات وبروز المتاعب الزوجية ، يخيل الى عامة الشعب ، ان ممارسة الزوجة للعمل هي سبب الاشكالات الجديدة ، فيقفون تجاهه موقفا عدائيا . والواقع ان العمل قد طور شخصية المرأة ، وجعلها تكتشف نفسها ، وتشعر بانها انسان منتج ومفيد ، وانها تستطيع ان تجابه الحياة ، ولو اضطرت الى الوقوف بمفردها . فاكتسبت الجرأة لان تقول لا ، وان تخرج على وجهات النظر التي لا تتفق معها .

فالعمل بحد ذاته اصبح عاملا يفجر التناقضات والصراعات الكامنة والموجودة اصلا بين الزوجين . فمن الخطأ مواجهة عمل الزوجة واعتباره اصل المشكلة الزوجية . فالتصدي يجب ان يتجه نحو عناصر التفاوت التي تقوم عليها شخصية كل من الزوجين ، ففيها يكمن سبب الصراع . فبالتقريب بينها، وتذويبها ، او العمل على تكاملها وتدامجها او بتفهمها في اصعب الحالات ، تزول تلك الاسباب وتختفي الى الابد مظاهر النزاع .

## تعديلات على اشكال انحلال الزوجية

يعتبر انحلال الزوجية من الظاهرات الحديثة في الاسرة العربية . ولكن هناك عدة تحولات طرأت على هامشها . وقبل التحدث عنها لا بد من ايراد بعض الارقام : ان نسبة الطلاق في القاهرة هي ( ٥ حالات بين كل الف من السكان ) . وتهبط هذه النسبة الى النصف ( ٢،٥٪ ) اذا حسبت بالنسبة لمصر كلها (٢) وهي اعلى نسبة طلاق في العالم (٣) . واذا حسبنا نسبة الطلاق الى الزيجات السنوية نجد بانها تساوي ( ٢٣–٢٧٪ ) من اصلها . اما في دمشق فتبلغ ( ١،٠٢ حالة طلاق بين كل الف من سكان هذه المدينة ) (٤) و( ٠،٧ )بالالف من سكان سورية بأجمعها . اي انها تصل الى ( ١٨٪ ) من الزيجات المعقودة (٥) . وفي بيروت يسجل الطلاق نسبته الدنيا ، اذ يبلغ :

(١) سناء الخولي ، سبق ذكره ، ص ٣٠٧ .

(٢) اميرة بسيوني ، سبق ذكره ، ص ٦٦ و١٠٨ ، جدول رقم ١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٨ و١٠٨ ، جدول رقم ١ .

(٤) د. صفوح خير ، دمشق ، جدول رقم ١٥ ، ص ٢٢٦ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

( ٦٣.٠ بالالف اذا حسبت نسبته الى مجموع السكان ) . و(١٠٦) بالالف اذا حسبت نسبته الى المسلمين فقط و( ١٤٪ ) اذا حسبت النسبة الى مجموع عقود الزواج السنوية (١) .

ان التغيرات التي حصلت لا تطال مبدأ الطلاق نفسه . فالنسب الواردة اعلاه تؤكد ان هذه الظاهرة مستمرة ومنتشرة في الاقطار العربية كافة بصورة متفاوتة .

اما الجديد فهو بروز ثلاث ظاهرات فرعية تتعلق بانحلال الزوجية هي :

أ ـ ان نسبة كبيرة من حالات الطلاق او المخالعات تتم قبل الدخول الشرعي . او الزواج الفعلي .

ب ـ ان اكثرية حالات حل الزوجية تتم عن طريق المخالعات والابراء .

ج ـ اصبح حل الزواج ظاهرة نسائية .

ويحصل حاليا . ان ينهي الطرفان علاقتهما . قبل ان يباشرا فعلا بالزواج . اذ يكتشف احدهما اثناء فترة الخطبة وبعد عقد القران . انه لا ينسجم مع الطرف الاخر . ومما لا شك فيه ان هذه الظاهرة هي ظاهرة صحية . فمن المستحسن ان يفشل مشروع الزواج قبل ان يبدأ من ان يفشل بعد ان يخصب ويثمر اولادا . فتتسع دائرة نتائجه السلبية . خصوصا تلك المتعلقة بانعكاساته على الاطفال . ففترة التعارف والخطبة اما ان تقرب او ان تنفر الزوجين . وتبرز حاليا عادات جديدة . تبيح للشبان التعارف . حتى قبل الخطبة العلنية . فاذا ما ظهرت بوادر النجاح لهذا المشروع والزواج اعلن . والا صرف الاثنان النظر عنه . دون ان يثيرا بعقده ثم بحله الاقاويل والجدل حول الاسباب التي دفعته الى هذه النهاية .

وبالنسبة للتحول الثاني هناك ما يقارب ( ٧٠٪ ) من حالات حل الزوجية بطريقة المخالعات والابراء . اكان ذلك قبل الدخول او بعده . مع وجود الابناء او من دونهم . فالواقع يشير الى ان الزوجين يتفقان على وضع نهاية لزواجهما . دون التقيد بالعقد السابق . لجهة الحقوق والالتزامات المادية المترتبة عليه من مهر او بقية النفقات . وحل الزوجية على هذه الصورة يعني انهاء الزواج على حساب الزوجة ، بتنازلها عن قيمة المهر المؤجل الذي يتوجب لها على الزوج . وفي السابق كان الحل لا يأتي الا عن طريق الرجل نظرا لحيازته حق الطلاق وحصره به . والزامه بدفع كامل قيمة المهر المذكور .

فبعد ان تكرس الاتجاه لابرائه من الاعباء المترتبة على حل عقدة الزوجية . اصبح يتساهل مع الزوجة ويشركها في تقرير وضع حد للزواج ، فيأتي كنتيجة لقرار مشترك يتحمل الطرفان مسؤولياته .

اما عن نقطة التحول الاخيرة ، فهي ان غالبية طلبات التفريق المقدمة الى المحاكم ، وكذلك المخالعات والابراءات ، وحتى حالات الطلاق ، تتم بمبادرة

---

(١) المؤلف ، المصدر المذكور سابقا ، ص ١٧٠ .

اساسية من جانب المراة (١) .

لذلك يعتبر بعض الدارسين ان الطلاق قد اصبح ظاهرة نسوية . وان مصير الزواج واستمراره هو في الواقع بيد الزوجات .

## ظاهرة الزواج المختلط

تتسع يوما اثر يوم الدائرة التي يمكن للشاب ان يبحث ضمنها عن قرين. فالتغيرات الاجتماعية ــ الاقتصادية التي طرأت على اسس المجتمع جعلت من المستحيل الابقاء على عادة الزواج من الاقارب الادنين ، والانغلاق على الذات ضمن الدائرة العائلية وحدها . فالانفتاح الاقتصادي ، واتساع السوق البضاعيه النقدية . وشمولها ، وضربها للحواجز داخل المجتمع ، ادت الى توحيد ذلك المجتمع والى نشوء علاقات تتجاوز الاطر الاجتماعية ــ الاقتصاديه السابقة .

وكان من نتيجة هذا الانفتاح . وتوسع دائرة التبادل التجاري والاقتصادي . ان قوضت اسس عادة الزواج من الاقارب . فحيث تم هذا التحول على الصعيد الاقتصادي انعكس على وضع الاسرة ، واصبح بمقدور الشاب ان يختار زوجة من خارج عائلته ، اي لا تربطه بها اية روابط للقرابة قائمة على صلات الدم . بينما « استمر حصر الاختيار للزواج من ضمن العائلة نفسها في الاوساط المحافظة ، ذات التكوين العشائري غالبا . ومما لا شك فيه . ان عمليات التغيير الاجتماعيه الجارية الان ، ستذيب الكيانات العشائرية وستؤثر على هذه الظاهرة حتما » (٢) .

واولى خطوات الاختيار خارج نطاق العائلة اتجهت نحو الاسر التي تجاور اسره الشاب في السكن . حيث حوفظ في هذه المرحلة على شرط تجانس انتماء الاسرتين الى طائفة واحدة . فالشاب المنتمي الى الطائفة السنية كان مضطرا لاختيار قرينة سنية ، والشيعي من الشيعيات ... وهكذا . فالاختلافات المذهبية والاعتقادية والفقهية بقيت حاجزا اجتماعيا صلبا اعاق حصول اختيارات زيجية من بين الطوائف دون تميز . وبدأت مرحلة جديدة ، اثر توطد التغيرات في الاوساط الاجتماعية واصابتها للطبقات الوسطى في الخمسينيات ، فشهدت تلك السنوات موجة تزاوج بين السنة والشيعة ، في الاقطار العربية ، خصوصا في تلك التي تتساوى فيها الطائفتان المذكورتان

---

(١) تقدمت الزوجات في لبنان بما نسبته ٨٤ بالمئة من دعاوى التفريق ، و٧٥ بالمئة من دعاوى المخالعة والابراء ، و٣٠ بالمئة من حالات الطلاق لتثبيت وقوعه . وبلغ المعدل الوسطي العام لجميع الحالات ٧٥،٥ بالمئة .

ــ المؤلف : ظاهرة الطلاق في المجتمع الاسلامي ، من خلال الدعاوى المرفوعة امام المحكمة الشرعية في بيروت ، مركز الابحاث في معهد العلوم الاجتماعية ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٤٢ .

(٢) الشيخ محمد مهدي شمس الدين ، نظرة الاسلام الى الاسرة في مجتمع متطور ، في كتاب : الاسلام وتنظيم الاسرة ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٣ .

عدديا . واستمرت بقية الاقطار لتحافظ على مبدا الزواج بين افراد الطائفة نفسها .

وحيث تعمقت تلك التغيرات الاجتماعية . وترسخت تلــك التحولات الاقتصادية بعد ان رفعت نهائيا العوائق ذات الطابع الاقتصادي عن السوق النقدي الموحد للمجتمع . فان تطورا جديدا أصاب العادات المتعلقة بالزواج . متجاوز الاختيار نطاق الطوائف الاخرى المتفرعة عــن الدين نفسه ، ليطال افرادا ينتمون الى طوائف تنتمي الى اديان اخرى . كالمسيحية واليهودية . فبرزت ظاهرات الزواج المختلط (١) متحدية كافة اشكال الضغوط الاجتماعية، ومتجاوزة اثار المقاطعة العائلية التي اثارتها . وما لبثت الموجة الاحتجاجية ان خفتت فتشجع آخرون للسير على الطريق نفسه .

وتلقت ظاهرة الزواج المختلط المحلي دعما تعزيزيا خارجيا بعد ان شاعت في العقود الاخيرة . عادة الزواج من اجنبيات . خصوصا في اوساط المثقفين الذين تلقوا علومهم في اوروبا واميركا .

ورافقت هذه الظاهرة بعض النتائج السلبية على الصعيــد الاجتماعي . فنتيجة لمظاهر التخلف البادية في مختلف أوجه الحياة في وطن الزوج المنتمي الى أحد الاقطار العربية ، يندفع الى الالتصاق بالمفاهيم الغربيــة للحيــاة ، ويبتعد عن العادات والقيم ونمط العلاقات الاجتماعية المحلية . وقد أدى هذا الوضع بكثيرين الى احد أمرين : أما الى ان يغادروا بلادهم الى بلاد زوجاتهم ، واما ان تغادرهم زوجاتهم عائدات الى بلادهن . هــــذا التخبط في الانتماء . المطبوع بعدم الاستقرار وعدم اتخاذ نموذج ثقافي موحد ومعين كمرجع سلوكي، انعكس على الاطفال فنشاوا غالبا وينشاون من دون ان يشعروا بأي شعــور ديني محدد أو أي انتماء وطني مميز .

## فكــرة الزواج المدني

ترافق زواج المسلمين المثقفين الذين تخصصوا في الخارج من أجنبيات غير مسلمات ، مع تيار داخلي في بعض الاقطار العربية ( لبنان وتونس ) يدعو الى اتاحة الفرصة أمام الذين لا يؤمنون بدين معين كي يتزوجوا زواجا مدنيــا امام السلطات المحلية ، ودون تدخل رجال الدين ، كما يدعو الى اقامة مجتمع متجانس غير طائفي ، ينصهر فيه المواطنون عن طريق اتاحــة المجال امامهــم لتجاوز الانتماءات الطائفية ، اثناء اختيارهم لاقرانهم . وواجهت هذه الدعوات معارضة حادة ولا تزال . فرجال الدين يجدون ان الزواج المدني يتيح ويمكّن المسلمة من الزواج من غير المسلم ، الامر الذي يعتبر محظورا من وجهة النظر الاسلامية . كما يجرد عقــد الزواج الاسلامي من ألفاظــه المخصوصة التي لا

---

(١) تبلغ نسبة المتزوجين زواجا مختلطا قرابة ٨ بالمئــة مــن مجموع عقود الزيجات المعقودة سنة ١٩٦٨ في بيروت .

ــ المؤلف ، ظاهرة الطلاق في المجتمع الاسلامي ، ص ١٦٠ .

يكتسب العقد صفته الشرعية من دونها (١) .

والواقع ان اقرار الزواج المدني يحدث تغيرات جذرية في توزع السلطات في الاقطار العربية . فسلطة رجال الدين فيها ، لا تزال تحافظ على زخمها وحيويتها ، بسبب امساكهم بسلطة التقرير والبت والنظر في قضايا الاحوال الشخصية للمواطنين . فاذا ما أقر مبدأ الزواج المدني فانها ستؤول حتما ، أو قسم كبير منها ، الى السلطات المدنية الوطنية الموحدة ، ويزول جزء من هيبة رجال الدين وتقديرهم الاجتماعيين .

وكذلك يقف السياسيون معارضين لهذا المبدأ ، لمعرفتهم ان تطبيقه سيلغي العامل الطائفي ، الذي لا زال يعتبر في معظم الاقطار العربية ، محركا لعواطف الجماهير ، يمكن استغلاله سياسيا ، لتحقيق المكاسب الضيقة للسياسيين .

ومع ذلك ، يشيع الزواج المدني ، ممارسة وفكرة . اذ تشجع بعض المؤسسات (٢) على ممارسته وتعمل على نشره . كما ان بعض الاحزاب العلمانية ادرجته في مشاريعها وجعلته من بين مطاليبها وفي برامجها المرحلية، وتسعى الى نشره في أوساط الجماهير كفكرة وكمطلب .

## آفاق مستقبلية

نظر البعض الى هذا التطور والى هذه التحولات واطلق عليها حكما معياريا ، واعتبر تلك الظاهرات مؤشرات تظهر بموضوعية تفكك الاسرة وسيرها نحو عدم التكامل . بل لقد اعتبرت بعض الجماعات الايديولوجية ، ورجال الدين ان حدوث هذه التغيرات يدل على حدوث تحول اساسي في الاسرة ، وعلى تدميرها .

ويقدم جان شتوتزل وصفا لايديولوجية هذه الفئة فيقول : « ان الفكرة الشعبية عن التغير في النظام الاسري لا تنتج فقط عن اجراء مواجهة بين مثالية اخلاقية هي على درجة أو أخرى من السمو ، وواقع محزن بشكل او بآخر . انما هي تتوقف على صورة الاسرة التقليدية التي تشعر بعض النفوس بحنين شديد اليها . وتقوم هذه الصورة ، في جزء منها على الظواهر التي تكون ميثولوجية في جانب كبير منها ، بمعنى أن التراث الذي حملها الينا هو تراث منتقى بالفعل .

والمجتمع الذي تلائمه الاسرة التقليدية ونفكر فيه ، هو المجتمع البرجوازي في عصر ما قبل التصنيع او التمدين «Urbanisation» ونماذج

---

(١) الشيخ محمد مهدي شمس الدين ، سبق ذكره ، ص ٢٥ .

(٢) ان الحزب الديمقراطي العلماني في لبنان ، يمنح مساعدات مالية للراغبين في الزواج، كي يتوجهوا الى قبرص ويعقدوا فيها زواجهم امام السلطات المدنية . ويجبر هذا الواقع المحاكم المحلية والعربية عموما ، على النظر في القضايا المستجدة على علاقات الزوجين العاقدين لزواج مدني ، على ضوء نصوص القوانين المدنية وحدها .

السلوك المنمطة « Stériotypés » التي تبرز فيها هي النماذج والقيم التي لا يوجد خارجها سوى الفوضى الاخلاقيه (١) .

ولا شك ان هناك دلالات كثيرة على وجود تغييرات عميقة . وخاصة تلك التي تنم عن عدم التكامل ، بمعنى اشكال التكامل داخل الاسرة الواحدة . فبدءا من أوائل القرن التاسع عشر انعكست وضعية الارض القانونية التي طرأ عليها التحول والتعديل ، على البناء التسلطي والحجم الواسع للاسرة ، وبدأ يدب فيهـا التفكك .

ويجب ان نفهم النقلة من بنية أسرية مبنية على سلطة الاب المركزية وحدها ، الى ظهور لادوار مستقلة للابناء ولتعزيز دور الام، على انه انتقال من علاقة تبعية جميع اعضاء الاسرة للاب ، صاحب الحق الالهي بالطاعة والسلطة فيها ، الى علاقة حوار او تعاون متبادل في جو تسوده المساواة بين الافراد .

ويرى البعض ان هناك انحلالا ، ولكن عالم الاجتماع يلاحظ ان هنـاك تعديلا في طبيعة السلطة الابوية ، وظهور مضمون وبعد عاطفيين للحياة الاسرية ، وازدياد سلطة الام داخلها . وتظهر أكثر دلائل هذا التغيير وضوحا ، في الظروف المادية لحياة الاسر في المدن الكبيرة ، وبالتدريج في المناطق الريفية الآخذة في التمدين .

مما لا شك فيه ان كل تغير اجتماعي يثير دائما قلقا واسفا ، خصوصا في تلك الاوساط التي يؤمن لها استقرار الوضع واستمراره شعورا عميقا بالامان . فالتغير سيجعلها منزوعة السلاح لمواجهة الواقع ويرغمها على البحث من جديد عن نمط جديد لتكيفها الاجتماعي . ويستدعي ذلك اول ما يستدعي اعادة النظر بكافة القيم التقليدية . والنتيجة ان الانهيار لا يصيب نمط الحياة المادية فقط ، بل انه يطال رموز الماضي ، ومستودع دلالاته ، التي تستخدمها هذه الفئات لتحقيق توازناتها الحالية ، ومن هنا تكتسب الطابع المحافظ .

وينعكس هـذا الاتجاه بوضوح عـلى المستوى الاسري ، ويعبـر عـن نفسه بالاعتقاد المنتشر بصورة كاسحة بأن الاسرة يجب ان تكون نقطة مستقرة وثابتة بالضرورة في مجتمع يشهد تحولا مستمرا .

لكن ما يحصل هو العكس ، اذ تظهر كافة التحولات وكأنها تتجه لتفريـغ الاسر واحدة بعد واحدة من اسباب وجودها — منظورا اليهـا مـن زاوية تقليدية محافظة — وتبدو كأن بنيانها قد تصدع في العالم المعاصر المجـرد مـن الانسانية . ازاء هذا الوضع تبدي هذه الجماعات مخاوفها ، وينتابهـا رعب غـير مبرر .

ان هذه الاعتقادات ليست سطحية فقط ، بل مغلوطة مـن الاساس . فتعديل وظائف الاسرة ، وبروز ظاهرات جديـدة في نطاقهـا ، وتغـير بعض

---

(1) Jean Stoetzel. Les changements dans les fonctions familiales. in . Renouveau des idées sur la famille . ( éd. INED. Paris, 1954 ) .

العلاقات المتبادلة في اطارها ، بين الزوجين ، او بينهما وبين الاولاد ، أو بين احدهما والابناء ، ليس دليلا ولا مؤشرا على انهيارها وتدميرها كما يخيل الى البعض . فطالما ان القاعدة المادية للمجتمع تشهد تغيرات وتحولات مستمرة ، فان الاسرة — كوحدة اجتماعية لا يمكن عزلها عن المجتمع — ستعكس كل تلك التحولات وتتعدل بنيتها وظاهراتها كي تتمكن من اداء الوظائف الجديدة المناطة بها . وهي لن تختفي ، ولن تدمر أو تنهار بل ستكتسب باستمرار معاني جديدة ، لانها ستبقى الملاذ النهائي والوحيد للفرد من الاغتراب .

# الخاتمة

تفرض مجموعة النتائج التي أدى اليها البحث ، نفسها كحقائق : لا يمكن تجاوزها لدى أية محاولة في دراسة الاسرة العربية ، أو القضايا التي تطرح عليها ، او المشكلات التي تعاني منها .

ليست هناك أسرة عربية ، اي نمط واحد شائع في العالم العربي ، بل هناك مجموعة انماط من الاسر ، يتوافق وجودها مع المعطيات المادية والمعتقدية والاجتماعية الخاصة بظروف كل قطر عربي وحتى داخل القطر الواحد ، فلا يمكن ان نتحدث عن الاسرة المغربية ، او الاسرة اللبنانية، لان الفروقات المذكورة ما برحت عميقة وواضحة بين مناطق البلد الواحد . وعندئذ نجد الاسرة المدينية في الاردن مثلا ، جنبا الى جنب مع العشائر التي تقطن البادية فيه ، أو الاسرة الريفية الصعيدية الى جانب الاسرة القاهرية والاسكندرانية .

والواقع ، ان شكل بنية الاسرة هو الذي يفرز ويحدد أنواع المشكلات التي تعاني منها ، والقضايا الراهنة التي تواجهها . وبالتالي ، لا يمكن التعميم والقول ان الاسرة في كافة الاقطار العربية على وجه العموم ، تواجه نفس القضايا .

لقد اتضح ان الاسرة الواسعة التقليدية مثلا ، التي كانت حصيلة تطور العشيرة العربية ، لم تعرف قضية اسمها قضية المرأة ، لان مشاعر الوجود الفردي كانت ما تزال تذوب في الكل الاجتماعي الواسع المتجسد بفخذ العشيرة المتحولة بدورها الى اسرة واسعة . اما في الاسرة الواسعة المتحولة ، التي اقتضتها ظروف بعض المناطق ، نتيجة للوظائف الجديدة التي بدات تقوم بها ، فقد أخذ الرجل يعي وجوده المستقل ، عن وجود التشكيلات الاجتماعية العائلية ، وظهر تململ المرأة الصامت . ولم تطرح قضية المرأة ، كقضية

خاصة ، الا مع الاسرة الزوجية النووية ، التي فرضتها ظروف تطور المجتمع الراسمالي .

واذا اعتبرنا ان الاسرة بصورة عامة قد قطعت مراحل متعـددة خـلال مسيرة صيرورتها التاريخية ، فان الاسر العربية المعاصرة لا تنتمي بكليتها الى حقبة أو مرحلة بعينها من مراحل هذه المسيرة ، بل تتوزع على كافة اطوارها . ولذلك ، ليس نادرا ان نلاحظ شيوع ظاهرات قد تكون ذات طابع اعتقادي ، او سلوكي ، او قيمي ، او استهلاكي تنتشر ضمن هذه الاسر بصورة مشتركة، رغم وجود فروقات بنيوية واضحة في تراكيب الاسر المشار اليها . فان أقنية الاتصال والتسريب ما زالت قادرة على نقل التأثيرات ، المتبادلـة على كافـة أشكالها ، التي لا تصل الى المستوى البنيوي الذي يفقدها قاعدة وجودها .

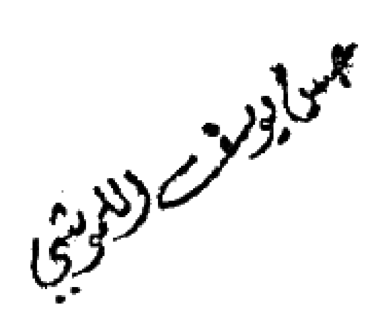
ورغم وجود أسرة عربية زوجية نووية في بعض المناطق ، الا انه لا يزال يلاحظ شيوع الحذر والتحفظ ازاء المرأة وقضيتها ، وهو موقف يكاد يجمعها بالاسرة البدوية أو التقليدية الواسعة أو المتحولة .

وبالمقابل ، يكاد يصبح استعمال الآلات والادوات المتطورة تكنولوجيـا عاما وشائعا في كافة اوساط الاسر مهما كان شكل بنيتها . وكذلـك تفاقـم الاسباب التي تؤدي بالاسرة الى التمزق والانحلال .

ومهما يكن من أمر ، فان اهمية ما قمنا به ( وبكـل تواضـع ) ، تكمن برأينا ، في ربط بعض الظاهرات بأشكال وانمـاط البنيـات الاسريـة التي تفرزهـا . فلقد أدت العودة الى التاريخ واستقراء معطياتـه الماديـة ، عـلى مستوى قاعدة المجتمع ، الى الكشف عن ظروف عملية بروز هذه الظاهرة أو تلك ، وان تفاقمت اليوم ظاهرة معينة وانتشرت فليس ضروريا ان يعني ذلك انها بنت الساعة او من افرازات الظروف الراهنة .

وفي رأينا ، ليس مـن سبيل الى نكران وجـود التباين على المستوى الاسري في اقطـار الوطن العربي ، ولا الى التنكر له ، بانتظـار ان تصـل المجتمعات العربية نفسها الى درجة متقاربة مـن النمو والتطـور المنسجم . ويبقى ان المشكلات والقضايا الاسرية موجودة بل وتتكاثر باضطـراد ، وكـل تأخر في الحد من آثارها السيئة ، وتعميق الركائز الايجابية فيها ، قد يؤدي الى أوخم العواقب على الصعيد الاجتماعي العام .

ان الاطار العريض الذي رسمته الدراسة وحددت ضمنه معظم المشكلات التي تعاني منها الاسرة العربية ، على مختلف انماطها ، يساعـد في المستقبل القريب ، اذا ما توفرت امكانات اجراء دراسات مقارنة بين اوضاع الاسر في بعض الاقطار العربية ، على رسم سياسة اسرية هدفها معالجة كافة المشاكل وقضاياها بشكل يؤدي الى تقاربها واذابة الفوارق فيما بينها ، والحـد مـن تأثيراتها المتناقضة والكابحة في معظم الاحيان ، للنمو الاجتمـاعي العام فـي الاقطار المذكورة .




## المراجع والمصادر العربية

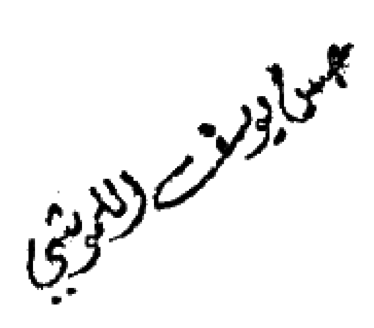

١ — الاصفهاني ( ابو الفرج ) : الاغاني ، طبعة بيروت ، ١٩٥٦ .
٢ — انجلز ( فردريك ) . أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ، شتوتغارت ، ١٨٨٤ .
٣ — الاسبوع الاجتماعي الرابع في بيروت ؛ الاسرة اللبنانية ، منشورات الآداب الشرقية ، ١٩٤٣ .
٤ — بسيوني ( اميرة ) . الاسرة المصرية ؛ دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
٥ — بلاشير ( ر ) ؛ تاريخ الادب العربي — العصر الجاهلي — ترجمة د. ابراهيم كيلاني ؛ دار الفكر .
٦ — البهي ( د. محمد ) ؛ الفكر الاسلامي والمجتمع المعاصر ، مشكلات الاسرة ، دار الفكر ، طرابلس — ليبيا ، ١٩٧١ .
٧ — بيهم ( محمد جميل ) ؛ المرأة في حضارة العرب ، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٩٦٢ .
٨ — الجميلي ( رشيد ) ؛ تاريخ العرب . بيروت ، ١٩٧٢ .
٩ — جودت ( محمد ) ؛ الاخية التركية ، استانبول ، ١٩٣٢ .
١٠ — الحسيني ( علي ) ؛ تاريخ سورية الاقتصادي ، دمشق ، ١٣٤٢ هـ .
١١ — حطب ( د. زهير ) ؛ ظاهرة الطلاق في المجتمع الاسلامي من خلال الدعاوى المقامة امام المحكمة الشرعية في بيروت ، مركز الابحاث في معهد العلوم الاجتماعية — الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٠ .
١٢ — الخماش ( سلوى ) ؛ المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف ، مكتبة العالم الثالث ؛ دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٣ .
١٣ — خولي ( سناء ) ؛ التغيير الاجتماعي والتكنولوجي واثره في الاسرة المصرية ، بنائيا ووظائفيا ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
١٤ — خير ( صفوح ) ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٦٩ .

١٥ ــ دوري ( د. عبد العزيز ) ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦١ .
١٦ ــ رفاعي ( د. عبد العزيز ) ، التطور الاجتماعي للشباب المصري ، وزارة الشباب ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
١٧ ــ بدران ( د. ابراهيم ) : وخماش ( د. سلوى ) ، دراسات في العقلية العربية ــ الخرافة ، دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٤ .
١٨ ــ زيدان ( جرجي ) ، تاريخ التمدن الاسلامي ، اربعة اجزاء ، تحقيق د. حسين مؤنس ، بدون تاريخ .
١٩ ــ زيدان ( جرجي ) ، العرب قبل الاسلام ، المكتبة الاهلية ، بيروت .
٢٠ ــ سالم ( د. عبد العزيز ) ، دراسات في تاريخ العرب، ج ١ ، الاسكندرية، ١٩٦٨ .
٢١ ــ السعداوي ( د. نوال ) ، المراة والجنس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ .
٢٢ ــ السعداوي ( د. نوال ) ، الانثى هي الاصل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٤ .
٢٣ ــ شابيرا ( س. ) ، الحكومة والسياسة في المجتمعات القبلية ، لندن ، ١٩٥٦ .
٢٤ ــ شمس الدين ( الشيخ محمد مهدي ) ، نظرة الاسلام الى الاسرة ، من كتاب ، « الاسلام وتنظيم الاسرة » ، بيروت ، ١٩٧٣ .
٢٥ ــ صابوني ( د. عبد الرحمن ) ، الاسرة وحل مشاكلها في ضوء الاسلام ، دار الفكر .
٢٦ ــ صباغ ( د. ليلى ) ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٣ .
٢٧ ــ ضيف ( شوقي ) ، المجتمع الجاهلي ، القاهرة .
٢٨ ــ عبد المتعال ( د. صلاح الدين ) ، اثر التغير الاجتماعي في بناء الاسرة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧١ .
٢٩ ــ الغزاوي ( عباس ) ، عشائر العراق ، بغداد ، ١٩٦٠ .
٣٠ ــ العفيفي ( د. ابو العلا ) ، الملامتية والصوفية واهل الفتوة ، القاهرة ، ١٣٦٤ هـ ــ ١٩٤٥ .
٣١ ــ علي ( د. جواد ) ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٨ ، بغداد ، ١٩٥٨ .
٣٢ ــ العلي ( د. صالح احمد ) محاضرات في التاريخ الاسلامي ، بغداد .
٣٣ ــ الغزالي ( الامام ابو حامد ) ، احياء علوم الدين ، ج ٢ .
٣٤ ــ غيز ( هنري ) ، بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن ، باريس ١٨٤٦ ، عرّبه مارون عبود ، منشورات دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٤٩ .
٣٥ ــ فروخ ( د. عمر ) ، تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٤٦ .
٣٦ ــ فلهوزن ( ي ) ، تاريخ الدولة العربية ، لجنة التأليف والترجمة ، ترجمة د. محمد عبد الهادي ابو ريده : القاهرة ، ١٩٦٨ .

٣٧ ــ الكرمي ( حسن سعيد ) ، الاسرة وتطويرها في المحيط الاسلامي ، من كتاب « الاسلام وتنظيم الاسرة » ، صدر عن الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية ، بيروت ، ١٩٧٣ .
٣٨ ــ لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧٥ .
٣٩ ــ المحاسني ( د. زكي ) ، ابو العلاء ناقد المجتمع ، دار المعارف ، لبنان ، ١٩٦٣ .
٤٠ ــ المرادي ، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، القاهرة ( ١٢٩١ هـ ــ ١٨٧٣ م ) .
٤١ ــ المسعودي ( ابو الحسن ) ، مروج الذهب ج ٢ و ٣ ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
٤٢ ــ الميداني ، مجمع الامثال ، ج ٢ ، بيروت ١٣١٢ هـ .
٤٣ ــ النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، حققه جعفر الحسني ، ج ٢ ، دمشق ، ١٩٤٨ .
٤٤ ــ الهاشمي ( د. علي ) ، المرأة في الشعر الجاهلي ، بغداد ، ١٩٦٠ .
٤٥ ــ يعقوب ( القاضي ابو يوسف ) ، الخراج ، طبعة المطبعة السلفية ، القاهرة .

**مصادر أخرى**

٤٦ ــ القرآن الكريم .
٤٧ ــ الاحصاءات السنوية ، الجهاز المركزي للاحصاءات ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
٤٨ ــ القوى العاملة في لبنان ، مديرية الاحصاء المركزي ، وزارة التصميم في بيروت ، ١٩٧١ .



# المصادر والمراجع الاجنبية

## REFERENCES


1 — Berque (J) , Normes et valeurs de l'Islam contemporain, avec (J.P.) Charnay , Payot , Paris , 1966 .

2 — Bonne State & Economics in the Middle East. London, 1959.

3 — Borgard, Voyage en Arabie, Paris, 1835.

4 — Chatila (K), le mariage chez les musulmans en Syrie, Paris, 1934.

5 — Daghestani , (K) La famille musulmane contemporaine en Syrie, Lib. Ernest Leroux, Paris, 1928.

6 — Durkheim (E), La famille conjugale, revue philosophique, no. 46, Paris, 1921.

7 — Gibb & Bowen, Islamic society, 2 vols, Oxford, 1957.

8 — Hatab (Z), Les familles sunites beyrouthines: vie quotidienne, structures et conflits conjugaux, thèse, Paris, 1974.

9 — Heyd, Histoire du commerce du Levant au Moyen-âge, 2 vols, Leipzg, 1936.

10 — Masry (Y), Le drame sexuel de la femme dans l'orient arabe, Robert Laffont, Paris, 1962.

11 — Parsons : « La parenté aux Etat-unis » , 1943, repris par « Eléments pour une sociologie de l'action », traduit par F. Bourricaud, Paris, Plon, 1955.

12 — « The social structure of family » in R. Anshen.

13 — Poliak, Feudalism in Egypt, Syrie, Palestine and the Lebanon, 1250 - 1900, London, 1939.

14 — Sauvaget, Esquisse d'une histoire de la vie de Damas, in, Revue des études islamiques, Paris, 1934.

15 — Stoezel (J), Les changements dans les fonctions familiales, in Renouveau des idées sur la famille, éd. I.N.E.D., Paris, 1954.

16 — Touzard (H), Enquête psychosociologique sur les rôles conjugaux et la structure familiale, éd. CNRS, Paris, 1967.

71 — Weulerasse (J), Paysans de Syrie et de Proche-Orient, Tours, 1946.



## الفصل الاول

### بنية الاسرة الجاهلية : البدوية والحضرية وظاهرات الزواج والطلاق والحياة الزوجية فيها

## الفصل الثاني

## اثر الدعوة الاسلامية على مسيرة تطور الاسرة العربية كيانا ووضعا وتنظيما حتى أواسط العهد العباسي

## الفصل الثالث

## الاسرة العربية
## من تفكك السلطة العباسية
## الى بداية القرن العشرين

**الاراء الواردة فـــي هـــذا الكتاب**
**لا تعبر بالضرورة عن رأي المعهد**

محمد يوسف الحوشي

# تطور بنى الأسرة العربية

يوماً اثر يوم تتفاقم المشكلات في نطاق الاسرة وتتزايد القضايا التي تخلقها. وتنعكس آثارها باضطراد على الواجهة المعروفة للاسرة العربية فيتعرض بعض ملامحها للتغيير.

والمؤلف حين تعرض للمشكلات والقضايا والظاهرات الجديدة المنوه بها، عاد بها، الى اصولها التاريخية وجذورها الاجتماعية، وبين انها نتاج بنى معينة أفرزها المجتمع خلال مسيرة تطوره الطويلة. كما برهن على قيام بنيات أسرية كانت تتوافق عند تألفها مع المقتضيات والشروط الموضوعية التي وفرها المجتمع. وبكلام موجز لقد وضع المؤلف مشكلات الاسرة وقضاياها في صميم عملية التطور الاجتماعي التاريخي التي عرفها الوطن العربي. وهو تطور اصاب الاسرة العربية، كمؤسسة، كما اصاب غيرها من المؤسسات والنظم الاجتماعية الاخرى. واستنتج ان التصدي لمشكلات الأسر العربية الحالية لا يمكن ان يتم الا من خلال الاعتقاد بان القضايا المطروحة ليست انجازات معيارية. بقدر مما هي اشكال توافق وظيفي او اواتي جديدة، برزت في الاسرة تعبيراً يجسد واقع عملية التطور التي تتم على مستوى تطور المجتمع ككل.

محمد يوسف الحوشي

١٥ ل. ل. أو ١٥٠٠ درهم ليبي

أو ما يعادلهما